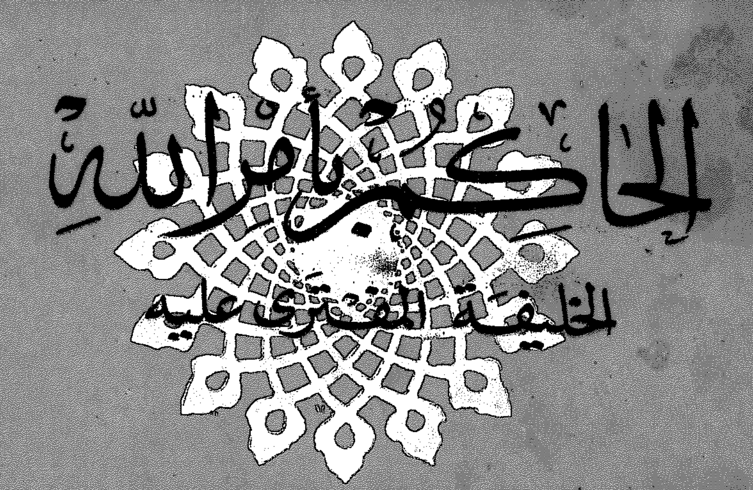


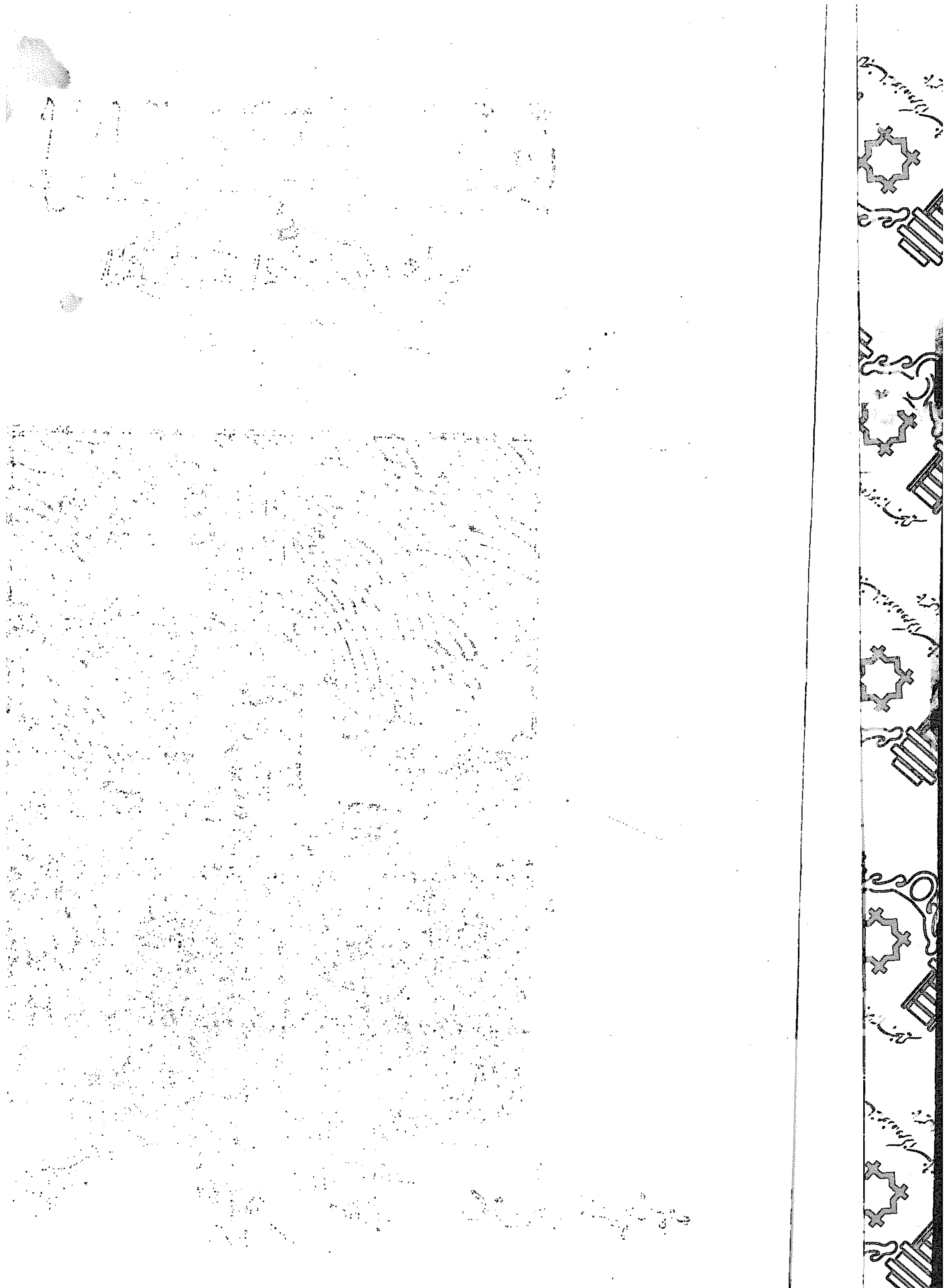
الحاكم بامر الله
الحاكم بامر الله
۲۸۹۲۶۵

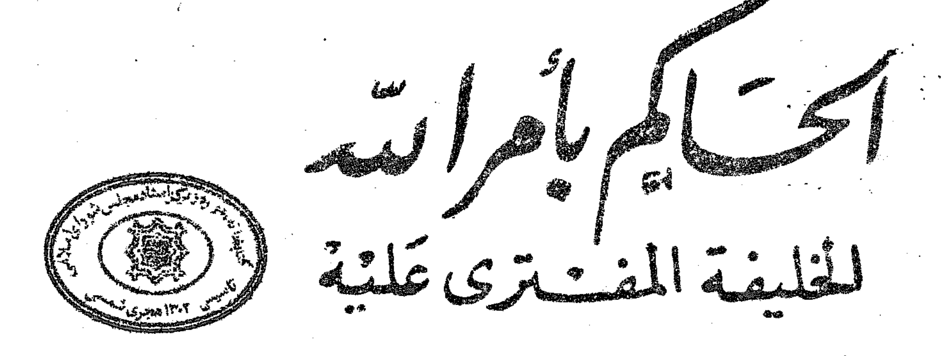


الحاكم بأمر الله

الخليفة المفترى عليه

دكتور عبد المنعم ماجد





بقلم

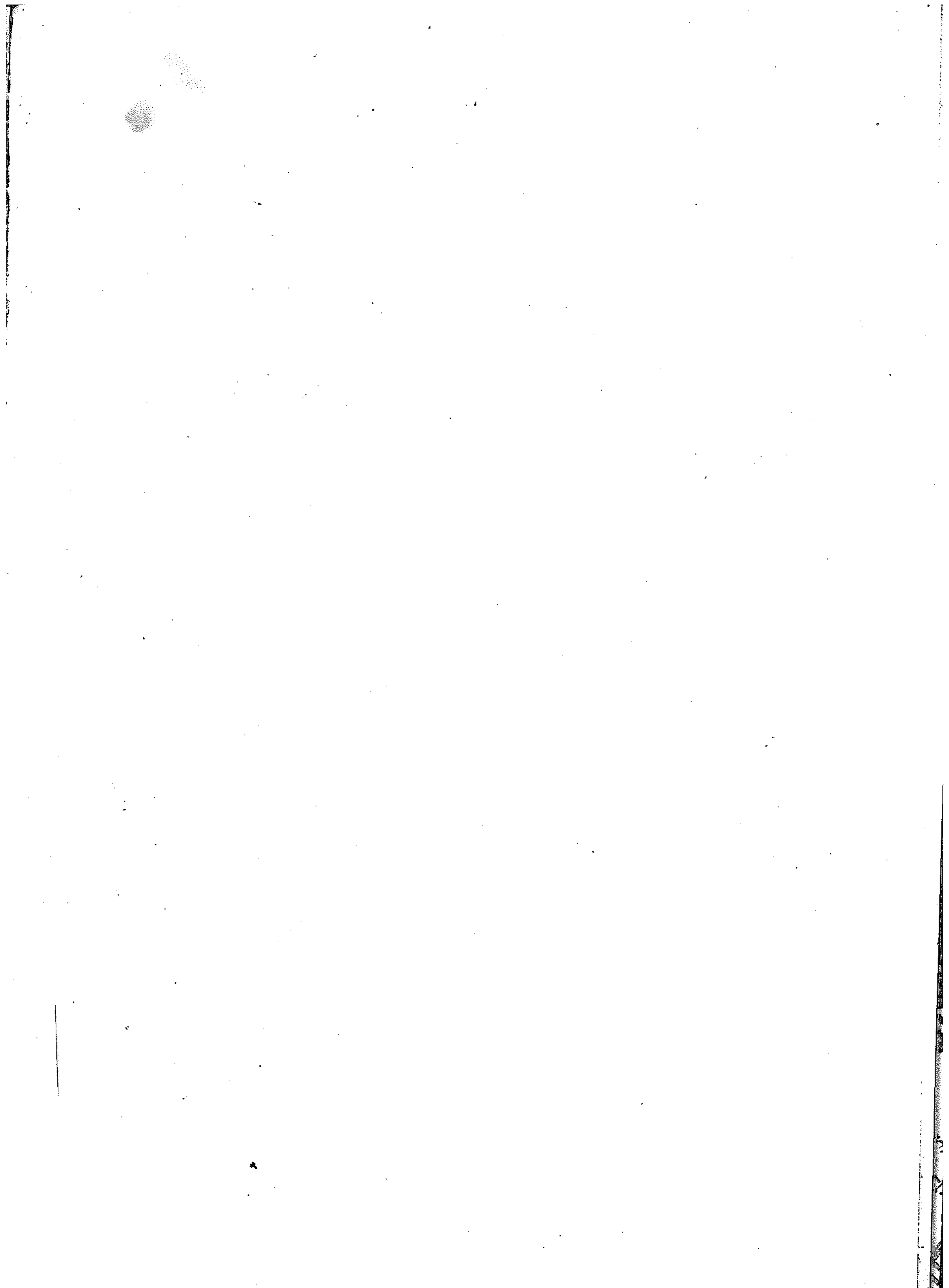
الدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
ومدير مركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس

الطبعة الثانية
(منقحة)

القاهرة
١٩٨٢

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية



أصبحت لا أرجو ولا أتقى ، إلا إلهى وله الفضـــل .

جـــدى نبىٌّ وإمامى أبى ، ودينىَ الإخلاصُ والعدلُ .

الحاكم بأمر الله

فهرس الكتاب

تصدير الطبعة الثانية

هذه الطبعة الثانية لهذا الكتاب ؛ تدل على تقدير القارىء لموضوعه التاريخى ، الذى عرض بمنهجية وحيدة تامة ؛ فهو تاريخ الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ؛ ترجمة لحياة رجل عظيم ، من رجالات مصر العظام ، مسلكه فى الحكم هو مسلك الحاكم السوى ، المتكامل الشخصية ، الذى كان حساسا بعمق لكرامة الانسان ، وللحق والعدل ، ثم هو أول خليفة مصرى ؛ بحكم ولادته ونشأته فى مصر ، وسوف تبقى مآثره بقاء الدهر ؛ متمثلة فى طائفة الدروز العربية بالشام ، وطوائف شيعية أخرى فى أنحاء بلاد الاسلام الأخرى ، لا سيما طائفة البهرة ؛ وذلك على الرغم من تقولات أعدائه ، الذين صوروه بصور مختلقة ، من تأليه وسوء سلوك ؛ فاعادة طبع هذا الكتاب ؛ هو تلبية لرغبة شديدة لدى المثقفين فى بلدان الاسلام ، من المتعطشين لمعرفة حقيقة سيرته ، والله ولى التوفيق .

الدقى فى يناير ١٩٨٣

● المؤلف

● كل نسخة مبيعة تكون ممضاة من المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا الكتاب يحاول لأول مرة أن يتناول بالعرض تاريخ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، بالاعتماد على كتب مختلفة ، لاسيما كتب الفاطميين ، التي كانت إلى وقت قريب مجهولة لنا تماماً ، وحفظت في المكتبات الخاصة مئات القرون ، دون أن تستخدم . فهذه المصادر الجديدة التي ظهرت للنور ، بسبب تغيّر روح العصر وإقبالها على المعرفة ، ساعدتنا على فهم نواحٍ كثيرة من تاريخه المظلم .

والثابت أن أكبر مشكلة تقابل من يتعرض للكتابة عنه ، هو كثرة أعدائه من المسلمين السنة ، وحتى من القبط واليهود . وقد أدرك الحاكم بأمر الله بنفسه بشاعة هجوم أعدائه ، وما يلصقونه به من كبائر التهم كالإلحاد والتأله ، فحاول جهده أن يصحح ما يروجونه عنه : بالالتجاء إلى حث دعاته المخلصين على نشر العقيدة الفاطمية الصحيحة ، وتأليف الكتب التي تبيّن خطل إدعاء أعدائه . ولا مراء فإن كثرة أعدائه ، أتت من نجاح أسرته في تكوين خلافة ثابتة الأركان ، حققت أحلام الشيعة لأول مرة .

ومع اعتقادنا بأن الحاكم بأمر الله طاغية من طغاة المسلمين — فاسمه يدل على طغيانه — إلا أننا نلمس في شخصيته شواهد مدهشة ، لا نجدها في غيره من طغاة زمنه ، جديرة بالتأمل والتعجب . فقد أسبغ على حكمه

المثالية من إخلاص وعدل ، وتقوى وورع ؛ مما جعل سيرته تتشابه فى بعض نواحيها مع سيرة العمريّن : عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ؛ اللذين أعتبرت سيرتهما من الأساطير . وإذا كانت هذه المثالية قد أتت من طاغية مثل الحاكم بأمر الله ؛ فإن تصرفاته بدت غريبة لأهل عصره ، ولم تفهم الفهم الصحيح .

وليس أقل غرابة أن نعتبر الحاكم بأمر الله من أصحاب النحل الدينية ؛ بمحاولته إعادة الاعتقادات الفاطمية الفاسدة إلى جوهرها الأصيل ؛ حيث شمر عن ساعد الجد ، وكانت لديه الشجاعة فى دعوة أتباعه إلى مذهب جديد عُرف معتنقوه بالموحدين ، وفيما بعد بالدروز . فبقاء الدرزية إلى الآن لتمثل الحياة الدينية لجماعة بشرية متميزة تعيش بيننا ، يدل على قوة تأثير شخصية الحاكم بأمر الله الدينية .

وأخيراً ؛ إذا كان هذا الكتاب عن تاريخ الحاكم بأمر الله قد تم ظهوره ؛ فبفضل ما أطلعنا عليه صديقنا الدكتور حسين فيض الله الهمدانى من بعض مخطوطات مكتبته الخاصة . فشكراً له ، ولتلميذتنا منيرة غنيم ، التى ذهبت إلى مكتبة الدكتور الهمدانى ، وصورت لنا بعض مخطوطاتها ؛ لتكون تحت تصرفنا فى كل وقت .

المؤلف *

المعادى أكتوبر ١٩٥٨

الفصل الأول

مقدمة

يرجع ظهور الخلافة الفاطمية فى المغرب ، ثم فى مصر ، إلى نجاح دعوة التشيع ؛ إذ أن الفاطميين شيعة : وهى لفظة فى اللغة أصلها من المُشايعة ، وهى المتابعة والمطاوعة ، والشيعة هم الفرقة من الناس ، الذين تابعوا علياً وأهل بيته ، حتى صار لهم اسماً خاصاً[1] ؛ وهذا الاسم له سند فى القرآن بقوله : ﴿ هَذا مِن شِيعَتِهِ وَهذا من عَدُوِه ٢٨ : ١٥ ﴾ .

والشيعة كفرقة دينية سياسية ، أختلف المؤرخون فى وقت ظهورها . فيقول النوبختى (القرن الثالث الهجرى) فى كتابه فرق الشيعة : إنهم فرقة علىّ بن أبى طالب ، المسمون بشيعة علىّ ، ظهروا فى زمان النبى وبعده ؛ وعرفوا بانقطاعهم لعلىّ والقول بامامته[2] . وعلى النقيض يقول ابن النديم (م ٣٨٣ / ٩٩٣) فى كتابه الفهرست : إن هذه التسمية ظهرت لأول مرة عندما حارب علىّ طلحة والزبير ، اللذين أبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان واتهماه به ؛ فتسمى من اتبع علياً فى قتالهما بالشيعة ، وكان علىّ يقول شيعتى[3] . وعلى أى الرأيين ، فإن المحن التى حلت بعلىّ بقتاله طلحة والزبير ، وبقتاله معاوية بن أبى سفيان من بعدهما ، وهو الذى طالب بدم عثمان كذلك ؛ لقرابته لعثمان ؛ زادت الشيعة تضامناً ، بحيث أن أغلب أهل الكوفة أصبحوا من شيعة علىّ ، كما يذكر المؤرخون بالتخصيص[4] .

ولقد أصبحت الشيعة موضع اضطهاد الخلافة الأموية ، التى قامت بعد مقتل علىّ سنة ٤٠/ ٦٦١ ، مستندة إلى عصبية البيت الأموى عدو بيت بنى هاشم الذى ينتمى إليه علىّ ؛ إذ تمتد عداوة البيتين إلى أيام الجاهلية(٥). فاعلن الأمويون سب علىّ ولعنه فى الخطب على منابر المساجد ، وسموه أبا تراب وحقّروا الشيعة وسموهم الترابية ؛ وكانوا يرمون بذلك إلى جعل علىّ كقاطع طريق ، مع أن الشيعة لم يكونوا يعرفون هذا الاسم من قبل(٦) . وكذلك قتلوا كل من فكر فى الخروج عليهم من بنى علىّ ، ودوننا كتاب مقاتل الطالبيين(٧) ، يحتوى على أسماء من قُتل منهم ولا سيما الحسين بن علىّ ، الذى أُعتبر سفك دمه عند الشيعة فى سهل كربلاء بالعراق ، ذا قيمة فى التضحية تشبه سفك دم المسيح عند المسيحيين .

وقد استفاد بنو العباس من هذه الحالة — وهم سلالة العباس عم النبى ، ومن بيت بنى هاشم أيضاً — ودعوا إلى الرضا من آل البيت أى إلى بنى هاشم ، بقصد القضاء على خلافة أعدائهم الأمويين . ولم يكن بنو العباس الأوائل يسعون إطلاقاً إلى الخلافة ، مع علو مركزهم كسادة لبنى هاشم ؛ وإنما كان كل همهم تعضيد علىّ وأبنائه فى المطالبة بها . ولعل ظهور طموح بنى العباس فى آخر عهد الخلافة الأموية ، كان بسبب أن الطريق قد خلت لهم ؛ لكثرة من قتل من بنى علىّ . ومع أن بنى العباس لم يذكروا فى أول الأمر المقصود بالدعوة إلى الرضا من آل البيت ، أهو فرع آل علىّ أو آل العباس ؛ فإنهم لما تمكنوا من القضاء على الخلافة الأموية ، تولوها من من دون بنى علىّ(٨) .

وكان المفروض أن يكون بنو العباس أخف وطأة على بنى علىّ من

الأمويين ، لأنهم من بيت واحد ؛ ولكن هذه القرابة بالذات ، جعلتهم أشد قسوة عليهم ، خوفاً من أن تضيع الخلافة من أيديهم . وكما قال خلفاؤهم : إن العم وارث النبي ، وأولى الناس به ، وأحق من ابن العم ، وأن كل من دخل الخلافة بعده غاصبون متوثبون[٩] ؛ فسموا بنى علىّ بالطالبيين ليميّزوهم عن أنفسهم ، على اسم أبي طالب أبي علىّ ، وأظهروا أنه مات كافراً[١٠] . ثم تتبعوا الذرارى العلويّة فقتلوهم : فتظاهر المأمون بالرغبة فى رضاهم ، فأمر بالنداء فى البلدان أن من كان من نسل علىّ فليصل إلى المأمون ؛ فوصل إليه جماعة منهم ، فقتلهم[١١] . كذلك أتى محمد المنتصر بالله بن المتوكل ، بشىء لم يسمع به ، وهو أنه كتب إلى الآفاق بأن لا يمتّلك علوىّ أرضاً ، ولا يركب فرساً ، وأن يمنعوا من إتخاد العبيد إلا العبد الواحد ، ومن كان بينه وبين أحد الطالبيين خصومة ، قُبل قول خصمه ، ولم يُطالب ببينة[١٢] .

ولكن الشيعة فى ظل العباسيين ثابروا على الدعوة لآل على ؛ وإن كثروا وقتئذ ، لكثرة أفراد آل علىّ ؛ وكانت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم ؛ حتى بلغت فرقهم ثلثمائة فرقة[١٣] ؛ وإن بقى اسم الشيعة يدل على طوائفهم المختلفة. وفى ظل العباسيين تكونت للشيعة أيضاً أراؤها الدينية وعقائدها[١٤] ؛ وأصبحت كامة شيعة تقابل كامة سنة ، التى ظهرت لأول مرة فى عهد العباسيين ، لتعنى العقيدة العباسية ؛ فكانت بعض فرق الشيعة تتميز عن السنة ، والبعض الآخر يميل إليها[١٥] .

★

وكانت أهم فرق الشيعة فى عهد العباسيين وأكثرها تطوراً فى العقائد الدينية ، هى الفرقة التى قالت بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب[١٦] . فهذه الفرقة تؤمن مثل

غيرها من فرق الشيعة إيماناً لا حد له ، بوصاية النبي لعليّ في غدير خمّ — مكان بين مكة والمدينة[١٧] — لتبقى الإمامة وهي حكم المسلمين في بيت عليّ إلى يوم الدين[١٨] ، فكانت عقيدتها : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، عليّ وليّ الله[١٩]. ولكنها تميّزت عن غيرها بأن الإمامة تكون بالنص أو التنصيص ، أي بوجوب تعيين الإمام لخلفه ، وأنها في الأعقاب لا ترجع القهقرى ، فلا تنتقل من أخ إلى أخ ؛ ولا بد أن تكون من أب إلى ابن : فإن موت إسماعيل (م ١٤٥/٧٦٢ — ٣) في حياة أبيه جعفر الصادق ، يجعل النص ينتقل لابنه محمد ، وليس لأخيه موسى الكاظم[٢٠] ، لذلك عرفت بالفرقة الإسماعيلية ، على اسم إسماعيل[٢١] . وكانت تعتقد أيضاً بأن الأئمة منهم ، يتوارثون طبيعة روحية ، فإن النبي نقل إلى عليّ بعض علومه الإلهية مباشرة ، ليتوارثها الأئمة من نسله بعده[٢٢] ؛ وهي علوم تتمثل على الخصوص في تفسير القرآن ، أو ماعرف بالتأويل أو المعنى الباطن[٢٣] ؛ إذ لكل تنزيل تأويل ، فقد قال الرسول: «أنا صاحب التنزيل وعليّ صاحب التأويل». وكل كتب الدعوة الإسماعيلية تشير إلى تأويل القرآن ؛ كما ردوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم ؛ وهي ماعرفت عندهم بالأخبار[٢٤]. وقد جعلهم ذلك يثبتون لأئمتهم صفة إلهية أو عصمة عن الكبائر والصغائر[٢٥] ، فكانت معرفة الإمام واجبة على المسلمين ، بحيث أن من مات لايعرف إمام دهره حياً ، مات ميتة جاهلية[٢٦] . ومع ذلك فعقائد الإسماعيلية كانت متطورة في كل بيئة وزمن ، مما زاد من أهميتها بين الفرق الشيعية .

ولكن أمام اضطهاد العباسيين أضطرت هذه الفرقة إلى الدعوة السرية واضطر أئمتها إلى التستر أو التكتم ، وهو ماعرف بالتقية[٢٧] ، حتى أن محمد بن إسماعيل ، سمي بالمكتوم ، سمته بذلك شيعته لما اتفقوا عليه

من إخفائه ، حذراً من العباسيين[٢٨] . وعلى النقيض كان الأئمة يُظهرون دعاتهم ، الذين عرفوا بالحجج[٢٩] ، لينقلوا عقائدهم وينشرونها بين الناس ، وإن لم يكشفوا إطلاقا عن شخصية الإمام[٣٠] . وكان الأئمة الإسماعيليون فى تسترهم يلجأون إلى وسائل متعددة ، فأربعة من ولد جعفر الصادق ادعوا الإمامة لنفسهم بقصد ستر الإمام الحقيقى ، بحيث أن بعض الروايات تقول : إن إسماعيل نفسه إمام ظاهر ، ولم يكن غير صورة للامام الحقيقى عبد الله ، الأخ الاكبر[٣١] ، أو خلطوا أنفسهم بغيرهم ، فمحمد بن إسماعيل المكتوم اختفى مع شخص اسمه ميمون القداح وإبنه عبدالله[٣٢] ، أوتسموا بغير أسمائهم كمحمد وعبد الله ، أو بأسماء حججهم كسعيدومباركوميمون[٣٣] ، أو أن دعاتهم سموهم بأسماء مختلفة لم يتفق منها فى ذلك اثنان[٣٤] .

ومع أن الفرقة الإسماعيلية أرسلت دعاتها إلى كل مكان ، لاسيما منذ أن تستر محمد بن اسماعيل[٣٥] : فى البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب[٣٦] ، أى إلى أطراف الخلافة العباسية ، فإنه لم يكتب لها الفوز الباهر كما كتب لها بالمغرب ، وهو النجاح الذى توج بانشاء خلافتهم فيها . فقد كانت هذه البلاد بعيدة عن مركز الخلافة ، تسكنها قبائل من البربر متمردة ، بحيث أن العرب الأوائل لم يتمكنوا من فتحها ، إلا بعد حروب استمرت من ٢٦/٦٤٦ إلى ٨٣/٧٠٢ . وبعد إسلام البربر ، ومشاركتهم للعرب فى الجهاد ، أساءت الخلافة الأموية إلى البربر ، وفرقت بينهم وبين العرب فى المعاملة ، فمنذ ذاك والمغرب ملجأ للخارجين على الخلافة فى الشرق ، مثل : الخوارج بفرقها من الأباضية والصفرية[٣٧] ، أو الأدارسة العلويّين الذين ساعدهم البربر من زناتة وغيرهم على إنشاء دولةلهم فى المغرب الأقصى ، طابعها سنى وإن حكمها الأدارسة العلويون ، وذلك فى سنة ١٧٢/٧٨٩[٣٨] .

وقد اختصت الدعوة الإسماعيلية من قبائل البربر قبيلة كتامة فى بلاد إفريقية[٣٩]، الممتدة من طرابلس إلى طنجة ، لا سيما وأن هذه القبيلة عرفت بأنها أكثر القبائل عدداً وأصعبها مراساً، إذ كانت تسكن فى إفريقية جبال أوراس الوعرة فى جنوبها[٤٠]. وقد بدأت الدعوة الإسماعيلية بين كتامة منذ وقت مبكر على يد الحلوانى وأبى سفيان فى سنة ١٤٥/٧٦٢[٤١] ؛ وبعد موتهما ، على يد أبى عبد الله المحتسب ، المشهور بالشيعى الصنعانى ، أى أنه جاء من اليمن ؛ وذلك فى سنة ٢٨٠/٨٩٣[٤٢] . فوجد أبو عبد الله الأرض موطأة ممهدة له ، وبدأ يجمع الأتباع ، وسما الكتاميين بالمؤمنين ، كناية عن أنهم قبلوا الدعوة الإسماعيلية ، ودخلت فى قلوبهم . ومن أرض كتامة الوعرة أخذ أبو عبد الله يهاجم دولة الأغالبة ، وهى التى كانت قامت بتشجيع المأمون العباسى ؛ لتقف فى وجه الأدارسة العلويين ، وغيرهم من الخوارج ؛ فكان أبو عبد الله يكتب على راياته : « سيهزم الجميع » ، وعلى أفخاذ الخيل : « الملك لله »[٤٣] . فاستطاع أن يتغلب بنجاح على الأغالبة ، ويدخل دار ملكهم فى رَقّادة سنة ٢٩٦/٩٠٨ — ٩٠٩[٤٤] .

أدركت الخلافة العباسية الخطر من نجاح دعوة الإسماعيلية فى بلاد المغرب ، فأرسلت الكتب إلى ولاتها فى أنحاء الخلافة بالقبض على إمام الإسماعيلية ؛ وذلك بصفته وهيئته . فخرج الإمام الإسماعيلى متخفياً[٤٥] ، من سَلَمِيَّة من أرض حَماة بالشام[٤٦] ؛ ومعه ولىّ عهده أبو القاسم محمد وهو يومئذ غلام حدث ، حتى انتهى إلى مصر ، التى كان له فيها دعاة وشيعة[٤٧]. وأمل الإمام أن يقصد اليمن ، إلا أن دعاتها كانوا مختلفين[٤٨] ؛ فبقى مستتراً فى مصر ؛ ليرحل منها إلى المغرب ؛ لاسيما وأن أبا عبد الله كان يستحثه على المجىء إلى المغرب ،

وسيّر إليه فى سلمية رجالا من كتامة ، ليخبروه بما فتح الله عليه[٤٩] ، وكان يرسل إليه كتبه تطلبه حيثما نزل[٥٠] ، فخرج الإمام من مصر فى زىّ التجار إلى المغرب ، وإن دهمه اللصوص وسرقوا كتبه ، بما فيها من علوم الأئمة[٥١]. وكان مع الإمام فى صحبته ، أبو العباس أخو أبى عبد الله الشيعى ، وجعفر الحاجب الذى ترك لنا تاريخ سيرته مع الأئمة ؛ فسبقهم أبو العباس إلى القيروان ، فقبض الأغالبة عليه . وكان الإمام قد وصل إلى طرابلس الغرب ، فلم يذهب إلى أبى عبد الله حتى لا يقتل الأغالبة أبا العباس ، وقصد سجلماسة فى جنوب بلاد المغرب[٥٢] ، إلا أنه مالبث أن قبض عليه هو وولىّ عهده . فلما انتصر أبو عبد الله فى رقادة أسرع إلى سجلماسة ، واستنقذ الإمام وولىّ العهد . فسار الإمام من سجلماسة ، ونزل رقادة سنة ٩٠٩/٢٩٧ ، وتلقب بالمهدى عبيد الله أمير المؤمنين[٥٣] ، وأقام خلافته ، التى اشتهرت بالعلويّة والفاطمية[٥٤] ، منتسبة إلى بيت علىّ وفاطمة مباشرة ، أو حتى باسمه : بنى عبيد[٥٥] .

وتردد بعض كتب الشيعة أن عبيد الله لم يكن الإمام الحقيق ، وإنما هو سعيد الخير ، وأن الإمام ابن عمه علىّ بن محمد ، الذى مات وهو يتأهب للسفر إلى المغرب ، فجعل سعيد الخير هذا ستاراً لإبنه أبى القاسم وأباً روحياً له ، بحيث أُعتبر أبو القاسم بعد موت عبيد الله الإمام الظاهر الأول ، بعد فترة التقية[٥٦] . ويؤيد هذا القول ، مايذكره المؤرخ السنى ابن حمّاد من أن أبا القاسم ، كان يركب فى أيام أبيه بالمظلة — شعار أئمة الفاطميين — وباسمه كانت تنفذ الكتب والعهود[٥٧] . ولكن إتخاذ عبيد الله لقب المهدى ، دل على أنه هو الشخص الذى أظهره الله بالحق ، ليمّلك الأئمة الفاطميون الأرض بأسرها[٥٨] . ولعل فكرة المهدى[٥٩] ، أخذها المسلمون من النصارى أو

اليهود أو المجوس ، الذين رددوا فى كتبهم المقدسة ، مجىء المهدى فى آخر الزمان ليصلح حال الناس ، ويملأ الدنيا عدلاً . وليس لدينا روايات شيعية او سنية تبيّن أن هذه التسمية منحت عبيد الله صفة خارقة ، وإن اعتبر الفقهاء فكرة المهدى جزءاً من النبوة ، لما فيها من الهدى الصالح(٦٠) . ولقد اطلقت تسمية المهدى من قبل على الخلفاء الراشدين ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ؛ لأنهم مهديون من قبـــل الله للسير على سنة الحق ، كما أطلقتها الشيعة على أئمتهم مثل محمد بن الحنفية(٦١) ؛ وتسمى بها عمر ابن عبد العزيز(٦٢) ، بل وتسمى بها أحد الخلفاء العباسيين (٦٣) .

*

والثابت المحقق أن نجاح الإسماعيلية فى تكوين خلافة لهم بالمغرب ؛ حدث هام فى الإسلام غيّر من نظمه . فإلى هذا الوقت ، كان الأمير المستقل عن الخلافة العباسية ، لا يستطيع أن يدعى هذا اللقب ، لأن العقلية الإسلامية لم تكن تقبل تعدد الخلفاء . وحفظاً لهيبة الخلافة ، وحتى لا تتعطل الأحكام الشرعية ؛ لما صاحب الخلافة من سلطة دينية وشرعية ، سُمى الأمير المستقل بالأمير المسئول ، أى أنه خرج عن طاعة الخليفة العباسى ، واستأثر بالإقليم لنفسه ، فيقلده الخليفة تقليداً صورياً على كره منه(٦٤) . فنجد الأمراء الأمويين ، الذين التجأوا إلى الأندلس ، وكونوا فيها أمارة مستقلة بعد سقوط دولتهم فى دمشق على يد العباسيين ؛ ومع عداوتهم الشديدة للعباسيين ، لم يأخذوا لقب خليفة ، وتسموا بالأمراء أو أبناء الخلائف(٦٥) . ولكن الفاطميين منذ عبيد الله ، خرجوا على هذه القاعدة ، وتلقبوا بالخلفاء ؛ لاعتقادهم بأن الامامة لا تخرج من أولاد علىّ ، وإن خرجت فبظلم(٦٦) . فكان اتخاذ عبيد الله لقب الخلفاء ، فاتحة لظهور

خلافات أخرى ؛ ففى الأندلس أعلن الأمويون الخلافة لعبد الرحمن فى سنة ٣١٧ / ٩٢٩م ؛ الذى اتخذ ألقابها ، فتسمى بالناصر لدين الله أمير المؤمنين(٦٧) . كذلك كان تعددها سبباً فى أن جعل الفقهاء من السنة ، يقدرون إمكان عقد بيعة لأكثر من خليفة ، بحجة اتساع رقعة الإسلام(٦٨) ؛ أى أنهم أقروا الأمر الواقع .

ومع ذلك ، فإن خلافة الفاطميين لم تكن تؤمن برأى فقهاء السنة فى إمكان تعدد الخلفاء ، وأن طاعة المسلمين تكون جزئية ، وهو ما عبروا عنه بالولاية ، ففى اعتقادهم أن خلافتهم وحدها ، هى التى يجب أن تكون لها الولاية فى دار الإسلام(٦٩) ، فالولاية فرض على المسلمين من فروض الدين ، وأول دعامة فيه(٧٠) . فكان لابد للفاطميين إذن من أن يخضعوا جميع المسلمين لخلافتهم ؛ وفى سبيل ذلك عملوا على التوسع غرباً فى أملاك الأمويين ، وشرقاً فى أملاك العباسيين .

ومع أن الفاطميين لم ينسوا العداء ، الذى كان بين بنى هاشم وبنى أمية ؛ وهو عداء أصيل يرجع إلى أيام الجاهلية ، فإنهم لم يستعجلوا القضاء على أمويى الأندلس كما يبدو . وقد يكون هذا التراخى راجعاً إلى أن الأندلس رقعة محدودة من دار الإسلام ، يفصلها البحر عن بقية أممه الكثيرة ، بحيث شبهها الجغرافيون بالكم من ثوب الإسلام(٧١) ، كما أن أمويى الأندلس أنفسهم كانوا نشيطين فى حربهم ضد النصارى(٧٢) ؛ فلم يكن يخاف على المسلمين فيها . ومع ذلك ، فإن الفاطميين غزوا أجزاء كثيرة من أملاك الأمويين بالمغرب ، واستولوا عليها(٧٣) .

وعلى خلاف ذلك ، وجه الفاطميون همهم نحو العباسيين ، الذين كانوا أشد عداوة لهم من الأمويين ، وقاسوا على أيديهم الأمرين ، لاسيما وأنه كان يخضع لهم الشرق ، مجال الإسلام الواسع بأممه الكثيرة . يضاف

إلى ذلك ، ضعف العباسيين ، مما جرأ أعداء الإسلام من اليونان أو ما عرف بالروم ، على أن يصولوا ويجولوا فى أراضى الشام وبلاد الجزيرة ؛ فكان لابد من وجود خلافتهم الفتية فى الشرق ؛ لتدافع عن المسلمين . ويتبين عزم الفاطميين ورغبتهم الأكيدة فى سحق العباسيين ، قول المهدى : « لنملكن أنا وولدى ولد العباس ، ولندوسن خيولى بطونهم(٧٤) » .

وقد كان الفاطميون يقدرون عدم إمكان تحقيق الأمانى فى القضاء على العباسيين ، ووراثتهم فى دار الإسلام الواسعة ؛ ببقائهم فى ركنهم المنعزل من إفريقية . وكخطوة أولى نحو تحقيق أهدافهم ، وضعوا نصب أعينهم غزو مصر : إذ لم يغب عنهم أن فتحها معناه فتح الشام ، والسيطرة على الحجاز ، وأنها طريق العراق ؛ فضلاً عن أن غناها وثروتها يساعدهم فى تحقيق أهدافهم . وإن كنا لا نستطيع أن نتلمس قصد الفاطميين الأول من فتح مصر ، وهل هو بقصد البقاء فيها ، أو بقصد إتخاذها قنطرة لتحقيق مشروعاتهم ضد العباسيين . ولا نزاع فى أن الفاطميين لم يرحلوا إلى المغرب ؛ إلا ليعودوا فى قوة إلى المشرق .

فارسل المهدى حملات قوية إلى مصر ، بقيادة ولىّ عهده أبى القاسم دفعتين : الأولى فى ٣٠١ / ٩١٣ ، ملكت الإسكندرية والفيوم وبعض الصعيد ، والثانية فى ٣٠٦/٩١٨ — ٩١٩ ، ملكت الإسكندرية والفيوم ، وكان معها الاسطول ، كما أرسل من قبل قائداً يقال له حباسة فى ٣٠٢/٩١٤(٧٥) . ولكن قواد العباسيين صدوهم ، إذ كانوا من الترك الأقوياء ، ومنهم مؤنس الخادم الذى عرف بالفحل(٧٦) ، ومحمد بن طغج الملقب بالأخشيد أو الملك ، الذى كوّن له فى مصر إمارة استيلاء قوية ، وقدرت عدة عساكره بأربعمائة ألف(٧٧) . ولما أرسلت حملة رابعة على مصر فى أول عهد أبى القاسم

— الذى تلقب بالقائم بعد موت المهدى — صدها الإخشيد وهزمها[٧٨] . وبعد ذلك تمردت القبائل البربرية ، بتحريض الأمويين فى الأندلس ، فشغلت ثوراتهم معظم أيام القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ / ٩٣٤ — ٩٤٦) ، وابنه المنصور من بعده (٣٣٤ — ٣٤١ / ٩٤٦ — ٩٥٣) ؛ وكاد ملك الفاطميين ينهار بالمغرب ، ولم يتبق لهم فيه إلا مدينة المَهْدِيَّة ، التى كان المهدى قد أنشأها فى أول خلافته سنة ٣٠٣ / ٩١٥[٧٩] . لكل هذا تأخرت محاولة فتح مصر إلى عهد المعز لدين الله الخليفة الرابع ، الذى تولى الخلافة منذ ٣٤١ / ٩٥٣ ، حينما أرسل قائده جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومى[٨٠] — إذ أصله من صِقلية — فى جيش بلغ أكثر من مائة ألف فارس ، فى ربيع الأول ٣٥٨ / ٩٦٩[٨١] ؛ وهذا العدد لم تر مصر له مثيلاً منذ عهد الإسكندر الأكبر . وقد قال الشاعر المعروف محمد بن هانىء فى رحيل جوهر ، قصيدته المشهورة ، ومطلعها :

رأيت بعينى فوق ما كنتُ أسمع ، وقد راعنى يوم من الحشر أروع .

ولم يكن المصريون سعداء فى ظل الحكم العباسى ، وكانوا يرغبون فى مجىء الفاطميين ، بحيث أن كثيراً من المؤرخين يذكرون أن مجيئهم كان بناء على دعوة المصريين . فيذكر المؤرخ المقريزى أن من أسباب مجىء الفاطميين الضنك الذى ساد فى مصر ، مما جعل كثيراً من المصريين يكتبون للمعز . فقد وقعت مجاعات ، وتعذر وجود الأقوات ، وكان جند العباسيين الترك يتحاربون فيما بينهم ؛ فقتل خلق كثيرون ، وانتهبت الأسواق والبيوت وإحرقت ، وضاعت أموال الناس[٨٢] . كما أن شيعة المعز بمصر وجدوا الفرصة سانحة ، فطلبوا منه إنفاذ العسكر ، وقالوا له : إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها[٨٣] ؛

ويقصدون بالحجز الأسود كافور الخصى الأسود ، الذى توصل إلى السيطرة فى مصر بعد الإخشيد .

ولما وصل جيش المعز إلى نواحى الإسكندرية ، أرسل المصريون إلى جوهر وفداً منهم ، باتفاق جميع طبقاتهم ؛ كالقائد والكاتب والقاضى والتاجر والمسلم والقبطى . فكتب لهم جوهر كتاباً طويلاً ، التزم فيه بأن يحترم ملتهم إذ الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وأن يعتنى بأحوال بلادهم الاقتصادية بتجويد العملة ، وأن يجاهد الروم الذين غزوا فى الشام وبلاد الجزيرة(٨٤). وقد سهّل المصريون لجوهر التغلب على بقايا الإخشيدية والكافورية — ومعظمهم من الترك — فى ناحية الجيزة ؛ فجعلهم يحرسون له شاطىء النيل من ناحيته(٨٥) : بحيث اضطرت الإخشيدية والكافورية إلى الهروب إلى الشام ولما طالب المصريون جوهراً بتجديد الأمان جدده لهم(٨٦) ؛ كما كتبت لأهل الريف والصعيد أماناً ثالثاً(٨٧) . وحينما دخل الفسطاط عاصمة البلاد بطبوله وبنوده ، نشر كل من كان عنده بند من المصريين بنداً ، عليه اسم المعز لدين الله . وبذلك أخذ جوهر مصر بلا ممانعة كما لاحظ السيوطى(٨٨) ، وانتهى الحكم العباسى فى مصر ، بعد أن استمر حوالى ٢٢٥ سنة(٨٩) . وقال ابن هانىء الشاعر فى هذه المناسبة :

يقول بنو العباس هل فتحت مصرُ ؛ فقل لبنى العباس قد قضى الأمر .

بات المصريون فى أمان ، فلما أصبحوا وحضروا للتهنئة فى المكان ، الذى نزل فيه جوهر وجنوده ، وجدوا أنه وضع أساس عاصمة جديدة(٩٠) ، بما فيها الجامع والقصر ، وأنه حفر الخندق وأدار السور حولها ؛ كما اختطت كل قبيلة من القبائل المغربية التى جاءت معه حارة أو مكاناً لها ، عرف باسمها .

هذه المدينة التى أنشئت خلف الفسطاط ، بجوار جبل المقطم ، سماها جوهر أول الأمر المنصورية ربما تقرباً إلى سيده وخليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور ، وبعد ذلك سُميت بالقاهرة أو القاهرة المعزّية ، تفاؤلاً بأنها ستقهر العباسيين[٩١] ، لا سيما وأن المؤرخين نسبوا تسمية القاهرة إلى ظواهر فلكية ، فكثير من المدن الإسلامية نشأت على أثر تعويذات فلكية . فكانت القاهرة رابع عواصم مصر منذ الفتح العربى ، وهى : الفسطاط والعسكر والقطائع ، وكلها توجد تقريباً فى مكان عاصمة مصر القديمة منف عند رأس الدلتا ، حيث شبهت بيد المروحة (**Bouton de l'éventail**) ، لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواته[٩٢] . وقد كان بناء عاصمة جديدة ، دائماً يعنى قيام دولة جديدة : فكان بناء القاهرة فى مصر يعنى قيام خلافة الفاطميين فى مصر .

*

ولقد أصبحت القاهرة بحق قلعة تقهر أعداءهم ، فقد تمكنت من صد اعتداء قبائل عربية كثيرة خرجت من البحرين ، بتحريض العباسيين ، الذين هالهم انتصار الفاطميين فى مصر ، وزحفهم إلى الشام . وكان عرب البحرين أول أمرهم قد اعتنقوا مذهب الإسماعيلية على يد دعاته ، على الأخص حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط حوالى ٢٧٦ / ٨٨٩[٩٣] ، بحيث عرفوا بالقرامطة نسبة إليه . ولما خلفه فى الدعوة أبو سعيد الحسن ابن بهرام الجَنابى[٩٤] ، تمكن من إنشاء دولة لأتباعه ، وبنى مدينة عرفت بالأحساء فى ٢٨٦ / ٨٩٩[٩٥] ، وغزا هَجَر بالقرب منها بين البصرة وعُمان[٩٦] ، وهدد العباسيين ، وغزا الشام ربما لتسهيل خروج المهدى إلى المغرب[٩٧] . وفى خلال المدة التى وليها بعده ابنه أبو طاهر سليمان[٩٨] ،

من ٣٠١ — ٣٣٢ / ٩١٤ — ٩٤٣ ؛ عمل أشياء تؤيد إخلاصه هو الآخر للفاطميين بعد تكوين خلافتهم بالمغرب ؛ فسار نحو الكوفة ، وتوغل فى العراق وهدد بغداد ، ووصل الشام حتى حدود مصر ، كما غزا فى الجزيرة العربية ، وذلك فى الوقت الذى كان الفاطميون يغزون مصر .

ولكن بعد موت أبى طاهر ، وسير عساكر المعز إلى مصر ، نجد أن الدعوة فى البحرين ، لا تسير بنفس التضامن السابق مع الدعوة الفاطمية ، وتظهر عوامل تدل على استقلالها عنها . فقد خرج من نسل أبى سعيد — مؤسس دولتهم — حفيده الحسن بن أحمد المعروف بالأعصم أو الأعظم[٩٩] ، فى جمع كبير من أعراب البحرين ، ومعهم بنو هلال وبنو سليم[١٠٠] ، وهما قبائل رحالة على أطراف العراق والشام ؛ يدفعهم فى الغالب الفقر للاستيلاء على مصر الغنية ، والرغبة فى الحصول عليها من المغاربة ، وقد حملوا رايات الخليفة العباسى المطيع لله ، التى نقشوا عليها عبارة : السادة الراجعون إلى الحق ؛ أى أنهم لم يعودا متضامنين مع الدعوة الفاطمية . فنجح الأعصم فى طرد جيش الفاطميين من الشام ، وقتل قائده جعفر الكتامى بدمشق فى ٣٦٠/٩٧١[١٠١] ، وأمر الأعصم بلعن المعز، وأظهر التشكيك فى نسب الفاطميين إلى بيت علىّ وفاطمة ، ثم تقدم إلى مصر ، ووصل امام القاهرة فى أوائل سنة ٣٦١ / ٩٧٢ . ولكن أنقذ الفاطميين ، خندق القاهرة الذى كان حفره جوهر حولها ، وبمساعدة أبناء مصر بالذات ؛ فيقول المقريزى إن جوهراً وزع السلاح على المصريين[١٠٢] ، مما يدل على تمسك المصريين بخلفاء الفاطميين ، بحيث اضطر القرمطى إلى الانسحاب .

فاسرع المعز بإرسال المدد ، ولم يلبث أن جاء بنفسه ، حاملاً أمامه توابيت آبائه الذين ماتوا بالمغرب ، دلالة على عزمه النهائى على نقل الخلافة

إلى مصر . وقد تمكن المعز عن طريق الدبلوماسية من القضاء على محاولة ثانية للحسن الأعصم فى غزو مصر ؛ فقد أرسل إليه كتاباً يبين له فيه أن أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بالطاعة للأئمة ، ودعاه إلى طاعته[١٠٣] . ولكن القرمطى كان مصمماً على القتال فجاء إلى مصر ؛ فاستمال المعز عرب الشام إليه ، بأن أرسل إلى حسان بن الجراح زعيم الطائيين مائة ألف دينار مصنوعة من النحاس ، جعلها فى أسفل أكياس ، بعد أن وضع فى رءوسها الدنانير الذهب الخالصة[١٠٤] . فلما نشب القتال ، انسحب حسان على حسب الاتفاق ؛ فقوى المعز على القرمطى ، الذى اضطر إلى الانسحاب إلى الشام . ومنذ ذلك الوقت وتوقف خطر القرامطة على مصر ، لاسيما بعد موت الأعصم فى حروبه بالشام ، مع العزيز بالله خلف المعز فى سنة ٩٧٦/٣٦٦[١٠٥] . وبذلك خلصت مصر للفاطميين ، واستقرت خلافتهم ثابتة الأركان بالقاهرة قاعدة ملكهم ، وأخذوا يتتابعون فيها إماماً بعد إمام ؛ إلى أن تولاها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله .

الفصل الثانى

تولية الحاكم بأمر الله

تعتبر سيرة الخليفة صاحب الترجمة من أغمض السِّيَر[١] ، فلا نعرف إلا النزر اليسير عن نشأته الأولى : فهـو المنصور ، أول إمام فاطمى ولد فى أرض النيل ، بالقاهرة المعزيّة ، ليلة الخميس فى الساعة التاسعة من الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣/٣٧٥ أغسطس ٩٨٥[٢]. أما تـكنيته بأبى علىّ ، فعرف بها لما أنجب ولداً اسمه علىّ ، وهو الخليفة الظاهر بعده ، فاشتهر بها .

ومع اتفاق المؤرخين على أن أباه نزار العزيز بالله ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ، وجده المعز لدين الله مؤسس خلافتهم فيها ؛ إلا أنهم اختلفوا اختلافاً شديداً عن أصل أمه وديانتها ، لاسيما وأن الخلفاء فى الإسلام كانوا يأتون إلى قصورهم بنساءٍ من مختلف الجنسيات والأديان . فيسميها المقريزى : السيدة العزيزية[٣] ، دون أن يشير إلى أصلها وديانتها . وعلى النقيض من ذلك ، يصرح الأنبا ميخائيل بأن : أم المنصور لم تـكن زوجة للعزيز ، وإنما سرية رومية أى يونانية[٤] . ولـكن جرجس بن العميد يقول : إن العزيز تزوج من إمرأة نصرانية ، ورزق منها بنتاً[٥] ؛ ولم يقل إنها أم المنصور . وبرغم هذا التناقض ، واقتضاب المعلومات ؛ لنا أن نؤكد أن النصرانية ليست أم المنصور ، وإنما أم أخته من أبيه سيدة (أو ست) الملك ، التى ولدت

بالمغرب فى سنة ٣٥٩/٩٧٠(٦) . وكانت تكبره بست عشرة سنة ، لاسيما وأن مراجع نصرانية أخرى قالت: إن أرسانيوس البطريرك القديس ، هو خال سيدة الملك(٧) . ولا نزاع فى أن نسبته إلى أم نصرانية ، ضمن حملة أعدائه عليه ، ومعظمها كما نرى أتت من مصادر نصرانية(٨) .

ولسنا نعرف شيئاً هاماً عن صباه ، إلا أن أباه أحسن تعليمه وتهذيبه(٩) ، ليعده للمنصب الخطير بعده . ولسوء حظنا لا نعرف أيضاً كيف نص أبوه عليه فى ولاية عهده ، وإن ذكر ابن الأثير أن توليته كانت بعهد من أبيه(١٠) ، دون أن يبين إن كان النص عليه بوصية أو شفوياً أو تلميحاً ، كما هى القاعدة فى تعيين الأئمة لخلفائهم(١١) . ونرجح أن عهده كان بوصية مكتوبة ، اعتماداً على رواية المقريزى فى وجود وصية من العزيز بالله لولده المنصور ، ويضيف المقريزى وغيره أن المنصور ورث عن العزيز أسراراً ومعارف(١٢) . ويقرر الداعية إدريس ، أن العزيز نصب ابنه المنصور فى ولاية عهده ، وهو فى سن ثمانى سنوات ، فى شهر شعبان من سنة ٣٨٣/سبتمبر — اكتوبر ٩٩٣(١٣) . فيبدو أن العزيز كان له ابن آخر اسمه محمد ، منحه ولاية عهده قبله ، ولكنه توفى إبان حياته (١٤) ، فاستحق المنصور النص عليه .

*

ولما توفى العزيز بالله يوم الثلاثاء ٢٧ من رمضان سنة ٣٨٦/١٣ أكتوبر ٩٩٦ ، أفضت الخلافة إلى المنصور وهو يومئذ صبى عمره أحد عشر عاماً وبضعة شهور(١٥) . وكان المنصور فى صحبة أبيه فى بلبيس ، حيث كان العزيز يستعد للخروج لجهاد اليونان (الروم) ، لما هددوا بغزو الشام . وقد استدعاه العزيز قبل موته وضمه إليه وودعه ، ولا تشير الرواية إلى بكاء المنصور ، وإنما أخذ الأمر بصرامة ، ورجع بجثة أبيه بعد أن وضعها فى قبة

على ناقة بين يديه ، وقد لبس زىّ الخلفاء وأمسك برمح فى يده ، وتقلد سيفاً، وعلى رأسه المظلة شعار أئمة الفاطميين ، يحيط به جميع العساكر ورجال الدولة ، إلى أن وصل إلى القاهرة التى خرج أهلها للقائه ، فجهز أباه ودفنه .

وقد جرت مراسيم بيعته بالخلافة على حسب الرسوم المعروفة فى يوم الخميس ٣٠ سلخ رمضان (أى آخره)/ ١٥ أغسطس — وهو نفس اليوم الذى ولد فيه — فقد خرج من داره راكباً إلى مكان عرف بالإيوان الكبير، وهو قاعة كبيرة ذات أعمدة سامقة ، بناها أبوه العزيز بالقصر الكبير(١٦)، لتقام فيها رسوم القصر ، فنصب له فيها عرش الخلافة « سرير الملك » ، عبارة عن تخت مرتفع من ذهب، عليه مرتبة مذهبة ، وكان جوهر أقامه للمعز(١٧). وقد لبس المنصور لهذه المناسبة البياض — لون خلفاء الفاطميين المفضل ؛ ليعارضوا به لون السواد العباسى — ووضع على رأسه عمامة مشدودة بترتيب خاص ، يطلق عليها التاج الشريف ، مرصعة بجوهرة فى مقدمتها تعرف باليتيمة ، حولها جواهر أخرى دونها من ياقوت أحمر ، تحيط بها فى شكل حافر(١٨) . فلما دخل الإيوان، قبل له الحاضرون من رجال الدولة وأفراد أسرته الأرض ، ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير ، فوقف من له رسم الوقوف ، وجلس من له عادة أن يجلس . فبايعه الجميع بذكر عبارات الاعتراف بأمامته ، ولا سيما بتقبيل الأرض ، دلالة على الخضوع والإعظام ، ولا يعنى العبادة ، كما هو فى رأى علماء الشيعة(١٩) .

وبمقتضى هذه البيعة أصبح المنصور إماماً(٢٠) ، إقتداء بامامة علىّ ابن أبى طالب ، الذى كان أول من اتخذ هذا اللقب . وقد تمسك الأئمة الفاطميون بلقب الإمام ؛ لما فيه من معنى دينى فى إمامة المسلمين كإمامة

الصلاة ، وفضلوه على لقب خلافة ، الذى كان يعنى النيابة وحدها ، والاستخلاف فى الزمن .

وكذلك تلقب بأمير المؤمنين ، وهو اللقب الذى أضافه عبيد الله المهدى عند تأسيسه الخلافة الفاطمية بالمغرب ، فكان من أحب الألقاب إلى المنصور(٢١) . وقد كان لهذا اللقب مقام كبير عند الفاطميين ، لأنه يبين صفتهم الروحية ، ويشرح كنه عقائدهم ، فكلمة مؤمن فى رأيهم مشتقة من الإيمان ، الذى هو إقرار بالله وبالنبى وبإمامتهم للمسلمين(٢٢) .

وقد أختير له أيضاً اللقب ، مثلما فعل الأئمة قبله منذ عبيد الله المهدى ، فتلقب : بالحاكم بأمر الله(٢٣) . وقد قيل إن المعز لدين الله ، لما قدم إلى مصر ، طلب من بعض علمائها كتابة مجموعة من الألقاب ، تصلح لتسمية الخلفاء منهم ، حتى إذا تولى واحد منهم تلقب بها ، فكتبت له ألقاب كثيرة(٢٤) . وقد صار لقب الحاكم بأمر الله من دون بقية ألقابه السابقة علماً عليه ، وطغى على المنصور اسمه .

وقد جرت العادة آنئذ أن تصدر سجلات الى حكام الولايات بالخلافة الفاطمية تعلن فيها أخبار بيعة الخليفة الجديد ، وأن يدعى له على المنابر فى خطبة صلاة الجمعة ، وأن ينقش اسمه على قطع النقود « السكة » ، ويطرّز على رايات الجيش وبنوده ، وعلى الملابس الرسمية « الطراز » .

*

ولما كان الحاكم صغير السن جداً ، نجد أن رجالا طامحين سعوا الى السيطرة عليه ، عن طريق السيطرة على الجيش ، لاسيما وأن الخلافة الفاطمية فى مصر ، كانت مثل غيرها من دول الإسلام ، لا تعتمد على عنصر

واحد فى الجيش ، وإنما على عناصر متعددة . فقد كان المبدأ السائد وقتئذ فى دول الإسلام ، أن يعتمد الأمير على عناصر متعددة من أجناس مختلفة ، حتى يوجد التنافس بينها فى خدمته[٢٥] .

فنعلم أن الخلافة الفاطمية ، كانت تستمد قوتها الحربية أول ظهورها فى المغرب من العنصر البربرى ، وهو ما عرف بالمغاربة نسبة الى إقليمهم الذى أتوا منه ، وهو بلاد المغرب ، فعرفت منهم طوائف متعددة أشهرها : زويلة وكتامة والبرقية والمصامدة وصنهاجه[٢٦] . فكانوا يسكنون فى معسكرات أو حارات أشبه بالمدن ؛ فمثلاً المصامدة وحدهم ، كانت لهم حارة تضم أكثر من عشرين ألفا[٢٧] . وقد كان المعز يقرّب طائفة كتامة على حساب الطوائف الأخرى ؛ وذلك لأنها أصل خلافتهم بالمغرب ، ويبدو أنها أتت معه إلى مصر بكل عناصرها وبهم أخذ مصر ؛ فكان شيوخها يحتلون وظائف الخلافة الكبرى[٢٨] .

ولكن بعد استقرار ملك الفاطميين فى مصر ، أخذوا يبحثون عن عناصر أخرى يستخدمونها فى جيوشهم ، حتى لايستبد بهم البربر ، خصوصاً وأنهم قدروا أن المغرب قد يحاول الإنفصال ؛ مما يجعل طاعة البربر وإخلاصهم غير موثوق فيه . ففى يوم مجىء المعز إلى مصر ، شرع فى تكوين جيش خاص ، أفرد له ثكنات فى قصره عرفت بالحُجر ؛ يُعلّم فيها أفراده الفنون الحربية ، وسماهم بسبب سكناهم فى هذه الحجر باسم : صبيان الحجر أو غلمان الحجر ، أو حتى الغلمان المصطنعين فى القصر[٢٩] . ومن المحتمل — كما يقول المقريزى — إن هذه الطائفة الخاصة ، كان معظمها من أولاد المصريين ،

إذ يقول : « أولاد الناس » ، أو من عناصر المماليك الذين كان يؤتى بهم صغاراً ، وقد بلغ عددهم زهاء خمسة آلاف نسمة .

وبعد ذلك ظهر عند الفاطميين ميل إلى استخدام عناصر موجودة فى الشرق من الديلم والأتراك ، كانوا يستخدمون كجند مرتزقة فى جيوش المسلمين ، وعرفوا بسبب أنهم من الشرق بالمشارقة(٣٠) . وقد أعتبر العزيز أول من أدخل المشارقة من الديلم والترك فى الجيش الفاطمى(٣١) ؛ حتى أن عددهم كثر فى عهده ، وعرفت لهم بعض الحارات : كحارة الديلم وحارة الأتراك(٣٢) . وقد كان العزيز على خلاف المعز يقرّب المشارقة على حساب عناصر الجيش الأخرى ؛ مما أوجد بينهم وبين طوائف المغاربة تحاسد(٣٣) .

ويبدو أن الفاطميين استخدموا أيضاً السود من السودانيين والعبيد ، وهم الذين عرفوا بعبيد الشراء أو الشرى ، لأنهم عبيد مشترون(٣٤) ؛ فكانت لهم حارات عديدة معروفة ، مثل : الحسينية والفرحية والميمونية . ولكن عددهم ازداد على الخصوص فى عهد خلفاء العزيز ، بحيث كونوا الجزء الرئيسى من جيش الفاطميين إلى وقت سقوط خلافتهم ، وكان الخليفة يسمى بهم : صاحب السودان(٣٥) .

فلما تولى الحاكم — الصغير السن — الخلافة ، طمعت طوائف المغاربة فى استعادة نفوذها ، الذى كان قد ضعف على يد العزيز باستخدامه طوائف المشارقة وغيرهم ؛ فدخل على الحاكم مقدمو كتامة وهددوه بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، بل بالقتل ، إذا لم يبعد المشارقة ، ويعين شيخ كتامة أبا محمد ابن عمّار شئون الحكم(٣٦) . فظهر لابن عمّار ماعرف برتبة الوساطة ، وهى أشبه بالوزارة ، أى أن يكون ابن عمّار الوسيط بين الخليفة والرعية(٣٧) . فاتخذ

ابن عمّار لقب أمين الدولة، فكان أول من تلقب من رجال الفاطميين بمصر، كما أن ظهور كلمة دولة فى لقبه — لأول مرة — ربما كان يعنى أن ابن عمّار سيطر على السلطة الزمنية، دون السلطة الدينية، التى بقيت للحاكم بحكم أنه الإمام(٣٨). فكان ابن عمّار مثل الخليفة ينقش اسمه ولقبه على الملابس الرسمية «طراز» التى توزع على رجال الدولة، وإن موّه بإضافة عبارة: عبد أمير المؤمنين(٣٩).
كذلك قام ابن عمّار بتفرقة الأموال الكثيرة على طوائف المغاربة، وقرّب كتامة وولى شيوخها الوظائف الرئيسية فى الدواوين والولايات، كما كانت فى أول عهد الفاطميين. وفى نفس الوقت عزل المصريين من الدواوين وقتل بعضهم، وتوقف عن صرف العطاء للمشارقة وأساء معاملتهم، فهرب كثير منهم إلى الشام. وقد ترتب على هذه الحالة أن تعاظمت طائفة المغاربة على طوائف الجيش الأخرى، وعاثوا فساداً فى البلاد، فكانوا يتطاولون على أموال الناس وحريمهم؛ وابن عمّار يُغضى عن عدوانهم، مع أن المعز كان قد نقل المغاربة إلى أطراف القاهرة فى نواحى عين شمس، وجوهر قبله منعهم من المبيت بمصر، وكان من يسيء منهم للأهالى يعاقب بالجلد أو الحبس(٤٠). كذلك ابن عمّار نفسه طغى وتجبر، حتى أنه كان يدخل قصر الحاكم راكباً، ويتعرض لجوارى القصر بالبيع والأخذ وكأنها ملك يديه؛ كما أمر الناس ورجال الدولة بالترجل له، وشرّف أكابر الناس بتقبيل ركابه، وأجلّ الناس من يقبل ركبته. وقد أشير على ابن عمّار بقتل الحاكم؛ إلا أنه لم يفعل احتقاراً للحاكم واستصغاراً(٤١).

ولكن رجلاً آخر قوياً، نافس ابن عمّار، اسمه أبو الفتوح بَرْجَوان أو أرْجَوان(٤٢)، وهو خصى أبيض من الصقالبة، وهم جنس كان يُجلب من وسط أوربا كأرقاء، ويعملون كخدم فى القصور الإسلامية(٤٣)؛ فكان

برجوان يعمل فى القصر الفاطمى منذ أيام العزيز ، ووصل فيه إلى مرتبة أستاذ ، أى كبير للخدم[٤٤] . وقبل ذلك ، ظهر طموح برجوان ، فكان أول من سلم على الحاكم بالخلافة بعد وفاة العزيز ، ويذكر المؤرخون أن هذا الأخير جعله مدبر دولة ابنه، ولكن ابن عمار استبد بشئون الدولة دونه[٤٥] . ومع أن برجوان لم يكن شيخ طائفة من طوائف الجيش كابن عمار ، إلا أنه اشتهر بالدهاء والسياسة[٤٦] ، فاستفاد من عداوة المشارقة للمغاربة ، لا سيما وأن المشارقة قدروا فى برجوان الطموح ،فلجأوا إليه لينصرهم على المغاربة[٤٧] . فحرض برجوان من هرب من المشارقة بالشام على المجىء إلى مصر لمحاربة المغاربة[٤٨] ؛ ولكن ابن عمار سير نحوهم جيشاً هزمهم قبل أن يدخلوا مصر . فعاد برجوان وأثار هممم المشارقة من جديد ، لكى يعيدوا الكرة على المغاربة،كما استمال عبيد الشرى[٤٩] ، وسار على رأسهم وهزم ابن عمار ، الذى اضطر إلى الهروب والإختفاء ،ولم يمض على وساطته عام ، وذلك فى رمضان ٣٨٧/أكتوبر ٩٩٧ .

فلما تم لبرجوان النصر ، أخرج الحاكم وأخذ له البيعة من جديد من وجوه كتامة وقوادها والمشارقة وغيرهم ، وتقلد الوساطة مكان ابن عمار .ثم أخذ برجوان فى توطيد نفوذه، بأن كون لنفسه طائفة خاصة من الجند أو المماليك ، كانت حارتها تعرف باسمه[٥٠] ، وزاد فى عطاء رجال الجيش من أنصاره ، لا سيما الغلمان فى القصر[٥١] . وفى نفس الوقت ، تقرب من المصريين بأن أعاد الكتاب القبط إلى الدواوين مكان المغاربة[٥٢] .ولما استقر له الحكم، تلطف بابن عمار ، ومنحه إقطاعاته التى كانت له أيام العزيز ، واشترط عليه الطاعة ، وبذلك استمال إليه المغاربة أيضاً .

ولكنه مالبث أن نزع إلى الطغيان مثل ابن عمار ، فلم يعد يقيم اعتباراً لأى شيء . فكان يعتبر نفسه الخليفة الحقيقى ، فيخرج من دون الحاكم

فى المواكب الرسمية ، على رأس طوائف الجيش ، ورجال الدولة،والاستاذين من القصر . وما لبث أن استصغر هو الآخر خليفته ، بحيث أن الحاكم لما استدعاه ذات يوم وهو راكب معه،فسار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه،وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم ، ونحو ذلك من سوء الأدب(٥٣) . يضاف إلى ذلك أنه استغل منصبه فى جمع المال لنفسه ، بحيث قدرت ثروته بأكثر من مائتى مليون دينار ذهب ، وخمسين أردباً من الدراهم الفضة ، واثنى عشر صندوقاً من الجواهر ، هذا عدا الأملاك والضياع والخدم والبقر والأنعام والجاموس ، والحواصل وهى اسطبلات الخيل ، وأهراء الغلال ، وشون الأتبان ، ومخازن البضائع ، ومناخات الجمال ، وغير ذلك الثياب ، التى كانت تعد قطعها بالآلاف من المناديل والقمصان والسراويل والتكات، وآلاف قطع القماش من كل صنف (٥٤) . وأدهى من ذلك وأنكى ، أنه تشاغل عن أعمال الدولة بملذاته ، ومال إلى اللهو ، ولم يعد يهتم بغير الغناء والقصف ، وأصبح له مغنون من الرجال والنساء ، يقضى معهم معظم ليله ، وجزءاً من نهاره ، فتعطلت أعمال الدولة ، وفسدت السياسة ، مما هدد بانهيار الدولة داخلياً وخارجياً .

والظاهر أن برجوان فى غفلة طغيانه ، نسى أن الصبى كان قد طوى مرحلة الصبا ، وبدأ يدخل مرحلة الشباب ، فقد أشرف على الخامسة عشرة ، وأن من كان فى مثل هذه السن لا يحتمل الإهانة ، لا سيما إذا كان الخليفة . ونسى أيضاً أنه فى هذه السن المراهقة ، تميل النفس إلى الفضائل ، فتكره تبذله ، وإفساده لأداة الحكم . وليس من شك فى أن فتوة الحاكم جعلته يثور على حجر برجوان عليه ، ولسلطانه المسلوب . وقد كان الحاكم فطناً فلم يصرح بما يجول بخاطره ، لما كان لبرجوان من التغلب على الدولة ، وإنما

أنفذ إليه من ينبهه بقوله : إن الوزغة — وهو اسم الحية الصغيرة ، وكان برجوان قد سماه به في صغره — صارت تنيناً كبيراً[٥٥] . ولكن برجوان استمر متجاهلا الفتى ، ومغزى رسالته إليه ، غارقا فى ملذاته ومجونه .

ومع وضوح أسباب غضب الحاكم على برجوان ؛ نجد المؤرخين المتعصبين ، لا سيما من أهل العراق ، يطمسون الحقائق ، وليس عندهم ثمة كلمة صدق تتفق مع منطوقها . فيقول الروذراورى[٥٦] (٣٦٩-٣٨٩/٩٧٩-٩٩٩)، بصدد غضب الحاكم على برجوان : إن الحاكم كان يحتاج إلى تهذيب ، فمنعه برجوان من نزواته ، وأكثر من مراقبته ، فضايق ذلك الحاكم ؛ بحيث اصبح النصح ذنوباً ، والنصح للملوك خطر على الناصح . ويضيف إلى ذلك أن زيدان أو ريدان ، وهو صقلبي من كبار رجال القصر مثل برجوان ،كان صاحب المظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه فى المواكب الرسمية ، أراد أن يأخذ محل برجوان ، فحرض الحاكم عليه بقوله : إن برجوان يريد أن يجعل نفسه فى موضع كافور من أبناء الإخشيد ، ويحجر عليك . وعلى النقيض ، فإن برجوان فى رأى الروذراورى شخصية جديرة بالاحترام ، ذات دهاء وسياسة .

ومهما يكن ؛ فقد أخذ الحاكم يفكر فى كيفية التخلص من برجوان ويعمل الفكر عاماً كاملا[٥٧] ، وأخيراً وضع خطة محكمة قرر فيها الغدر به . وفى سبيل ذلك ، اعتمد على زيدان صاحب المظلة هذا — وكان مخلصاً للحاكم — ومعه أخوه ، وبعض خدم القصر من الصقالبة . فدعى برجوان إلى مقابلة الحاكم فى البستان الكافورى[٥٨] ، المطل على الخليج — الآخذ من النيل — الذى كان متنزهاً للخلفاء الفاطميين ، ويتوصلون إليه من قصورهم عن طريق سراديب مبنية تحت الأرض ، يسيرون فيها

بالدواب ، بحيث لا تراهم الأعين . وقد كان الحاكم يعمّر فى هذا البستان مبانى بجوار قصر اللؤلؤ[٥٩] ، الذى أقامه العزيز ؛ ولما سيطر برجوان على الدولة ، نزل فيه ، وتعود برجوان أن يأتى مع الحاكم ؛ ليشاهد ما تم من المبانى والزروع . فلما طاف برجوان فى البستان ، تقدم إليه زيدان يقبّل رجله وركبته ، ويعتذر إليه بانشغاله عن خدمته بالحاكم ، وهو يتحسس ثياب برجوان خوفاً من أن يكون لابساً درعاً « الحديد » . فلما تأكد زيدان أن برجوان لا يلبس شيئاً ، طرحه أرضاً وضربه بحديدة على قلبه ضربة عظيمة ، وأقبل الحاكم وطعنه برمحه ونزعه عنه ، وعلاه بقية خدم القصر بالسيوف إلى أن قُتل . فخرجت والدة الحاكم وأخته ، خوفاً عليه من برجوان أو غيره من المستبدين بهم ، فطمأنهما الحاكم بنجاح خطته وأمرهما بالرجوع ، ثم دخل قصره ، وذلك فى يوم الخميس ٢٦ من ربيع الآخر من سنة ٣٩٠/٥ أبريل سنة ١٠٠٠[٦٠] .

ويبدو أن إسقاط رجل قوى مثل برجوان أثار الدهشة الممتزجة بالخوف ، بحيث أن طوائف العسكر من المغاربة والمشارقة — وكان برجوان قد قرّب كثيراً منهم للاحتفاظ بسيطرته — خرجوا وتجمعوا أمام القصر . فخرج إليهم الحاكم ، وهو على ظهر فرس أشقر ، وتحدث إليهم بصوت قوى شارحاً الأسباب التى دعته إلى قتل برجوان ، فكان مما قاله[٦١] : « إن برجوان عبدى ، استخدمته فنصح ، فأحسنتُ إليه ، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته » . وتوجه الحاكم إلى المغاربة قائلاً : « أنتم شيوخ دولتى ، وأنتم الآن عندى أفضل مما كنتم فيه مما تقدم » . ثم التفت إلى المشارقة وقال لهم : « أنتم تربية العزيز بالله ومقام الأولاد ، وما لكل أحد منكم عندى

إلا ما يؤثره ويحبه ، فكونوا على رسومكم ، وامضوا إلى منازلكم ».. فيقول المقريزى : « فدعوا جميعاً ، وقبلوا الأرض وانصرفوا » .

وفى اليوم التالى أصدر الحاكم سجلاً إلى المصلين فى جوامع ومساجد القاهرة ومصر ، يبرر فيه قتله برجوان ، ونسخ منه نسخاً أُنفذت إلى سائر النواحى والأعمال ، وذلك بتاريخ يوم الجمعة ٢٧ من ربيع الآخر من عام ٣٩٠/ ٦ أبريل ١٠٠٠ ، لا سيما وأن بَرجوان كان محبوباً من المصريين ، جاء فيه : « معاشر المسلمين ، إن بَرجوان كان فيما مضى عبداً ناصحاً ، أرضى أمير المؤمنين حيناً ، فاستخدمه كما يشاء فيما شاء ، وفعل به ما شاء . . . ولقد كان أمير المؤمنين مَلّكه ، فلما أساء ألبسه النقم .. ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ٩٦ : ٦ — ٧ ﴾ . ثم نصح معاشر التجار والرعية بالعودة إلى أشغالهم ، دون الاهتمام لما حدث ، وطمأنهم إلى أنه يقوم بأعباء مهمته ، وأنه مباشر ذلك بنفسه ، وأن بابه مفتوح بينهم وبينه » .

وكان لا مناص للحاكم بعد ذلك أن يخطو خطوة أخرى ؛ ليخلص له حكم مصر ، فقتل أعوان برجوان من رجال الجيش والقصر . ثم أعد الحاكم كميناً لقتل ابن عمّار زعيم كتامة ، وذلك بأن حرض عليه الأتراك — أعداء المغاربة — فقتلوه فى يوم السبت ٥ من شوال من عام ٣٩٠/٨ سبتمبر ١٠٠٠ [٦٢] ، كما أفنى أعوان ابن عمّار من شيوخ كتامة [٦٣] . نخاف الكتاميون ، وأتوا إلى قصر الحاكم ، كاشفين رءوسهم ، مستغيثين به ، طالبين العفو والأمان ، لا سيما وأنهم كانوا أول من استبدوا به ، فقبل الحاكم توبتهم ، وكتب لهم سجلاً بما التمسوه ، وهذا نصه [٦٤] :

«بسم الله الرحمن الرحيم».

من عبد الله ووليّه : أبي عليّ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين ، إلى كافة الكتاميين .

سلام عليكم : فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد نبيه ورسوله ، وعلى أخيه ووصيه (عليّ)، وعلى الأئمة الطاهرين من نسله ، صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه .

أما بعد : فإن أمير المؤمنين لما جبله الله عليه ، وفطره من الرأفة والرحمة بأولياء دولته ومن تحويه مملكته ، بالإحسان إلى محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، لمّا رأى جماعتكم مستسلمين ومتنصلين مما سلف ، وراغبة سائلة للعفو عنكم ، وترك مؤاخذتكم بما كان منكم ، والاستئناف بكم ما استأنفه آباؤه الأئمة المهديون صلوات الله عليهم ، من أوّليكم من آبائكم وأجدادكم ، وجرت به رسومكم فى النفقة عليكم ، وهبة مسيئكم لمحسنكم ، ومفسدكم لمصلحكم ، عطفته عليكم عواطف رحمة خالقه لكم بعفوه عن جماعتكم ; فأجاب سؤالكم فى إزالة ما استشعرتموه وحذرتموه ، وخفتم أن يكون أمير المؤمنين يؤاخذكم به ، وعفا الله ذو المغفرة ، عفواً لا تثريب بعده عليكم ، كما قال الله وهو أصدق القائلين ، حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمينَ ١٢ : ٩٢ ﴾ . ووسمكم من الرضا بجديد الاختصاص لكم ، بإعادتكم إلى رسومكم ، والتكرمة بما أزال به ميسم السخط عنكم ،

وأمّنكم على أنفسكم بأمان الله ، وأمان رسوله ، وأمان أمير المؤمنين ؛ فثقوا بذلك واسكنوا إليه ، ولتنشرح صدوركم وتطمئن قلوبكم ، وتراقبوا الله فى خلواتكم ، واخلصوا نياتكم ، وليأخذ شيوخكم شبانكم بكف الأذية ، ولزوم الطريقة المرضية ، وأعلموا أن ذلك لكم ما أخلصتم وحسنت طاعتكم ، وليسمع الشاهد الغائب ؛ إن شاء الله . وكتب فى سنة تسعين وثلثمائة » .

*

قصارى القول ، أن الحاكم نجح فى استرداد سلطانه المسلوب من أيدى الطامعين فيه ، ودل بتصرفه على أنه يفوق أعداءه دهاء وسياسة ، وهم الذين استصغروه واحتقروه(٦٥) ؛ فقبض بيد من حديد على مقاليد حكم الخلافة ، وخضعت له طوائف الجيش جميعها ، بما فيها المغاربة والمشارقة . ويقول الداعية حمزة عن قتل الحاكم لبرجوان وابن عمّار ، إنه دل بذلك على شجاعة فائقة ، لم يسمع بمثلها أبداً من قبل(٦٦) .

الفصل الثالث

طريقة حكمه

وعلى الرغم من حداثة سن الحاكم — وقد استرد سلطانه من مغتصبيه — كانت له أهداف فى أن يكون الخليفة المثالى فى الخلق والحكم . ويردد الشيعة فى كتبهم إشارات إلهية ترمز إلى التبشير به ، ليحكم الناس حكماً مثالياً[١] . ولا يدهشنا أن نرى فى سيرته تشابهاً مع سيرة العمريّن ؛ مع أن المجتمع الإسلامى كان قد بعد جداً عن معيشته الساذجة الأولى ، وأصبح فى أوج حضارته المادية المترفة ، مما جعل سيرة الحاكم فريدة فى زمنها . ولعل مثالية الحاكم أتت من شبابه البرىء ، وتنشئته الدينية المبكرة ، فارتقى ذروة الفضائل وغاية الشرف الكامل وهو صبى .

*

وتظهر مثاليته فيما أخذ به نفسه من تقشف وتزهد ، مع ما ورثه من الملك العظيم والعز والنعيم[٢] . حقاً إن الفاطميين فى أول الأمر كانوا يعيشون بتقشف ، فكان المعزّ مثل سلفه يمقت حياة الترف ، ويقيم بالمهدية فى حجرة متواضعة فرشت بالصوف والشعر « اللبود » ، ويلزم الواحدة من النساء[٣] ؛ ولكن المعزّ وخلفه لما نقلوا خلافتهم إلى مصر ، تغيروا تغيّراً كبيراً ، ومالوا إلى البذخ ولين الحياة . ومن المؤكد أن هذا التغيّر يرجع

إلى استقرار شئون خلافتهم، وأنهم وجدوا أنفسهم فى مصر المطبوعة على الحضارة الراقية . فقد اتسعت القاهرة اتساعاً عظيما ، وهى التى بناها جوهر ؛ لتكون فى أول الأمر معسكراً للمغاربة ، فبنيت فيها قصور نخمة أشبه بالقلاع : فتم على يد المعزّ بناء القصر ، الذى وضع جوهر أساسه يوم اختطاط سور القاهرة ، وعرف بالقصر الكبير الشرقى أو القصر المعزّى ، وبنى العزيز تجاهه القصر الصغير الغربى أو قصر البحر[٤] ، وكان بينهما فضاء واسع عرف برحبة بين القصرين ، يتسع لعشرة آلاف شخص[٥] . كذلك أقيمت خزائن كثيرة فى القصر الكبير وخارجه ، عبارة عن قاعات واسعة ، استخدمت فى خزن البضائع أو فى صنع الأشياء ، وقد تأكد ثراؤها من وصف المؤرخين المسهب لمحتوياتها من الكنوز الثمينة ، التى جلبت من جميع بقاع الدنيا أو صنعت فى مصر[٦] . فقد أصبح أئمة الفاطميين يهتمون بالتحف مثل العزيز ، الذى كان يعرف فى نقاء البلور ، ويكتب عليه اسمه[٧] . ولم يقف هذا الغنى عند الخلفاء وحدهم ، بل تعداهم إلى سائر أهلهم من رجال ونساء على السواء[٨] ، وإلى كبار رجال دولتهم ؛ بحيث أن خزائن ابن كاس (م ٣٨٠/٩٩١) وزير العزيز[٩] ، شابهت فى غناها ، خزائن خليفته كما أن جوهر القائد الذى فتح مصر وتوفى زمن العزيز (م ٣٨١ / ٩٩٢) ، قدرت تركته عنـــد موته ، بستمائة مليون دينار من الذهب العين ، وأربعة ملايين درهم ، غير الجواهر والثياب[١٠] .

وكذلك أصبح من يقومون بأعمال القصر المختلفة ، فرقة هائلة من الرجال والنساء ، بلغ عددها عشرة آلاف بين جارية وخادم ، لمـا تولى

الحاكم الخلافة[١١] . وقد تميّزت فيها طبقة للإشراف على الخدمة فى القصر ، تتكون من العبيد البيض والسود على السواء ، أغلبها من أصل أجنبى من الصقالبة ، خصيان وغير خصيان ، يعرفون بالأستاذين جمع أستاذ ، أجلهم من يتميز بلف طرف العمامة تحت الحنك ، ويعرفون بالأستاذين المحنّكين[١٢] ، بما لم تعرفه مصر من قبل .

فتبدو مثالية الحاكم فى أنه رفض هذا النعيم الذى تركه له أبوه وجدّه ، وتناسى حق نفسه وحق أسرته : فأخرج من قصره جماعة من حظاياه[١٣] ، وأعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور ، وحررهم لوجه الله تعالى ، وملكهم أمر نفوسهم ، والتصرف فيما يملكونه واقتنوه منه ومن أبيه[١٤] ، كما أخذ من والدته وأخته وخواصه من النساء أملاكهن وعقارهن[١٥] ؛ وهو فى هذا مثل عمر بن عبد العزيز ، الذى جعل زوجته تترك جواهرها لبيت مال المسلمين[١٦] .

كذلك أبطل الحاكم ما كان يستعمل برسمه الخاص من الثياب[١٧] ، سواء ما كان يصنع منها فى خزائن الكسوات ، التى أنشأها المعز بالقصر الكبير[١٨] ، أو فى مصانع النسيج الحكومية المعروفة باسم : الطراز الشريف ، وهى المنتشرة فى أنحاء بلاد مصر ، لا سيما فى دمياط وتنيس[١٩] . وكان الحاكم أول حكمه يتزيا بزى آبائه من الثياب المذهبة ، والعمائم التى فيها الجوهر ، ولكنه على التدريج ، انتقل إلى لبس غير المذهب ، ثم لبس الملابس الخشنة من الصوف[٢٠] ، ومركب حديدى فى رجليه[٢١] . وكان لون

ثيابه البياض شعار الفاطميين ، ثم أصبح السواد مع عمامة زرقاء ، ثم جعلها أيضاً سوداء ، زيادة فى التقشف[٢٢] .

وقد كان أهم ما يميّز القصر الفاطمي حفلاته الباذخة ، التى تتألف من رسوم[٢٣] ، تتبع بدقة ، يشترك فيها الخليفة وخاصته ورجال الدولة ، والجيش ، فى أيام مشهودة . ويقول ابن تغرى بردى ، إن المعزّ أول خليفة فاطمى فى مصر ، استسن جميع رسوم القصر[٢٤] ، كما ضُرب المثل بأيام العزيز فى البهجة ، وأنها كانت كلها أعياداً[٢٥] . فنجد الحاكم يقوم بهذه الرسوم بدون إسراف ، وهو إن أبقى عليها ، فلأنها كانت لتأكيد سيادة الدولة .

وكانت المواكب أهم الرسوم ، وتسمى أيضاً المواسم أو الركوب[٢٦] ، وذلك فى أيام معلومة ، كالأعياد الإسلامية وغيرها . فتخرج من خزائن القصر شارات الخلافة المختصة بالمواكب ، أو ماعرفت بالآلات الملوكية[٢٧] ، لتعرض على أنظار الناس فى الشارع ، وهى : أسلحة من كل نوع مذهبة أو مفضضة أو مغطاة بالجلد « الكيمخت » ، وأعلام كثيرة من الحرير المخطط بالذهب ، ملبسة أعوادها بأنابيب الذهب ، وهوادج أو عمّاريات تحيط بها ستائر حمراء أو صفراء ، يحملها الخدم أو الجمال أو البغال لنقل الأشخاص ، وأطقم أو مركبات برسم الدواب الكثيرة ، التى تعد بالآلاف ، وليس بينها من لونه أسود — وهو اللون الذى يرمز لأعدائهم العباسيين — مثل : سروج محلاة بالفضة والذهب ، وأطواق من ذهب ، وقلائد عنبر ،

وجلاجل من ذهب وفضة ، وأيضاً نقارات وصفافير وصنوج وأبواق ومداخن بأعداد كثيرة . فيجتمع موظفو الدولة وطوائف جيشها ورجال أسطولها فى ميدان بين القصرين ، فيخرج معهم الخليفة ويتجه الجميع إلى مسجد يصلون فيه ، كما هو فى موكب أول العام الهجرى ؛ وقد لبس الخليفة التاج أو عمامة الجوهر ، واحاط به حرسه المسمى الركابية كالجناحين ، وأمامه حملة آلاته الخاصة ، مثل : المظلة المرصعة بالأحجار الثمينة ، والمذبتين العظيمتين كالنخلتين ، والسيف الخاص المرصعة قبضته بالجوهر ، والرمح فى غلاف منظوم باللؤلؤ ، والدرقة المزينة بالذهب ، التى كانت لحمزة عم النبى ، والدواة من خالص الذهب .

وعلى النقيض من هذا البذخ فى المواكب ، نجد الحاكم فى موكبى عيد الفطر والأضحى[٣٨] ، يركب من غير زينة أو أبهة ، وليس معه سوى عشرة أفراس ، تقاد بسروج ولجم محلاة بفضة بيضاء خفيفة ، وبنود قليلة لا زينة عليها « ساذجة » ، ومظلة بيضاء بغير ذهب ولا زينة عليها ، وقد لبس ثياباً بيضاء بغير ذهب ، أو زخرفة ، ولا جوهر فى عمامته . وزيادة فى التقشف، كان الحاكم فى الموكب يركب الحمير لا الخيل[٢٩] ؛ لا سيما فى السنوات الأخيرة من حياته ، ويتزيا بثياب صوف وعمامة سوداء على رأسه[٣٠] . فيتجه موكبه الساذج إلى المصلى المعروفة بمصلى العيد ، وهى مكان مكشوف ، أنشأها جوهر شرقى القصر الكبير ، وجددها العزيز[٣١] ؛ فلم يفرش المنبر كالمعتاد بالسترين والألوية على جانبيه ؛ فقام الحاكم بالخطبة وأم المصلين للصلاة .

ولا نسمع بأن الحاكم أقام ولائم العيدين ببذخ[٣٢]، فلا نسمع بأنه عمل

الفطرة ، وهى حلوى من الدقيق والفستق ولوز وبندق وتمر وزبيب وعسل ، كان أبوه العزيز قد رتب صنعها فى دار خاصة عرفت بدار الفطرة ؛ لتحضر إلى القصر يوم عيد الفطر ، وتنشر كالجبل الشاهق على مائدة طويلة ؛ فيأكل الناس منها ، ويأخذونها للبركة . وكذلك كثيراً ما عطل الأسمطة وهى المآدب الرسمية ؛ التى تقام لكبار رجال الدولة ، بعد صلاتى عيد الفطر والأضحى ، بل وعطل المطابخ والمؤونة التى كانت تقام برسمه فى كل يوم ، واقتصر فيما يأكله على ما يأتيه من عند السيدة والدته[٣٣] . وكان يقتصر فى طعامه الخاص ومشربه على ما تدعو الحاجة إليه لتماسك الجسم ، دون الزيادة منه والمغالاة فيه[٣٤] . وعلى خلاف ذلك ، بقى النحر فى عيد الأضحى على رسومه ، حيث كانت تذبح آلاف الأضاحى لتوزيعها على رجال الدولة والفقراء من الناس[٣٥] .

وكان الحاكم يخرج أيضاً فى مواكب للصلاه فى أيام الجمع من شهر رمضان[٣٦] ، فى الجوامع المعروفة ، وهى : جامع القاهرة المسمى بالأزهر ، وجامع الحاكم المسمى بالأنور ، وجامع عمرو ، وجامع راشدة[٣٧] . فكان الحاكم يخرج فى موكب رسمى ، عليه عمامة بغير جوهر ، وسيف محلى بفضة بيضاء دقيقة ، والناس يمشون بموكبه . وقد كان الجامع صبيحة يوم الجمعة يُبخر بالمسك ، ويعلق عن يمين المنبر ويساره ستران ، مكتوب فى الستر الأيمن سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الستر الأيسر سورة المنافقين . فإذا أُذن للجمعة صعد الخليفة على المنبر ، ومعه قاضى القضاة تشريفاً له[٣٨] ، فيلقى الخليفة الخطبة من ورقة تأتيه عادة من ديوان الإنشاء ، فيقرأ فيها آية من القرآن

الكريم ، ثم يصلى على محمد جده وعلى أبيه ، ويعظ الناس بما قل ودل ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ، فيقول هذه الجملة التى تبين تواضعه نحو الخالق : « اللهم وأنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً » . ثم يتوسل إلى الله بدعوات نخمة ، ويختم الخطبة بقوله : « اذكروا الله يذكركم » . فكان الرسم أن يقرأ الخليفة فى الركعة الأولى ماهو مكتوب على الستر الأيمن ، وفى الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر ، وحينما ينطق التكبير ينقله القاضى إلى المؤذنين ، الذين يسمعونه بدورهم للناس ، فإذا انتهت الصلاة عاد الخليفة إلى قصره .

وكذلك واظب الحاكم على الركوب فى كل سنة وقت فيض النيل لفتح الخليج[٣٩] ، الذى عرف باسمه : الخليج الحاكمى، ويقع غربىّ القاهرة آخذاً من النيل إلى البحر الأحمر ، فيكون فتحه إيذاناً بفتح السدود ، لإرواء أرض مصر . فكان يقام له ولرجال الدولة على حافة الخليج ، سرادق واسع ربما هو القاتول الذى بنى فى عهد أبيه ، وعرف بهذا الإسم لأن فراشاً سقط من أعلاه أثناء إقامته فى عهد العزيز ، فنصب له فيــه سرير المُلك فيستمع الحاضرون إلى آيات القرآن الكريم من قراء الحضرة ، فإذا فرغوا ألقى شعراء الدولة قصائدهم العصماء ، بترتيب درجاتهم واحداً واحداً . فإذا انقضى هذا الحفل فى السرادق ، غادره الخليفــة إلى منظرة عالية ، تطل على الخليج ، فيطل من المنظرة أستاذ من أساتذة القصر الكبار ، لينقل أمر الخليفة بفتح الخليج ، الذى ينهدم أمام أعين الحاضرين ، تحت ضربات المعاول . وقد منع الحاكم اللهو والمجون الذى كان يحدث فى هذه المناسبة ، والركوب فى المراكب ، وسدت الطاقات المطلة على الخليج[٤٠] .

أما الجلوسات[٤١] ، وهى من أهم رســـوم القصر الفاطمى ، وتعنى الاستقبالات الرسمية الفخمة التى تقام فى القصر ، ويحضرها كبار رجال الدولة فى تواريخ محددة ؛ فقد اتسمت فى عهد الحاكم بالبساطة والتقشف . فكان ينصب له سرير الملك ، خلف ستر يحجبه — إذا أراد — عن أعين الحاضرين[٤٢] ، الذين يقفون أمامه أو يجلسون فى أماكنهم المقررة . فنهى الحاكم عن تقبيل الأرض بين يديه وتقبيل اليد ، والإنحناء بالسجود إلى الأرض ؛ ففى رأيه أن الإنحناء إلى الأرض لمخلوق من صنيع الروم ؛ كما نهى عن مخاطبته بمولانا ، وهى لفظة كانت تجرى على الألسنة فى قصور ملوك المسلمين ، وأن يكون السلام مقصوراً على قولهم فقط : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »[٤٣] .

وكذلك رفض الحاكم مظاهر التكريم ، التى كان يقوم بها حرس القصر ، وهم من الجنود السود عددهم خمسمائة راجل ، وخمسمائة فارس ، عملهم الطواف حول أسوار القصر طول الليل . وكان الرسم أن يقف قائد الحرس على باب القصر بعد الفراغ من صلاة العشاء ، فيأمر بنفخ الأبواق ودق الطبول والصنوج ؛ فيقفل باب القصر ، وترمى السلسلة ، ولا ترفع إلا عند الفجر على نفخة الأبواق . فمنع الحاكم من ضرب الطبول والأبواق ، وصار حرس القصر يطوفون بغير طبل ولا بوق[٤٤] .

وقد جرت العادة أن تذكر فى المكاتبات الرسمية عبارة مميزة عند ذكر اسم الإمام ، تحت هذه الصيغة : « صلى الله عليه وسلم » ؛ وأصلها فى الدعاء لإبراهيم وآله فى الصلاة ، وتدل على اعتقاد الفاطميين فى طبيعة أئمتهم

الإلهية . فنجد الحاكم يأمر بألا يصلى أحد عليه فى مكاتباته ، ويقتصر على الصيغة الآتية : « سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين »(٤٥) . وكان الحاكم أيضاً مثل أئمة الفاطميين قبله ، يُظهر غاية التواضع والخضوع لله ؛ فيسبق اسمه فى المكاتبات بعبارة : « عبد الله ووليه »(٤٦) . أما فى الصلاة ، فإنه منع المؤذنين من أن يسلموا عليه وقت الأذان(٤٧) ، وألا يدعى له على منابر الجوامع إلا بما يتفق من الدعاء لا غير ، فلم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : « اللهم صلى على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين علىّ المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك(٤٨) » .

☆

ومن كل هذا يستبين أن مثالية الحاكم أوجدت أساليب فى الحكم قلبت أوضاعه المتعارف عليها فى عصره . وربما يكون قد فكر فى أول الأمر ، أن يسير فى حكمه على أسس الإسلام الأولى ، فجمع مجلساً للشورى من أعيان الدولة ، ولكن ما لبث أن أبطله ، وبدأ يعتمد على نفسه فى شئون الدولة(٤٩) ؛ إذ كان الزمن قد تغير ، والعصر عصر الحكم الأوتقراطى ، الذى يعنى حكم الفرد القوى . فمنذ الخلفاء الأمويين ، لم يعد الخلفاء خلفاء النبى ، وإنما هم خلفاء الله فى الأرض ، يحكمون بالحق الإلهى المقدس ، وجاء الشيعة وقووا فى هذه النظرية ، بما أحاطوا به خلفاءهم من عصمة وقداسة .

وليس ثمة من عجب ، فى أن نجاح الحاكم فى استرداد سلطانه المغصوب من برجوان وابن عمّار ، ومن معهما من جماعة العسكريين ، يكون قد جعله

يستخدم القتل وسيلة من وسائل الحكم ، لسحق كل من يشك فى ولائه ، وإصلاح إعوجاج الدولة بعد أن فسدت شئونها . وقد أدى ذلك إلى أن أصبح اسم الحاكم يخيف أى شخص ، وحركاته تخيف من حوله ، وشبهوه بالأسد الضارى الذى يطلب فريسة ، لا سيما وأن منظره كان رهيباً ، فعيناه واسعتان ، إذا نظر إلى إنسان ارتعدمنه لعظم هيبته ، وصوته جهير مخوف(٥٠) . وقد بولغ فى عدد من قتلهم الحاكم ، فقالوا حوالى عشرة آلاف إنسان(٥١) ؛ مما جعل منه أعجب شخصية استطاعت إثارة الأساطير ، فقالوا : إنه كان يقتل خاصته وأقرب الناس إليه ، وربما أمر باحراق بعضهم ، وربما أمر بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه(٥٢) ، وإن أحد القواد دخل عليه ، فوجده جالساً وبين يديه صبي مليح قد اشتراه ، وفى يده سكين وقد ذبحه ، فارتد القائد مذعوراً ، ولم تمض ساعة حتى أنفذ إليه الحاكم من قتله(٥٣) ، وإنه بنى شونة كبيرة ملأها بالبوص والخشب ، بقصد إحراق الناس ، إذ كان يتمتع برؤية النار المتوهجة(٥٤) . ويبدو أن إسراف الحاكم فى القتل ، تسبب فى حيرة بعض المؤرخين ، الذين تخبطوا فى البحث عن تفسير لذلك ، ولم يتبينوا قصده السياسى ، فادعى أحدهم أن الحاكم كان يعبد « يخدم » كوكبى زحل والمريخ ، لا سيما وأن هذا الأخير يرمز للحرب ؛ فكان الحاكم يسفك الدماء تقرباً لهما(٥٥) . وعلى خلاف ذلك رأت الشيعة ، أن الحاكم بشربه ؛ ليهلك المفسدين بحركة شفتيه ، إذ كانت لا تأخذ[illegible] الله لومة [illegible]م ولا يغضى عن الذنوب والجرائم(٥٦) . وجدير بنا أن نلاحظ أن معظم من قتلهم الحاكم لم يكونوا من ضعفاء الناس ، وإنما من أكابر رجال الدولة ؛ مما يبيّن أن القتل كان عنده وسيلة من وسائل الحكم ، وهذه نجدها عند كثير

من ملوك عصره ؛ دون أن تثير مثل هذه المبالغة والأساطير .

وقد أحس الحاكم أن الناس تخافه ، فكان يحاول جهده أن يطمئنهم بأنهم غير المقصودين بشدته ، فيختلط بهم ويتبسط معهم بدون مواكب أو حجاب(٥٧) ، فيجتمع بهم فى الأسواق ، ويتصارع الرعاع أمامه ، ويتدافعون ويتلاكمون(٥٨) . وفى مرة قويت الإشاعات ، واشتد الخوف من الحاكم ، فظنت الرعية وطوائف رجال الدولة أنها مقصودة بشر ما ؛ فخرج سائر الكتّاب يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا يتضرعون ويضجون ويسألون العفو عنهم ، كما أن طوائف أخرى صاروا إلى قبر أبيه العزيز ، وضجوا بالبكاء وكشفوا رءوسهم ، فاسرع الحاكم بإصدار أمانات عديدة لتطمينهم ، حتى بلغ ما كتبه فوق مائة سجل . ولدينا صيغة إحدى هذه السجلات ،التى أعطيت لأهل الأسواق وقرئت بالقصر ، يبدو من صياغتها رغبته الشديدة فى تطمينهم على دمائهم ومالهم ، وأنه لا يقصد بهم شراً ، وإنما شدته تكون فقط لإصلاح المعوج ؛ فقد ورد فيها :

« إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا علىّ خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه ، فيوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى . وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . والحمد لله ،

وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليماً كثيراً »(٥٩) .

أما ما تناقلته الرواية عن حريق مصر أو الفسطاط بتحريض الحاكم ، فهذه جاءت مضطربة اضطراباً شديداً(٦٠) ، مما يشكك في أمر حقيقتها. فقد قيل إنها حدثت بسبب سخرية المصريين من الحاكم ، وسبه في رقعة وضعوها في يد تمثال « صورة » عملوه من القراطيس على شكل امرأة ، كأنها ظلامة . ولكن يحيى الأنطاكي لا يورد هذا السبب ، وإنما يقول : إن الحاكم أجبر أهل مصر على اعتناق دين جديد ، فعمل المصريون — لا تمثالاً من الورق — بل أشعاراً يكفرونه فيها ، وترنموا بأغانٍ تتضمن شتيمة له ، وألفاظاً قبيحة يشيرون بها إليه ، فأمر بحرق مصر . وكذلك يبدو السياق لهذه الرواية غير منطقي ومبالغاً فيه : فقد أمر الحاكم جميع العسكر بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها ، فاجتمع أهل مصر وقاموا بالدفاع عن أنفسهم؛ ولكن الترك والمغاربة من العسكر لم ترض بالاستمرار في القتال ؛ لأنه كان لهم في مصر أملاك وأصهار وأقارب ، فبقي العبيد وحدهم ، وهم الذين تعمدوا سبي الحريم والأولاد ونهب الأموال ، فأجبر الأتراك والمغاربة الحاكم على وقف القتال ؛ فأوقف الحاكم القتال ، واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة ، وحلف أنه بريء مما فعله العبيد ، بل إنه لما قال له أحد الأشراف من مصر : « أراك الله في أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا » ، حلم عليه . ومما يظهر أن قصة حرق الحاكم مصر من نسيج الخيال ، وهي مثل تلك القصص الكثيرة التي أشيعت عنه ، وكان يضطر في كل حالة إلى إصدار

سجلات الأمان والاطمئنان؛ أن يحيي المؤرخ يعترف بأنه لما شاع بين الناس قصائد وأبيات شعر على لسان الحاكم تتضمن وعيده للمصريين بحريق دورهم ونهب أموالهم، وسبي حريمهم، وسفك دمائهم، أسرع الحاكم بقراءة سجل بتطمينهم وإزالة سوء ظنهم[٦١] . وقد يكون حريق مصر، حدث نتيجة للنزاع بين طوائف العسكر لما اضطربت الأحوال، لا سيما وأنه حدث فى آخر أيام الحاكم سنة ٤١٠/١٠٢٠[٦٢] ؛ فتذكر الرواية أن المغاربة والترك اتحدوا وحاربوا العبيد؛ فلعل ذلك بسبب أن العبيد كان عددهم قد بدأ يكثر فى عهد الحاكم، فاخاف ذلك الترك والمغاربة، فتناسوا أحقادهم السابقة واتحدوا ضد العبيد. وتؤيد جميع المصادر بأن الحاكم كان يركب أثناء الحريق، ويظهر أن ذلك تم بغير علمه، وكان يلعن العبيد، ويظهر التوجع لآلام أهل مصر، وأنه أرسل جنداً لإطفاء الحريق لما استغاث به أهل مصر[٦٣]. وفوق ذلك، فإن المقريزى، العارف بأحوال مصر والقاهرة معرفة تامة، والذى تكلم بتفصيل زائد عن حريق مصر فى عهد شاور وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين؛ بقصد وقف غزو الصليبيين لمصر، لم يتكلم إطلاقاً عن حريق مصر فى زمن الحاكم. لكل هذا نعتقد أن الرواية مدسوسة من أساسها على الحاكم؛ أو أنها على الأقل غير دقيقة.

وعلى خلاف الوسائل الدموية؛ استخدم الحاكم سياسة الاستمالة والإغراء، عن طريق بذل المال، والإنعام بالألقاب؛ ليتفانى رجال دولته فى الإخلاص له، وفى عملهم. فكان يفرق الأموال الكثيرة على رجال الدولة بدون حساب؛ مما جعل ناظر ماليته يتوقف عن الصرف خوفاً على أموال الدولة؛ فوقع الحاكم: «المال مال الله عز وجل، والخلق عباد الله،

ونحن أمناءه على الأرض، فاطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام[٦٤]» .
فمثلاً منح الحاكم عند تعيينه غَبين رئيساً لشرطته فى ٤٠٢/١٠١١، بالإضافة إلى مرتبه الكبير، خمسة آلاف دينار ذهباً، وخمسة وعشرين فرساً بسروجها ولجمها، حتى يشعره بعطفه ويمنعه من الرشوة[٦٥] . وكذلك منح الألقاب لسائر موظفيه بجميع أنحاء الخلافة، بحيث لم تنتشر من قبل كما انتشرت فى عهده، وحينما فكر يوماً فى إسقاطها مالبث أن وجد ذلك يفقده نفوذه فأعادها[٦٦] . وكان الحاكم يعاقب بسلب لقب الشخص مدة طويلة، ولا يدعوه بهذا اللقب، فيصير الرجل فى حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه، فيكون ذلك عيداً عند الرجل[٦٧] .

فالصرامة والاستمالة مصراعا سياسة الحاكم، لا سيما فى أول عهده، وهو يشعر بصغر سنه وقلة تجربته أمام أعدائه الأقوياء، كما أنهما كانتا سبيله لتحقيق أهدافه فى القضاء على فساد الدولة، الذى امتدت جذوره إلى قبل حكمه . فقد رأينا الأرقام الخيالية لثروة كبار رجال الدولة، وهى ولا ريب قد سلبت من عرق الشعب المصرى المكافح، الذى كان الحاكم يعطف عليه كثيراً .

*

ومهما يكن فإن الحاكم كان يعتمد على نفسه فى إدارة شئون دولته، ويبدو أن حرمانه من سلطته على يد برجوان وابن عمّار جعله حريصاً على ألا يعلو على سلطانه سلطان . فلم تظهر فى عهد الحاكم تسمية الوزير، وإنما وسيط، ورتبته الواسطة أو وساطة جمعها وسائط، وهى تصحب غالباً بما

يسمى السفارة ، لتدل على من يتوسط بين الخليفة ورعيته ، دون أن يبلغ مرتبة الوزير ، مما يبين رغبة الحاكم فى الاستئثار بكل سلطته[٦٨] . وقد ظهرت تسمية الوساطة فى مصر فى آخر عهد العزيز ، واستمرت طوال عهد الحاكم ، وانقطعت بعده فى عهد خلفه الظاهر ، الذى اتخذ الوزراء[٦٩] ، كما أنها ظهرت من قبل عند بويهي العراق ، الذين كانوا يحرصون أيضاً على زمام الحكم فى أيديهم . وكذلك كان الحاكم أحياناً يبقى حتى بدون واسطة ، ويعتمد مباشرة على أصحاب الدواوين — وهى المصالح الحكومية — فيدخلون إلى حضرته ، ويستأذنون فيما يحتاجون إليه ، ويأمرهم بما يريد ؛ أو أنه كان يكفل النظر فى الأمور إلى أفراد أسرته الموثوق فى كفاءتهم[٧٠] .

ومع حرص الحاكم الشديد فى إختيار وسطائه ، إذ كان يراقبهم مراقبة شديدة ، ويرسل إليهم العجائز اللاتى يدخلن إلى بيوتهم من غير علمهم ؛ ليخبرنه بتصرفاتهم وأدق ظروف حياتهم[٧١] ، فإنهم كثيراً ما كانوا يهملون فى عملهم ، ويشك فى ولائهم . فكان الحاكم يقيم الواحد منهم تلو الآخر[٧٢] ؛ ويضعهم تحت التجربة مدداً تتراوح بين الطول والقصر ، على حسب فراسته فى كل واحد منهم ؛ بحيث أصبح أظهر قتلاه منهم . وقد بالغ المؤرخون بقولهم إن الفاطميين لم يستوزروا مسلماً إطلاقاً إلا فى عهد الظاهر[٧٣] ؛ فالحاكم استخدم فى الوساطة مسلمين وقبطاً على السواء .

فبعد قتل برجوان اتخذ الحاكم فهد بن ابراهيم النصرانى الملقب بالريس فى ٣٩٠/١٠٠٠[٧٤] ، وقدمه على جميع الكتاب ، ولكنه قتله فى جمادى

الآخرة ١٠٠٣/٣٩٣ ؛ بعد أن أمضى فى منصبه زهاء ست سنين ، منها ثلاث فى خدمة برجوان . وقيل فى قتل فهد عدة أسباب : أبرزها مناصرته النصارى ، وإسناد مناصب الدولة إليهم ، حتى أعتبر آفة على المسلمين وعدة للنصارى ، كما قد يكون قتله بسبب سعاية بعض الكتاب الذين كانوا يريدون أن يحلوا محله ، بحيث قال أحدهم للحاكم : « يا مولانا إن كنت تؤثر جمع الأموال ، وإعزاز الإسلام ، فارنى رأس فهد بن إبراهيم » . ولكن الرواية الكنسية ترجع سبب قتله إلى أنه أبى اعتناق الإسلام ، فضرب الحاكم عنقه ، وأحرق جسده بالنار ، وأن جسده لم يحترق ، وأُعتبر ذلك من الكرامات(٧٥) . ويبدو أن الحاكم تسرع فى قتل فهد ؛ فاحضر أولاده وخلع عليهم ، وكتب لهم سجـــلاً بحمايتهم ومنع الأذى عنهم ؛ وحفظ مالهم(٧٦) .

ثم أقام الحاكم علىّ بن عمر بن العداس ، ورفعه فى أمور الدولة والنظر فيها ،وجعل له علامة للتوقيع بها : « الحمد لله على ما يستحق » ، ولكنه سخط عليه وقتله وأحرقه بالنار فى نفس سنة ١٠٠٣/٣٩٣ . وقد كان ابن العداس تولى الوساطة من قبل للعزيز بعد ابن كلس ، وأمره العزيز بألا يرتشى أو يقبل هدية ، ولكن أُخذت على ابن العداس شبهات ، فصرفه العزيز ونقله إلى ديوان آخر ، فلما قتل الحاكم فهد ، ولاه مكانه إلى أن قتله . ويبدو أن ابن العداس كان ضمن من دس على فهد ، وكذبوا على الحاكم ، فربما يكون قتله بسبب ذلك ، أو لسيرته السيئة(٧٧) .

ثم جعل الحاكم حسين بن جوهر ، الذى كان تولى ديوان البريد والإنشاء أيام ابن عمّار وبرجوان ، يشترك مع فهد فى النظر فى أمور الدولة ولقبه بقائد القواد فى جمادى الأولى ١٠٠٠/٣٩٠ ؛ ثم ولاه الوساطة وحده

بعد قتل ابن العداس . ولكن الحاكم صرف ابن جوهر عن النظر فى الأمور فى شعبان ٣٩٨/١٠٠٨[٧٨] ، ربما بسبب أنه لم يكن مهتماً بعمله إذ كان ورث مالاً وافراً من أبيه كما ذكرنا ؛ حيث أطلق يد فهد النصرانى ليتحكم فى رقاب المسلمين إلى أن قتله الحاكم ، وربما أيضاً لأن ابن جوهر ارتكب خيانة كبرى ، حينما كاتب مغامراً اسمه أبو ركوة ، الذى غزا مصر أيام الحاكم وهزم[٧٩] .

فعيّن الحاكم صالح بن علىّ الروذبارى ولقبه بثقة ثقات السيف القلم ، ثم عزله ، وألزمه بالبقاء فى داره ثمانية أشهر ، ثم قتله فى صفر ٤٠٠/ ١٠٠٩[٨٠] ، ربما لأنه كان عراقياً ، إذ كان العراق العباسى فى عداء للفاطميين . فعين الحاكم قبطياً هو منصور بن عبدون الكاتب النصرانى ، ولقبه بالكافى ، وقتله بعد أشهر ، وألقى بجسده للكلاب ؛ وذلك لسوء تصرفه وخبثه ، وربما أيضاً لتحريض أعدائه[٨١] . فرد الحاكم الأمور من جديد إلى مسلم اسمه أحمد بن محمد القشورى ، الذى يبدو أنه كان عراقياً أيضاً[٨٢] .

وفى أثناء ذلك ، أمر الحاكم ابن جوهر بلزوم داره ، فاحس بالخوف من الحاكم ، فهرب بأولاده وصهره إلى جبل المقطم ، وبقى ثلاثة أيام ، ثم هرب إلى نواحى الاسكندرية عند قبائل بنى قرّة ، التى كانت قد أيدت المغامر أبا ركوة ؛ فما كان من الحاكم إلا أن صادر أموال الهاربين . ويبدو أن الحاكم لم يكن يفكر فى قتل ابن جوهر أول الأمر ، بدليل الإبقاء عليه حياً طول هذه المدة منذ عزله إلى سنة ٤٠١/١٠١٠ ؛ وذلك لأن جوهراً أباه ، هو مؤسس ملكهم فى مصر . فكتب الحاكم إلى ابن جوهر بخط يده كتاباً شديداً

أرسله إليه مع رسول من كتامة ، وجاء فيه(٨٣) : كيف أن آباءه اشتروا أباه من التجار وأعتقوه ، وجعلوه قائداً مظفراً يفتح البلاد ، وأنه نفسه جعله وزيراً وقائداً ، وأطلق يده فى دولته ، ويتعجب من تبطره وتركه النعمة ، ونفى أنه كان ينوى الغدر به ، ليأخذ ما فى حيازته — فإن بعض الظن إثم — فإن مثل هذا الإدعاء تبرير اسوء تصرفه نحو ولىّ النعمة ، فلو كان قصده قتله لتم ذلك بيسر ، ويحضه على العودة ، أما إذا لم يحضر فإنه سيلاحقه بالإختطاف ، وأعذر من أنذر . وقد تردد ابن جوهر فى أول الأمر ، وما لبث أن قبل العودة ، فأعد الحاكم له استقبالاً عظيماً ، وقدم له ملابس موشاة فيها الدر والجوهر ، عرضت على الحاكم قبل خياطتها ، وأرسل له الخيل بالسروج المذهبة ، والأجراس فى أرجلها ، وأذن لرجال الدولة الرسميين باستقباله ، بما فيهم الوسيط القشورى. فشق الحسين وأولاده وصهره البلد فى موكب فخم، تحيط به طوائف العسكر، وعلى رأسهم الرايات الحاكمية ، إلى أن وصلوا إلى قصر الحاكم ، فصاروا بحضرته ، ثم خرجوا وقد عفا عنهم . فحمل الحاكم إلى ابن جوهر جميع ما قبض له من مال وعقار وغيره ، وكتب له أماناً قرىء على رءوس الملأ ، فارسل ابن جوهر الأمان إلى مكة ، ليعلق على الكعبة ، ويحوز القداسة . ولكن ابن جوهر لم يفلت من الحاكم ، الذى قتله فى جمادى الآخرة ٤٠١/١٠١٠ ، كما قتل اولاده الذين هربوا إلى الشام ، وكاتبوا باسيل ملك اليونان .

وكذلك ضرب الحاكم عنق القشورى، ولم يلبث فى الوساطة عشرة أيام ، ربما لأنه عظّم الخائن ابن جوهر ، وأظهر عجزاً تاماً فى عمله . فولى الحاكم الوساطة

أبا القاسم الحسين بن علىّ المعروف بالمغربى ، الذى بدت منه أفعال سيئة نحو الرعية ، فخاف أن يجازيه الحاكم ويلحقه بالوسطاء سابقيه ، فهرب إلى مكة ؛ فقتل الحاكم أباه وعمه وأخويه ؛ فلما طلب الصفح وكتب إلى الحاكم قصيدة يعترف فيها بتربته ؛ صفح الحاكم عنه ، إلا أنه توفى قبل أن يعود إلى مصر (٨٤). فتقلد الوساطة قبطى اسمه زرعة بن عيسى بن نسطورس ، ولقبه الحاكم بالشافى أى الذى يتوقف عليه الأمل فى إظهار الرضا ، فاستمر زرعة فى الوساطة مرضياً عليه من خليفته من ٤٠١ / ١٠١٠ ، إلى أن مات سنة ٤٠٣/١٠١٢ ؛ فقد كان زرعة حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محبوباً من سلطانه وسائر الجند والكتّاب كما يقول يحيى المؤرخ ؛ لا سيما وأن أباه عيسى بن نسطورس وسيط العزيز ، كان ضحية ابن عمّار ، الذى تغلب على الحكم فى أول عهد الحاكم (٨٥) .

وبعد زرعة قلد الحاكم الوساطة والتوقيع عن الحضرة أبا الحسين ابن طاهر الوزان ، ولقبه بامين الأمناء ، ولكنه عزله وقتله فى جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ ، ربما لأنه كان يعارض تصرفاته المالية ، وتوقف عن صرف إنعاماته ؛ فكتب إليه الحاكم بخطه باطلاقها (٨٦) . ثم ولى بعده الأخوين الحسين وعبد الرحيم ابنى أبى السيد القاضى ، وقتلهما بعد شهرين (٨٧). فاستناب لتدبير الأحوال الفضل بن جعفر بن الفرات ، الذى أقام خمسة أيام فقط وقتله ، وبعده بقى بغير واسطة (٨٨) . ثم عاد وولى علىّ بن جعفر ابن فلاح فى ٤٠٥/١٠١٤ ، ولقبه بألقاب فخمة ، بذى الرئاستين الآمر المظفر قطب الدولة ، وكان إذا مرض عاده وحمل له مرتبة من القماش وخمسة آلاف دينار ؛ ولكن جعفراً قُتل بأيدٍ مجهولة فى شوال ٤٠٩ / ١٠١٨ ؛ لا يتبين

أنها من قبل الحاكم. وبعد جعفر أقام الحاكم ابن عمه الأمير هاشم للنظر فى الأمور، ثم عاد يعتمد على رؤساء الدواوين ، واستمر على ذلك إلى آخر عهده (٨٩) .

يتبين مما تقدم أن الحاكم أخلص فى عمله كرئيس للدولة ، بإشرافه على وسطائه إشرافاً تاماً ، إذ كان يقدر أهمية منصبهم فى خدمة الدولة والرعية . ومع قلة معلوماتنا التاريخية عن ظروف نقمته على كل واحد منهم ؛ إلا أننا لمسنا فى هذا القليل أسباباً أغلبها يتعلق بالولاء أو إستغلال المنصب ، أو الإخلاص فى العمل .

*

كذلك حاسب الحاكم رجال الدواوين — وهى الإدارة الحكومية — ويعرفون بالكتّاب مفردها كاتب ، حساباً عسيراً ، لا سيما وأنهم كانوا مثال التواكل ، وسوء التصرف ، فجعل سيفه مصلتاً على رءوسهم ؛ ليقوموا بعملهم بأمانة ، بحيث أن الكتّاب كثيراً ما طلبوا منه الأمان . فقد طالب الحاكم كتّاب الدواوين بحساب ما كانوا يتولونه فى ٣٩٩ / ١٠٠٨ — ٩ ؛ فثبتت السرقة على بعضهم ، فتقدم بمعاقبتهم ؛ فقطعت أيدى بعضهم بالشطور على الخشبة من وسط الذراع ، وعلق جماعة منهم بأيديهم أياماً يذوقون برد الهواء وحر الشمس ، فمات عدة منهم ، كما أخذ لقاء سرقتهم جميع ما كان لهم (٩٠) .

وقد كان غالبية رجال الدواوين من أهل الذمة منذ أن مهد العزيز اصطناعهم ؛ لزواجه من نصرانية هى أم سيدة الملك ؛ فلدينا أمثلة تاريخية تشير إلى استخدام القبط واليهود بكثرة فى مختلف الدواوين ، فلم يبقوا كما

كانوا سابقاً عن عصر الفاطميين فى دواوين مالية مصر وحدها ، وإنما صاروا فى جميع فروع الإدارة ، وأصبحوا أصحاب النفوذ والسلطان . وأكثر من ذلك ، أن العزيز لما استخدم عيسى بن نسطورس لتولى ضبط الأمور ، مال عيسى إلى النصارى وولاهم الأعمال ، وعدل عن الكتاب والمتصرفين من المسلمين[٩١] . وقد انتهز أهل الذمة تسامح الفاطميين معهم ، فأساءوا استخدام مناصبهم للتحكم فى المسلمين وإثارتهم ؛ بحيث أن أحد الشعراء وصف وصول الذميين وعلى الأخص اليهود منهم ، فنصح أهل مصر بالتهود لكى ينالوا الحظوة ، وتنجيز أعمالهم[٩٢] . وقد لفت المسلمون نظر العزيز إلى ذلك فى شكاواهم[٩٣] ، فقبض العزيز على عيسى وكاد يقتله ، لولا شفاعة ابنته سيدة الملك له ، فأعاده إلى عمله على شريطة أن يرد الدواوين والأعمال إلى الكتاب المسلمين ، والتعويل عليهم فى شئون البلاد[٩٤] . وقد سار الحاكم على سياسة أبيه الحازمة فى شغل الوظائف الديوانية بالمسلمين ، فتقدم بإثبات سائر المسلمين المتعطلين من الكتاب ، الذين يصلحون للخدمة فى دواوينه وأعماله ، ليتخذ منهم من يستبدل بالنصارى[٩٥] . وربما كان الحاكم — وهو المسلم المتعصب لدينه — يوده أن يخرج أهل الذمة جميعاً من الدواوين ؛ ولكنه لم يكن يستطيع ذلك ، بسبب أن القبط كانوا ثلث سكان مصر ، ولأن أغلبهم كانوا على دراية تامة بشئون الإدارة ، التى اهتم الحاكم بحسن سيرها .

ولكى يكون إشرافه شاملاً لجميع شئون الإدارة ، لا فى مصر والقاهرة فقط ، وإنما فى جميع أنحاء البلاد ، فإنه اهتم بما عرف بنظر المظالم ، وهى لفظة مفردها ظلامة أو مظلمة من ظلم ، بمعنى انتهاك حق شخص ، وتدل

عادة على الظلم الذى أتى على الخصوص من التعدى أو الفساد من قبل رجال الدولة ، فيرفع أمره إلى الخليفة مباشرة[٩٦] . ولذلك اعتمد الحاكم على نظر المظالم لتطهير دولته من الفساد ، وفى الوقت نفسه اعتبره وسيلة للمحافظة على سمعة حكمه . ويجب أن نذكر أن الفاطميين منذ أن جاءوا مصر ، أتوا بفكرة تطهير الإدارة من الفساد ، فجلس جوهر للمظالم فى كل يوم سبت[٩٧] .

ومن هذه الزاوية ، بذل الحاكم جهده فى القضاء على مظالم رعاياه فى كل وقت ، وفى كل مكان ، بشكل لم يُعرف له مثيل من قبل ، حتى من الخلفاء المتجولين المهتمين بإزالة الظلم عن رعاياهم ، مثل : عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . فكان يأتيه المتظلمون عند أحد أبواب قصره الكبير المعروف بباب الذهب ، حيث خُصص لهم مكان عرف بالسقيفة — أى موضع له سقف — فيقف المتظلم تحتها ، ويقول بصوت عالٍ عقيدة الفاطميين : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، علىّ ولىّ الله » ، فيسمعه الخليفة الذى يجلس هناك كل ليلة ، فيأمر بإحضاره إليه ليستمع لشكواه[٩٨] . كذلك كان يأخذ رقاع المتظلمين فى مواكبه ، ويقف وقوفاً طويلاً لكل من يتقدم بالتظلم له[٩٩] ، كما ترفع إليه الرقاع وهو على المنبر[١٠٠] . يضاف إلى ذلك ، أنه واصل الركوب ليلاً ونهاراً على حماره الأشهب المعروف باسم القمر[١٠١] — كأنه المخلّص من الظلم — تارة منفرداً وتارة فى عـــدد قليل ، فى الأسواق والقرى[١٠٢] ، ولما اعتل وضعف اتخذ له محفة يجلس فيها أو يضطجع ، ويحملها أربعة رجال[١٠٣] . وربما أنه فى تحمسه لرد المظالم أمر بقتل سائر

ما فى مصر أى الفسطاط من الكلاب ، إلا كلاب الصيد ، من أجل أنها تنبح بالليل إذا عبر الشوارع والطرقات ، فقتل منها نحو ثلاثين ألف كلب(١٠٤) . فكان أثناء تجواله يختلط بمن له حاجة، فمن رأى أن يقضى له حاجة حدد له اليوم الذى يعود فيه إلى لقائه ، والموضع الذى ينتظره فيه . فيحمل فى كمه لكل واحد من أصحاب الحوائج ما التمسه من مال أو سجل أو توقيع ، مما يقضى به حاجته ، ويدفعه إليه يداً بيد . ولخشونة العوام معه ، فإنه أمر من له حاجة أن يتقدم بها بنفسه ، وأن يكون وقوفه عن جهة اليمين من دابته خاصة(١٠٥) .

وفى الوقت الذى كان ينشغل فيه عن نظر المظالم ، ترفع الرقاع إلى قاضٍ خاص عرف بقاضى المظالم ، أو للقاضى العادى(١٠٦) ، أو لولىّ عهده(١٠٧) ، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المخبرين رجالاً ونساء ، يطوفون ليلاً ونهاراً ، يرفعون إليه الأخبار(١٠٨) . وكان لا بد أن تذهب هذه المظالم إلى ديوان الإنشاء للتوقيع عليها بختم الخليفة أو ما عرف بالعلامة ، حيث كان توقيع الحاكم : « بنصر الله العظيم الولىّ ، ينتصر الإمام أبو علىّ »(١٠٩) . وقد قرىء سجل فى شوال ٤٠٥ / مارس — أبريل ١٠١٥ ، بأن ما يرفعه الناس من حوائجهم يكون فى ثلاثة أيام : السبت للكتاميين المغاربة ، ويوم الإثنين للمشارقة ، ويوم الخميس لسائر الناس كافة(١١٠) . وفى الوقت نفسه ، كان الحاكم يقظاً لسير المظالم فى ديوان الإنشاء وما يتم فيها ، وفى مرة فك أحد الكتّاب واسمه أبو القاسم علىّ بن أحمد الجرجرائى ختم أحد الرقاع ، وقد ذكر فيها بالسوء غَين رئيس الشرطة ، فقطع الجرجرائى موضع الطعن،

وأصلح الرقعة وأعاد ختمها ، فبلغ ذلك الحاكم عن طريق رئيس مخبريه ، صاحب الخبر . فأمر الحاكم بقطع يدى الجرجرائى ، كما قطعت يد غبَين ، ثم قطع لسانه إلى أن مات ؛ وإن عفا عن الجرجرائى بعد ذلك ، وهو الذى أصبح وزيراً للظاهر ثم للمستنصر ، وتوفى فى ٤٣٦ / ١٠٤٥[١١١] .

*

وثمة حقيقة ثابتة ، هى أن الحاكم لم يكن مثل ملوك زمنه يعمل على إمتلاء خزائنه ، بل كان يفرقها على الفقراء والمساكين ، والإنعام بها على كل من يطلبها باستحقاق . فكان فى خروجه اليومى يحمل فى كمه شيئاً من المال يفرقه ، كما كان من عادته أن يجلس فى شباك « طاق » من شبابيك القصر فى وقت محدد ليفرق الصدقات، فيأتيه الفقراء الذين يعرفون وقت جلوسه ؛ وكان ذلك دأبه، وتلك آدابه[١١٢]. ولم يكتف بتوزيع المال ، وإنما وزع الكساء بكثرة ، فظهر فى عهده ما عرف : بطراز العامة ، وطغى على طراز الخاص[١١٣] .

وقد يكون الحاكم ورث هذه الأريحية عن أبيه العزيز ، الذى قال فى حديث له مع عمه : « ياعمّ ، أحب أن أرى النعم عند كل الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى[١١٤] » . ولكن الحاكم فاق أباه ، فهانت الأموال عنده ، وكان يوزعها لا على أهل مصر وحدهم ، وإنما على أناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، بحيث لما توقف ناظر ماله عن الصرف خوفاً

من إختلال ميزانية الدولة ، كتب له الحاكم : « الغربة مذلة الأعناق ، والفاقة مرة المذاق ، والمادة من الله الرزاق ، فأجرهم على عوائدهم فى الإنفاق ، ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق[١١٥] » . ولما كان للخلفاء عقارات وأراضٍ وضياع ، تعرف بمال الخاص ، ولها ديوان اسمه ديوان الخاص ؛ فإن الحاكم وهب جل الضياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية أولاً فأولاً لمن كان يلتمسها منه[١١٦] . وإذا لم تكف الأموال عنده ، نجده يعطى من مال من يقتلهم — وهو كثير — حتى أنه أقام لهذا المال ديواناً عرف : بديوان المفرد ، لم يسمع به من قبل[١١٧] ؛ كما أمر باستخراج كنوز مصر من الآثار القديمة ، لصرفها على الناس[١١٨] .

ويشهد له المؤرخون بأن يده لم تمتد إلى أخذ مال أحد إطلاقاً ، بحيث قال أحدهم — وهو نصرانى — : « لعمرى إن أهل مملكته لم يزالوا فى أيامه آمنين على أموالهم ، غير مطمئنين على أنفسهم » . فقد تقدم إلى كل من قبض منه شىء من العقار أو الأملاك بغير حق ، أو صودر منه فى أيامه أو أيام أبيه ، أن يعاد إليه[١١٩] . كذلك حدث أن أوصى أحد ولاة الشام بماله إلى الحاكم ، وكان أكثر من مائتى ألف دينار ، ما بين عين ومتاع ودواب ؛ فجلبها أبناؤه تحت قصر الحاكم ، فأخذ الحاكم الوصية وألقى نظرة عليها ، ثم أعادها إلى أبنائه ، وقال لهم بحضرة وجوه الدولة : « قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله ، وما وصى به من عين ومتاع ، فخذوه هنيئاً مباركا[١٢٠] » .

كذلك أصبح الناس فى عهده آمنين على أموالهم ؛ فكان التجار يتركون

حوانيتهم مفتوحة ، ولا يخافون عليها . وفى مرة وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند جامع ابن طولون ، فاستمر فى مكانه أسبوعاً كاملاً لا يجسر أحد على أخذه ، حتى مر به صاحبه فأخذه . ونادراً ما كان يسرق شىء من الناس إلا وجده الحاكم لهم ؛ مما أدهشهم ، فادعو أنه يعرف الغيب . كما ذكروا أن عنده تمثالاً يدعى أبا الهول ، يجلس فى داخله رجل ، فيجلس الحاكم أمام التمثال ، ويأذن للشاكين أن يمثلوا بحضرته ، ويصفوا ما فقدوه من متاع ، فيتكلم أبو الهول ذاكراً أسماء اللصوص(١٢١) .

*

وليس ذلك هو كل شىء ؛ فإن الحاكم كان يخفف عن رعاياه من الضرائب ما استطاع ، شأن الحكام الأتقياء ، لا سيما ضريبة أسواق بغيضة لأهل مصر تعرف بالمكوس(١٢٢) ، ظهرت منذ أيام حكم ولاة العباسيين ، وفرضت على كل السلع والناس ، وأن الهواء وحده أُخلى سبيله وبقى حراً ؛ هذا فضلاً عن أنها لم تكن من الضرائب الشرعية ، لأنها لم تذكر فى القرآن ؛ فاسقطها الحاكم . وربما يكون الحاكم قد أعاد تنظيم ضريبة الخراج أيضاً ؛ فقد استحدثت فى عهده قصبة لتقدير مساحة الأرض عرفت بالحاكمية ، يبلغ طولها ستة أذرع بذراع اليد ، والذراع يساوى ست قبضات ، والقبضة أربع أصابع(١٢٣) .

وكذلك حاول الحاكم التخفيف من المجاعات التى وقعت فى عهده بين ٣٩٥ / ١٠٠٤ إلى ٣٩٩ / ١٠٠٩ ، بسبب أن النيل قصر عن الصعود ، ولم يزد ارتفاعه عن خمسة عشر ذراعا(١٢٤) . وقد كان الناس بمجرد

إحساسهم بأن النيل لم يصل إلى مستواه فى المقياس ، يقومون بالتخزين ، وما يترتب على ذلك من إنعدام الأقوات وارتفاع الأسعار ؛ فكان المعز أول خليفة فاطمى فى مصر منع النداء العلنى على ارتفاع النيل قبل الوفاء ، لما يحدثه ذلك من بلبلة وقلق بين الشعب(١٢٥) . فلما وقعت المجاعات فى عهد الحاكم ، اتخذ هذا الخليفة من الإجراءات ما يدل على كبر عقله وتفانيه فى القيام بواجبه : فكان يعمل على تثبيت الأسعار بمنع تذبذب العملة ؛ بتحديد مقاديرها ، وإنزال عمله جديدة جيدة تفرّق على الصيارفة ، ثم أقام سعراً لكل شىء ، لا سيما الحبوب والمبيعات ، كما كان يدخل البيوت ويوزع الأموال على الناس بنفسه . وكذلك استخدم وسائله الخاصة فى منع الناس من تخزين الأقوات ؛ فضرب جماعة بالسوط وشهرهم ، وأمر ألا يباع القمح إلا للطحانين ، كما كان يكبس الحواصل والبيوت للبحث عن القمح ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمى . وفى مرة ركب حماره ، وقال : « أنا ماضٍ إلى الجامع ، فأقسم بالله لئن عدت ، فوجدت فى الطريق موضعاً يطؤه حمارى مكشوفاً من الغلة ، لأضربن رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئاً منها ، ولأحرقن داره وأنهبن ماله » . فلما عاد فى آخر النهار ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة إلا وعنده غلة ، حتى حملها من بيته أو منزله ، وسعى بها فى الطرقات ، فامتلأت عيون الناس ، وشبعت نفوسهم . ويدل على بعد نظره أيضاً ، أنه أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأعياد حتى لا تنقرض ؛ وقد فعل الظاهر بعده مثله ، لما وقعت المجاعات فى عهده .(١٢٦)

وكان الحاكم تواقا إلى أن يقطع دابر المجاعات عن مصر ، فسمع أن شخصاً من العراق اسمه أبو علىّ بن الحسين بن الهيثم ، نبغ فى الهندسة ، وأنه

قال : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فارسل الحاكم إليه جملة من مال ، وحثه على المجىء إلى مصر . فلما وصلها خرج الحاكم بنفسه للقائه ، وأمر بإنزاله وأكرمه ، وسيّره مع جماعة من الصناع فى طول الإقليم المصرى حتى وصل إلى أسوان . ولكن ابن الهيثم لم يستطع أن يقوم بشىء واعتذر عن عجزه ، فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً إلى وقت وفاته(١٢٧) .

٭

والجدير بالذكر أن النظام القضائى فى مصر اكتمل على أيام الحاكم ؛ بشكل لم يعرف من قبل . ففى أول حكم الفاطميين فى مصر ، أبقوا على أبى الطاهر الذهلى القاضى السنى ؛ الذى وجدوه معيناً من قبل الخليفة العباسى منذ ٣٤٨/٩٠٩ ، رغبة منهم فى تحاشى إغضاب الشعب المصرى السنى، ولكن أشركوا معه فى الحكم النعمان بن حيون وابن أبى ثوبان ، وهما قاضيان فاطميان ، من كبار المتفقهين فى المذهب الإسماعيلى . ولما مات النعمان بن حيون وابن أبى ثوبان ، أشرك المعز مع أبى الطاهر ، علياً الابن الأكبر للنعمان . ولكن الخليفة العزيز تخلص من أبى الطاهر ، وقلد القضاء كله لعلىّ بن النعمان فى صفر ٣٦٦/ أكتوبر ٩٧٦ ؛ وبعد وفاته قلد أخاه محمد بن النعمان فى ٣٧٤/٩٨٤ ، وخوطب كلاهما بقاضى القضاة(١٢٨) .

وكان منصب قاضى القضاة — الذى وجد فى مصر لأول مرة — تمتد سلطته لا إلى أعمال القضاء فى الديار المصرية وحدها فحسب ، ولكن فى بلاد الخلافة أيضاً مثل الشام والمغرب والحرمين ، وأكثر من ذلك تشمل جميع بلاد المسلمين ، وما يصير فتحه من بلدان الشرق والغرب .

وكان هذا المنصب لا يشتمل على أمور قضائية صرفة ؛ بل يتضمن أيضاً أموراً دينية ليس لها علاقة بالقضاء ، ولكنها ضُمت إلى القضاء حسب العرف والاصطلاح فى ذلك العصر ، وهى تشير غالباً إلى الصلاة والخطابة فى المساجد الجامعة ، والإشراف على الأماكن الدينية ، والقيام فى الذهب والفضة والمكاييل والعملة ، والنظر فى المواريث وأموال اليتامى. وكان قاضى القضاة يتخذ نائباً أو أكثر فى العاصمة للتخفيف من عمله ، وبطانة كبيرة من الشهود ، الذين يعاونونه فى وظيفته الأصلية فى القضاء أو فى غيرها ؛ وهم يعرفون بالشهود العدول ، جمع شاهد عدل .

ولقد أصبح شغل الحاكم الشاغل منذ توليته الخلافة ، تنظيم القضاء على أسس ثابتة ، واعتبر نفسه مسئولاً عن توطيده . وينقل الشيعة فى كتبهم إشارات إلهية ترمز إلى التبشير براكب الحمار ، ويقصد به الحاكم ؛ ليقيم العدل بين الناس(١٢٩) ، كما اعترف مؤرخ نصرانى بأن الحاكم أظهر من العدل ما لم يسمع بمثله(١٣٠) . ولكى يسود العدل دولته ، تعمد اختيار قضاته من بين كبار المتفقهين فى الدين والمذهب الإسماعيلى ، ومنحهم السلطة والمال الوفير والألقاب ، حتى لا يطمعوا فى أموال الناس أو يلحقوا بهم أى ظلم . وبالرغم من ذلك ، فقد وجد الحاكم قضاته يظلمون ويقبلون الرشوة ، مثل وسطائه ، فكان لا تأخذه لومة لائم فى الفتك بهم ومصادرة أموالهم . ولحسن الحظ لدينا عنهم معلومات أوفى تبين أسباب نقمته عليهم ، وكانها تبرر بطشه بهم .

فبينما تولى الحاكم الخلافة ، كان فى القضاء محمد بن النعمان منذ أيام العزيز ، وتوفى فى أيام وساطة برجوان فى ٣٨٩/٩٩٨ . فسمع الحاكم بأن محمد ابن النعمان وجد عليه من أموال اليتامى وغيرهم ستة وثلاثين ألف دينار ؛ فأمر

بالإحتياط على أمواله ، وبيع كل ما تركه ، وتغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم ؛ وذلك مع أن محمد بن النعمان ، كان صديق برجوان ويتزاور معه . وبعدها أمر الحاكم بألا يودع عند أحد الشهود مال يتيم ولا غائب ، وأفرد موضعاً يُودع فيه المال ، ويختم عليه أربعة من الشهود ، ولا يفتح إلا بحضور جميعهم(١٣١) .

فولى حسين بن علي بن النعمان(١٣٢) ، وهو أول من كتب فى سجله قاضى القضاة . وقد شرط عليه ألا يتعرض لأموال الرعية ، وذكر في سجله بما يجب أن يتبعه من عدل وإنصاف ، وترك المحاباة لذى رحم وقربى أو غيره مهما علا شأنه ، وحفظ مال الأيتام ، وأن يتخير أعوانه من الشهود أو غيرهم(١٣٣) . ولكى يمنعه من الرشوة ، ضاعف اقطاعه وصلاته ، كما منحه من مظاهر التكريم الشيء الكثير ، فجعل له بطانة كبيرة من الشهود العدول تبلغ الآلاف ، وحرساً من عشرين رجلاً بالسلاح ، ومركباً خاصاً « عشارى » يسير فى النيل ؛ ليسهل تنقله فى البلاد . ولكن الحسين بن النعمان سرق أموالاً أودعت فى ديوانه ، كما تسبب فى موت أحد الرعية لسبب تافه ؛ بأن أمر والى الشرطة بضربه ألف درة حتى مات ؛ بحيث أن البلد كله خرج فى جنازة الميت احتجاجاً . فجزع القاضى ، وانتابه الخوف من عقاب الحاكم ؛ الذى حرمه من بعض مناصبه ، ثم حبسه ، وبعدها ضرب عنقه ، وأحرقه بالنار ، وذلك فى ٣٩٥/١٠٠٤ . ولكى يقضى الحاكم على مثل هذا التصرف الأحمق ، نجده أقام فى كل بلد بمصر شاهدين من العدول ، وتقدم ألا يقام العقاب « الحد » على كل ذى جريرة ومرتكب جريمة ؛ إلا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستحق له ؛ فيقام عليه الحد اللازم ، ويطلق سبيله(١٣٤) .

فولى عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذى بدأ بداية حسنة ، فأوقف جميع شهود ابن عمه السابق ، واستحلف شهوداً جدداً ، بألا يقبلوا الرشوة . وكان الحاكم يقوّى من سلطان قاضيه ، بحيث أنه لما رفض أحد القواد الكتاميين الأقوياء الحضور أمام عبد العزيز ، أمر بالكتامى أن يحضر مسحوباً باليد . ولكن حدث لعبد العزيز فضيحة تتعلق بحضور مجلس شراب ، فخاف من الحاكم وهرب مع حميه ابن جوهر ، فلما عاد قتله مع ابن جوهر ، فى ٤٠١/١٠١٠ (١٣٥) .

ويبدو أن الحاكم اقتنع بفساد أسرة النعمان ، فسعى إلى تعيين قاض من أسرة أخرى عُرف أفرادها بالتفقه فى الشرع الإسماعيلى، فولى مالك بن سعيد الفارقى فى ٣٩٨/١٠٠٧ ، الذى مُنح سلطات واسعة ، فاستخلف فيها ابنه ، الذى استخلف هو الآخر ، أى أن النائب يستنيب ، وهذا لم يسمع به قبله (١٣٦) . وكان الحاكم يبالغ فى تكريم مالك ، فأقطعه داراً كبيرة ، وجعل إقطاعاته فى السنة حوالى خمسة عشر ألف دينار ، وكان يدعوه إلى مائدته ليأكل معه ، ويصعده المنبر معه فى الأعياد . ولكن مالكاً خالف أمر الحاكم ، فسهّل لامرأة عاهرة العبث ، كما ساءت سمعته ، وذاعت عنه إشاعات مؤداها خلوه بأخت الحاكم سيدة الملك ، حينما كان يذهب إلى قصرها ، لقراءة صفحات من الدعوة الشيعية . ومع ذلك فإن الحاكم لم يأخذ بأقوال الناس ، وطلب من مالك أن يقطع ألسنتهم ، ولما لم يستطع ، قتله فى ٤٠٥/١٠١٤ .

فبقيت مصر بعد ذلك ثلاثة أشهر بدون قاضٍ ، فكفل الحاكم القضاء مؤقتاً إلى المحتسب ، وهو موظف دينى يشرف على ما يحدث فى الأسواق . وقد أتاحت هذه المدة للحاكم أن يستشير الناس وكل من يعرفهم واحداً واحداً عمن يوليه القضاء ، كما يذكر النص . وأخيراً وقع اختياره على مصرى

اسمه أحمد بن أبي العوّام ، شُهد له بأنه ثقة مأمون عارف بالقضاء وبأهل البلاد ، وما فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره . ولما كان ابن أبي العوّام سنياً ، فإن الحاكم شرط عليه أن يكون أساس حكمه كتاب الله وسنة نبيه والمأثور عن عليّ وآباء الحاكم ، كما أقام معه أربعة من الفقهاء الشيعة ، لئلا يحكم بغير المذهب الشيعى . فنظم ابن أبي العوّام القضاء ، وحدد له أياماً معلومة ، فكان يعقد مجالسه أربعة أيام فى الأسبوع ، فينظر قضاياه كل يوم أحد وخميس بجامع مصر أو عمرو ، وكل يوم إثنين وثلاثاء بالجامع الأزهر ، ويركب أيام الجمع مع الحاكم ، ويطلع الخليفة يوم السبت على ما يرى من القضاء بالبلاد ، وكان يوم الأربعاء لراحته . كذلك نقل ابن أبي العوّام أرشيف القضاء إلى الجامع ، وهو ما كان يسمى سجلات الحكم أو دواوين الحكم ، بعد أن كان يوضع عادة عند القاضى فى داره ، ثم يُنقل إذا مات أو عزل إلى دار الذى يلي بعده . وكان ابن أبي العوّام ، يتصفح حال شهوده ، فاسقط منهم فى يوم واحد أربعمائة . وقد استمر ابن أبي العوّام يتولى القضاء ، حتى نهاية عصر الحاكم ، مرضياً عليه . (١٣٧)

ونذكر أيضاً أن الحاكم كان لا يراقب نزاهة قاضى قضاته فحسب ، بل كان يراقب أيضاً القضاة العاديين ، فيحضر مجالسهم ، ويناقش تصرفاتهم . وقد كان بمصر قاض يقال له النطاح ، وسبب ذلك أنه كان له طُرطور ، وفيه قرنان من قرون البقر ، يضعه إلى جانبه لإخافة المذنبين ، فبلغ الحاكم ذلك ، فاستدعاه ، وقال له : « ما هذا الأمر الذى قد اخترعته ، حتى قبحت سيرتك بين الناس » ، فقال له : « يا أمير المؤمنين أشتهى أن تحضر مجلسى يوماً ، وأنت من خلف ستارة ، لتنظر ماذا أقاسى من العوام ، فإن كنت معذورا فيهم ،

وإلا عاقبنى بماتختار » . فحضر الحاكم مجلس قاضيه من خلف ستارة ، وشاهد مايعانيه من نصب فى سبيل أخذ الحق لمستحقيه ؛ فأقره على فعله ؛ وكاد الحاكم نفسه يلبس القرنين ، وينطح بهما أحد المذنبين[١٣٨] .

*

هذه هى طريقة الحاكم فى حكم رعاياه ، شاهدنا فيها مثاليته النادرة ، وليدة إيمانه بمسئولياته نحو رعاياه ، وعمله على إقتلاع الفساد من جذوره ؛ ولا ريب فهو القائل[١٣٩] :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى ، إلا إلهى وله الفضـــل .
جدى نبى ، وإمامى أبى ، ودينى الإخلاص والعدل .

الفصل الرابع

النزعات الدينية

نعلم أن الدولة التي كان يحكمها الحاكم بأمر الله ، لم تكن فقط ثيوقراطية أساسها الدين ، ولكنها أيضاً متمذهبة لها عقائد خاصة . وقد أصبحت النزعات الدينية مميزة لحكمه بشكل واضح ، وفعل بسببها ما لم يفعله أحد من قبل . ولا نزاع فى أن السبب فى ظهورها فى عهده ، راجع إلى طبيعته الدينية ، التى تصل إلى حد التصوف والنسك ، بحيث كان دائم التردد من مسجد إلى مسجد ليلاً ونهاراً[1] ، وأيضاً إلى ظروف المجتمع المصرى ، الذى عاش فيه ، وهو مجتمع يخالفه فى المذهب والعقيدة ، فثلثاه من المسلمين السنيين ، وثلثه الباقى من النصارى الأقباط .

*

ومن الجلى أن نعلم على الخصوص ، أن الخلافة الفاطمية كان مذهبها شيعى ، وكانت تعتقد أنه الدين الإسلامى الصحيح . فقد كان من أهداف ظهورها العمل على سيادة مذهبها ، ليس فقط فى مصر ، ولكن أيضاً فى جميع أرجاء أملاكها ، بل وفى بلاد أعدائها السنيين[2] ، تمهيداً للاستيلاء عليها ، وإن كان اهتمامها أكبر بتحويل أهل مصر إلى المذهب الشيعى ، بسبب أن مصر هى مقر الخلافة الشيعية . فكان ما قام به الحاكم — صاحب هذه السيرة — فى هذا الصدد ، مما يعتبر صفحة جديدة هامة فى تاريخ

المذهب ، لم يسبقه أحد إليها ، فاثبت أنه رأس مدبرة ، وعقل متزن نادر .

فقدكان المصريون منذ عهد مبكر فى عهد الأمويين قد تحول كثير منهم من النصرانية إلى الإسلام ، بحيث أن عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتب إلى خليفته يقول : « إن أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام[٣] » ، كما نجد فى كتب المؤلفين أسماء أئمة المجتهدين من المصريين ، وبينهم فقهاء من الطبقة الأولى من التابعين[٤] ، وما جاءت الدولة الطولونية فى مصر ؛ حتى وكانت الغالبية العظمى من المصريين قد تحولت إلى الإسلام ؛ بحيث استطاع أحمد ابن طولون حينذاك ، أن يقيم فى مصر إمارة إسلامية شبه مستقلة . وقد كان إسلام المصريين فى أول الأمر على مذهب الخلافة العباسية المسيطرة آنذاك ، وهو المذهب السنى ، الذى يتمثل فى إعتناق المصريين فروعه المختلفة . وكان أول مذاهب السنة التى انتشرت بين المصريين ؛ مذهب مالك بن أنس (م ١٧٩ / ٧٩٥) ، وذلك بسبب توافر أصحابه الذين جاءوا إلى مصر ؛ ولدينا أسماء فقهاء مالكيين كثيرين من بين المصريين[٥] . فلما جاء مصر محمد بن أدريس الشافعى فى ١٩٨/٨١٣ — ٨١٤ ، واستقر بالفسطاط ، ودفن بالقرب من المقطم فى ٢٠٤ / ٨١٩ ، خصّ بعلمه أهل مصر ، وصحبه جماعة من أعيانهم ، وكتبوا بأنفسهم عنه ؛ بحيث تفرق مذهبه من مصر فى سائر البلدان ، وأصبحت غالبية مسلمى مصر من أتباعه ، وطغى فى انتشاره على مذهب مالك[٦] . أما مذهبا أبى حنيفة وابن حنبل ؛ فمع انتشارهما فى المشرق ، لم ينتشرا فى مصر ، انتشار مذهبى مالك والشافعى .

ومع ذلك ، فقد شق التشيع طريقه بأرض مصر منذ زمن مبكر ، وقبل انتشار المذاهب السنية نفسها[٧] . فقد جاء التشيع مصر أيام الخليفة عثمان ابن عفان ، على يد رجل اسمه عبدالله بن سبأ ، ويتلقب بابن السوداء[٨] ، كان

يتكلم عن وصاية النبي لعلىّ ، وأحقيته فى الخلافة عن عثمان ، فانتشرت آراؤه بين المصريين ، واعتنقها كثير منهم . ثم قوىّ التشيع حينما تولى علىّ الخلافة بعد مقتل عثمان ، وأرسل إليها والياً من قبله ، هو محمد بن أبى بكر — ابن الخليفة الراشد — بحيث وُصفت مصر حينذاك : بأنها دار تشيع . وعلى الرغم من أن معاوية وخلفه استولوا على مصر بالقوة ، فقد كانت غالبية المصريين تتشيع ، فلما قامت فتنة الثائر ابن الزبير ضد الأمويين ، لحق به كثير منهم . وظل المصريون طوال حكم الأمويين ، وإلى وقت مجىء العباسيين ، يعملون بفتاوى أهل الشـــيعة ، وبخاصة فتاوى جعفر بن محمد ، جدّ الفاطميين[٩] .

ثم ضعف التشيع زمن حكم العباسيين ، الذين حاربوا آل أبى طالب وشيعتهم ، فعملوا على إخراج آل أبى طالب من مصر إلى العراق ، وأُضطر من كان على رأى الشيعة من المصريين إلى التستر . يضاف إلى ذلك أن المذاهب السنية من مالكية وشافعية ، انتشرت بين المصريين ، بسبب حاجة هؤلاء إلى فقهاء يعلمونهم الدين ، ولم يكن يُسمح وقتئذ بوجود غير فقهاء السنة . لذلك تحول تشيع المصريين ، إلى نوع من الحب والتقدير لآل علىّ ، فـكانوا يتبركون بمن دفن منهم من الرجال والنساء ، وما زالت مشاهد آل علىّ من أيام الإسلام الأولى ، موضع بركة للمصريين إلى وقتنا الحاضر ؛ نذكر منها : مشهد السيدة نفيسة[١٠] ، ومشهد السيدة زينب[١١] ، ومشهد السيدة كلثوم (كُـلثم[١٢]) ، ومشهد زين العابدين[١٣] .

ثم عاد التشيع إلى الظهور بمصر من جديد ، منذ استقل بحكمها عن نفوذ الخلافة العباسية السنية أمراء أقوياء من الترك ، فشجع ذلك بعض المصريين على إظهار تشيعهم . ففى أيام الطولونيين ظهر رجل من أهل مصر ، وأنـكر

أن يكون أحد خيراً من أهل البيت ، ويقصد بهم آل على[١٤] . ولما جاء المهدى من الشام فى طريقه إلى المغرب ، نزل عند بعض شيعته فى مصر[١٥] . وحينما قامت خلافة الفاطميين بإفريقية عملت على نشر مذهبها بين المصريين ، ويبدو أنها نجحت فى تحويل بعضهم إلى الشيعة ، فيذكر المؤرخون أن القائم الذى أتى بعد المهدى ، كان يخاطب جماعة من المصريين ، الذين استجابوا إلى الدعوة[١٦] . وقد زاد عدد المتشيعين فى مصر ، حتى أنهم كاتبوا المعزّ وقالوا له : « إذا زال الحجر الأسود ، ملك مولانا المعزّ الدنيا كلها » ، وهم يعنون بالحجر الأسود كافوراً[١٧] . ولا يعنى هذا أن المصريين قد غيّروا مذهبهم مرة أخرى ؛ فقد بقيت غالبيتهم سنية ؛ لأن السنة كانت قد تأصلت فى نفوسهم ، بانتشار مذهبي مالك والشافعى ؛ حتى أنهم طالبوا جوهراً لما أرسله المعز لفتح مصر ، أن ينص فى أمانه على احترامه لمذهبهم السنى ، فنص جوهر لهم على ذلك ؛ على الرغم من أنه فى رأيه لا فائدة لذكره ؛ بحكم أن الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة[١٨] .

بيد أنه منذ أن أقام الفاطميون خلافتهم بمصر ، فإنهم عملوا على تحويل جهاز الدولة الرسمى إلى مذهبهم الشيعى . فعملوا على إحلال التشريع الشيعى مكان التشريع السنى فى القضاء والفتيا ، وإنكار ما خالفه[١٩] . كذلك غيّروا فى نظام المواريث ، وجعلوه على أساس رأى أهل البيت ؛ فأمروا ألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ؛ ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد[٢٠] . فلما ثار فقهاء

السنة ضد هذا التغيير فى التشريع ؛ اتخذ محمد بن النعمان كبير القضاة فى ذلك الوقت ، بعض العقوبات ضدهم ، ووطد حكم التشريع الشيعى[٢١] .

وفوق ذلك ، عمل الفاطميون على إدخال خصائص المذهب الإسماعيلى فى الجوامع الرسمية[٢٢] ، وهى خصائص لا تختلف عن خصائص المذهب السنى من حيث تناولها الدين الإسلامى ؛ ولكن بوجهة نظر خاصة . فمنذ اليوم الأول ، الذى دخل فيه الفاطميون مصر ، جعلوا الأذان فى المساجد الجامعة — وهى الكبرى — بحى على خير العمل ، بدلاً من حى على الفلاح ؛ وذلك لأنه فى رأيهم أن عمر بن الخطاب قد غيّر فى الصيغة التى تنوقلت عن النبى ؛ فقد كان عمر يرى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل تهاونوا فى الجهاد وتخلفوا عنه[٢٣] ؛ وكان الجهاد أهم عمل فى وقته . وفى صلاة الجمعة جهروا بصوت عال بالبسملة[٢٤] ، وزادوا صيغة القنوت فى الركعة الثانية ، التى مؤداها : « اللهم نحن إليك قانتون » ؛ وعلى النقيض ازالوا ما زاده السنيون فى هذه الصلاة من قراءة : « سبح اسم ربك » ، والتكبير بعد الصلاة[٢٥] . وفى الصيام ، جعله الفاطميون على حساب لهم ، ثلاثين يوماً ، ولا يكون على الرؤية بطلب الهلال ، كما ألغوا صلاة التراويح ؛ لأنهم لا يرونها مشروعة الجماعة ؛ إذ لا جماعة إلا فى فرض[٢٦] .

بالإضافة إلى هذا ، أخذ الفاطميون فى الاحتفال بأعياد تتعلق بالمذهب الشيعى وذكرياته ؛ وإن اجتهدوا أن تكون فى أوساطهم الخاصة ، تحاشياً لإغضاب عناصر السنة ، غالبية شعبهم المصرى . فاحتفلوا لأول مرة فى مصر سنة ٣٦٢ / ٩٧٢ ، بعيد اسمه غدير خمّ ، وهو اليوم الذى أوصى فيه النبى بالخلافة من بعده لعلىّ ، بمكان بين مكة والمدينة عرف بهذا الاسم ، فى ١٨ من ذى الحجة[٢٧] . فكانوا يحتفلون بهذا العيد فى القاهرة دون الخروج

عنها ، فيخرج موكب رسمى من قصر الخليفة إلى مكان مجاور عُرف بالإيوان الكبير ، للاستماع إلى خطبة قاضى القضاة ، الذى يقرأ نص وصية النبي لعلىّ بن أبى طالب . وبعد إنقضائها يصلى الحاضرون ركعتين ، ويتوجه الخليفة على رأس الحاضرين لذبح الأضاحى الكثيرة ، ثم يقام سماط فخم ، كما يحدث فى عيد الأضحى ؛ بل وبمظاهر أكثر أبهة منها فى أى عيد آخر .

وكذلك كانوا يحتفلون بيوم ذكرى مقتل الحسين بن علىّ ، فى العاشر من المحرم — عاشوراء — سنة ٦١/١٠ اكتوبر ٦٨٠[٢٨] ، باحتفال رسمى وشعبي كبير . إذ كان المصريون الشيعة يحتفلون به قبل مجىء الفاطميين فى أيام حكامهم الإخشيديين ؛ وقد استمر الفاطميون يحتفلون به من ٩٧٦/٣٦٦ ؛ إلى وقت إنقراض دولتهم فى ١١٧١/٥٦٧[٢٩] . فى هذا اليوم تعطل الأسواق ، وتغلق الدكاكين وأبواب الدور ، ويخرج موكب كبير إلى الجامع الأزهر ، فيه رجال الدولة وأشياع المذهب ؛ ليستمعوا لقراءة القرآن ومرثيات الشعراء ، وبعض الأناشيد الدينية ، ثم يذهبون إلى القصر وقد فُرش بالحصر بدل البسط ، ووضع فى بعض نواحيه دكك خشبية للجلوس ، فيستمع الحاضرون إلى القراء من جديد ، وتُلقى كلمات مناسبة لهذه الذكرى ، ثم يفرش سماط الحزن ، الذى يتكون من العدس الأسود ، والخبز المغبر لونه ، والأجبان والمخللات ، والألبان وعسل النحل الاسود ، فكان البعض يأكل منه ، والبعض الآخر يمتنع ، وإن كان الحزن يظهر على وجوه جميع الحاضرين .

ولما شعر الفاطميون بتوطيد مركز خلافتهم فى مصر ؛ عمدوا حثيثاً إلى نشر عقائدهم بين المصريين ، بقصد تحويلهم إلى الشيعة . وقد يكون الدافع

إلى اتخاذ هذه الخطوة ، أن العباسيين والقرامطة من أعداء الفاطميين ، كانوا يذيعون بين المصريين طعناً يرمى إلى التشكيك فى نسب الفاطميين إلى بيت النبى ؛ وهو الأساس الشرعى الذى قامت عليه خلافة هؤلاء . ويبدو أنه كان لهذا الطعن أثره ، بحيث أن المعزّ حين مجيئه من المغرب إلى مصر ، وقبل أن يدخل القاهرة طالبه جماعة من الأشراف أن يذكر لهم نسبه[٣٠] ، كما أن بعض المصريين كانوا يدسون للعزيز وهو على المنبر ، ورقات مكتوب فيها شعر ، يطالبونه بتصحيح نسبه ، إن استطاع[٣١] .

وينسب تنظيم نشر المذهب ، وهو ما عُرف بالدعوة فقط أو الدعوة الهادية[٣٢] ، إلى وزير العزيز بالذات ، يهودى كان قد أسلم ، هو يعقوب ابن كاس (م ٣٨٠/٩٩١) ، الذى عمل على عقد حلقات لشرح المذهب ابتداء من ٣٦٥/٩٧٥ ، فى المسجد الذى بنى فى عهد المعز فى ٣٥٩/٩٦٩، وتم فى عهد العزيز فى ٣٦١/٩٧٣ ، وعرف باسم جامع القاهرة ، وعلى الخصوص باسم الجامع الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء ، التى تنتسب إليها الدولة ؛ وهو أول مسجد فاطمى فى مصر[٣٣]. فأقام فيه ابن كاس خمساً وثلاثين رجلاً تنفق عليهم الدولة،ويقيمون فى سكن بجوار هذا الجامع ؛ ليقوموا بشرح المذهب للناس . كذلك كان كبار رجال الدولة الفاطمية ، يقومون بقراءة علوم أهل البيت ؛ فقرأ علىّ بن النعمان مختصراً فى الفقه ألفه أبوه بعنوان الاقتصار ، ومن بعده قرأ محمد بن النعمان علوم أهل البيت ، كما جلس ابن كاس بنفسه لقراءة رسالة فى الفقه الشيعى أسماها الرسالة الوزيرية ، تتضمن ما سمعه من المعز وابنه العزيز ، وبين يديه خواص الناس ، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء . فكان المصريون يقبلون على سماع هذه الدعوة ، ويحضرونها بكل

طبقاتهم ، حتى أنه مات منهم أحد عشر شخصاً فى الزحام ، من دفع الناس بعضهم لبعض ، للاستماع لمحمد بن النعمان[٣٤] .

ولكن التحمس البالغ للدعوة فى مصر وخارجها ، بلغ أشده فى عهد الحاكم ، الذى اعتبرها رسالة كُلف بها ، واتخذ فى سبيلها خطوات جريئة فاقت سابقيه من الأئمة منذ إنشاء المذهب ، وبقيت نمطاً يحتذيه خلفه من بعده ، بل لم يعرف لتنظيمه إياها تنظيم سابق فى أى مكان فى العالم . ولا ريب فإن الخلافة الفاطمية فى عهده ، كانت قد وطدت أقدامها فى مصر والشرق نهائياً ، وكان لابد من نشر عقائدها .

فجعل الحاكم للدعوة لأول مرة رئيساً يتلقب بداعى الدعاة ، حيث تلقب به الحسين بن النعمان ، فكان يقال له : قاضى القضاة ، وداعى الدعاة[٣٥] . وقد كان للشيعة الإسماعيلية أو لغيرها من الفرق الدينية دعاة ، إلا أن هذا اللقب لم يعرف إطلاقا من قبل . وحتى فى المغرب ، حينما أسس الفاطميون خلافتهم ، لم يوجد هذا اللقب ، وإنما كان كبير الدعاة يعرف بالحجة ، كما أنه فى أثناء فترة الستر ، كان يسمى حاجباً[٣٦] . لذلك نعتقد أن لقب داعى الدعاة لم يظهر إلا فى عهد الحاكم ، وفى مصر بالذات .

ولأهمية الدعوة جعل منصب داعى الدعاة يتكافأ مع منصب قاضى القضاة[٣٧] ، فجهازه يشبه الجهاز القضائى : فكان له نواب مثل نواب قاضى القضاة فى الأقاليم المصرية وغيرها . يضاف إلى ذلك ، أنه جعل لداعى الدعاة مجلس عالٍ من الرؤساء يعرفون بالنقباء ، يتكون من اثنى عشر نقيباً ، وإن كنا لا نعرف سر اختيار العدد اثنى عشر ، فلعله على نسق عدد رؤساء

الدعوة العباسية ، أو عدد الاثنى عشر رجلاً من الأوس والخزرج ، الذين عاهدوا النبي على الولاء في العقبة ، أو مثل عدد الحروف الاثنى عشر في عبارة : الرحمن الرحيم(٣٨) . ومع ذلك فلم يكن هؤلاء الدعاة والنقباء هيئة كهنوتية ، وإنما جماعة من الموظفين استخدمتهم الدولة الفاطمية ؛ لتعريف الناس بمذهبها .

ويدل على مدى الاهتمام بالدعوة ، أننا سمعنا عن دعاة في جميع أنحاء البلاد المصرية ، حتى في القلزم على البحر الأحمر(٣٩) . أما في خارج مصر ، فكان ميدان نشاط الدعاة واسع المدى ؛ ينقسم إلى أقاليم ،تسمى جزائر جمع جزيرة ، تشتمل على أملاك الفاطميين ، وبلاد الأعداء في المذهب ، وفي بلاد خارج دار الإسلام . ولدينا أسماء هذه الجزائر أو الأقاليم ، التي يبلغ عددها هي الأخرى إثنى عشر ، تبدو موزعة على أساس جغرافي أو جنسي ، وهي : العرب ، والبربر ، والزنج ، والحبشة ، والخزر ، والصين ، والديلم (أي الفرس) والروم ، والهند (أفغانستان الحالية) والسند ، والصقالبة(٤٠) .

وقد اتخذت الدعوة بمصر أهمية خاصة ، وأصبح يُطلق عليها : مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة(٤١) . وقد كان همها تحويل كبار موظفي الدولة « شيوخ الدولة » إلى المذهب الشيعي ؛ إذ كان لا بد لكي يبقوا في وظائفهم أن يكون لهم على الأقل ميول شيعية . ولم تقتصر الدعوة على الرسميين وحدهم ، بل تعدتهم إلى خاصة الناس وعامتهم ، من الرجال والنساء على السواء(٤٢) . ولدينا رسائل كثيرة من عهد الحاكم معظمها ألقيت في مجالس النساء ، كما ذهب مؤلف كتاب غاية المواليد إلى القول بأن المرأة الشيعية قد تصبح داعية(٤٣) . يضاف إلى ذلك أنه كان يدعى إلى مجالس الدعوة في مصر من بلاد الأعداء رجال معروفون ، أو من يمر بها من الطارئين ؛ بقصد

جعلهم دعاة للعقيدة الفاطمية فى بلادهم ، وأدوات طيعة لخدمة أغراض السياسة الفاطمية العالمية ، وإن كانوا فى نفس الوقت من الشيعة المخلصين .

فكانت هذه الدعوة الواسعة تحتاج إلى عقد مجالس عديدة ، لتغذية هذا العدد الكبير من الراغبين فيها بعقائدها . فيذكر المقريزى أنه قد خُصص للدعوة زمن الحاكم ، فى أول الأمر يومان فى الأسبوع ، ثم أصبحت ثلاثة أيام : فكان لعامة الرجال يوم الأحد ، وللنساء يوم الأربعاء ، وللأشراف وذوى الأقدار يوم الثلاثاء(٤٤) . ولكن يبدو أن الدعوة أصبحت تُعقد كل يوم ؛ فكان مجلس للخاصة ، ومجلس للموظفين ورجال القصر ، ومجلس لعامة الناس ، ومجلس للطارئين على البلد ، ومجلس لعامة النساء ، ومجلس لحريم القصر .

وكذلك كانت الدعوة تقرأ فى أماكن متعددة ، لا فى مكان واحد مثلما كان الحال فى عهد العزيز . فكانت تقرأ فى مكانين بقصر الخليفة : واحد للرجال فى الصالة ذات الأعمدة « الإيوان » ، والثانى للنساء فى رواق خاص اسمه « المحوّل » ، الذى وصف على أنه أعظم المبانى وأوسعها . كما خصص فى الأزهر ، وهو أول مكان ألقيت فيه الدعوة زمن العزيز ، مجلس آخر للنساء(٤٥) . كذلك بنى الحاكم مكاناً تلقى فيه مجالس الدعوة، عرف بدار الحكمة أو دار العلم ، أنشىء فى سنة ٣٩٥/١٠٠٥(٤٦) ، وزوده بالكتب من كل نوع فى العلوم والآداب والعقائد ، جاء بمعظمها من مكتبة القصر التى أنشئت فى عهد العزيز(٤٧) ، كما زوده بالمحابر والأقلام والأوراق ، وجعل له البوابين والفراشين والخزّان . وقد اتخذت دار الحكمة أول الأمر طابعاً حراً ، فدُعى إليها الفقهاء من المذهبين الشيعى والسنى ؛ وإن أشرف عليها داعى الدعاة ، مما يدل على طابعها المذهبى . فكان الطلاب يفدون إليها

من شتى الأقطار ، بدون تفرقة فى الجنس أو المذهب ، يتلقون فيها أصول الدعوة الشيعية ، وعلوماً أخرى مثل اللغة والمنطق والجبر والحساب والأخبار والطب ، وينسخون أو يقرءون ؛ فكانت أشبه بجامعة تتكون من عدة كليات . وقد كان الحاكم يذهب إلى هذه الدار ، ويستمع إلى محاضراتها، ويتناظر العلماء بين يديه ،ويخلع على الجميع ، ويشملهم برعايته .

وفوق ذلك،أسس الحاكم عدة جوامع منها : جامعه المعروف : بجامع الحاكم ، أو الجامع الأنور ، أو الجامع الكبير أو جامع الخطبة ، وكان قد أُنشىء خارج سور القاهرة فى عهد العزيز ، الذى توفى قبل اتمامه ، فأمر الحاكم باتمامه ، واستمر بناؤه زهاء عشر سنين ، إلى سنة ٣٩٣/١٠٠٢ — ١٠٠٣ (٤٨) . ومنها جامع راشدة ، الذى كان فى الأصل كنيسة على النيل بجنوب مصر ، تحولت إلى جامع فى ٣٩٣ / ١٠٠٢ ، وقد صحح علىّ بن يونس الفلكى المشهور قبلته ؛ وربما عُرف بجامع راشدة على اسم قبيلة راشدة التى نزلت موضعه إبان الفتح العربى، أو على اسم الكنيسة (٤٩)،أو على اسم عمة الحاكم رشيدة بنت المعزّ ، التى توفيت فى أيام الحاكم ، وخلفت ثروة هائلة (٥٠) . ومنها جامع المقس ، الذى أنشىء على شاطىء النيل ، والمقس بلد قديم اسمه أم دُنـيَن (٥١) .وقد أُحصيت الجوامع بمصر ، فوجد عددها ستة وثلاثون ألف مسجد (٥٢) ؛ فكان الحاكم يحمل إليها القناديل والتنانير والمصاحف والبخور والستور والحصر ، والإضاءة الخاصة بشهر رمضان ، فى مواكب شعبية ؛ يهلل الناس فيها ويكبرون ، فيرددون : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، والله أكبر (٥٣) » . كذلك أوقف أصناف الأملاك الكثيرة على الجوامع ودار العلم ، ولدينا نص وقفيته ، التى جاء فيها أن تكون دائمة لا يوهنها تقادم السنين (٥٤)، كما أنفق أموالاً طائلة على قومتها من القراء

والمؤذنين والخدام ، حتى أنه حدد لجوامع القاهرة وحدها فى سنة ١٠١٥/٤٠٦ مبلغاً قدره $\frac{11}{24}$ ٧٣٣ و ٧١ دينار ذهب(٥٥) . وقد جعل الحاكم الإشراف على هذه الجوامع ، لقاضى القضاة وداعى الدعاة ، من حيث مشارفة قومتها ، وعمارتها ، ونظافتها(٥٦) .

حقاً إن الدولة الفاطمية كانت تتكفل بنفقة الدعوة ، وتنفق عليها الأموال الطائلة ، إلا أنها كانت تلجأ أيضاً إلى مصادر إختيارية يدفعها المنضمون ، ترمز إلى الطاعة للمذهب . وبلغ من اتساع الدعوة زمن الحاكم ، أن كفل الإشراف علىّ جبايتها لداعى الدعاة ومساعديه . فكانت هذه المصادر الإختيارية تأتى بمبالغ طائلة ، يحملها داعى الدعاة للخليفة بيده ، بينه وبينه ، لوضعها أولا بأول فى بيت المال . ونستطيع أن نميّز من هذه المبالغ النجوى أو النجاوى ، ويلوح أنها تعنى السر ، ربما لتكون الدليل المادى على قبول التستر على عقائد المذهب ، وهى تبلغ ثلاثة دراهم وثلث ، ولكن أغنياء الشيعة كانوا يدفعون ثلاثة وثلاثين درهماً ، فكان من يدفع هذا المبلغ الأخير ، يتميز فى مجلس الدعوة ، ويخرج له بخط الحاكم ورقة مكتوب عليها الجملة الآتية : «بارك الله فيك ، وفى مالك ، وولدك ، ودينك» . وكذلك توجد الفطرة ، التى كانت تدفع فى مناسبة عيد الفطر ، والخمس والزكاة(٥٧) .

وقد كانت الدعوة قبل زمن الحاكم ، دعوة ظاهرة تتعلق بشرح التشريع الشيعى ، أو تفسير القرآن والحديث بمعناه المبسط « الظاهر » . ولكن منذ عهد الحاكم ، تميزت الدعوة — كما تظهر فى الكتب التى بين أيدينا — بظهور التأويل ، أو ما عرف بعلم الباطن ، وذلك للذين لا يقنعون بالقليل من الظاهر ، ويرغبون فى معرفة حقيقة الدين والمذهب . فكما

نعرف أن الإسماعيلية كانوا يرون لكل ظاهر باطناً(٥٨) ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ وذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ٦ : ١٢٠ ﴾ . وقد أعتبر علم الباطن ملكاً للإمام ومعجزته ؛ فهو العلم اللدنى ، الذى نقله النبي إلى علىّ ؛ ليتوارثه الأئمة من بعده ، فنقلوا عن النبي قوله(٥٩) : ﴿ أنا صاحب التنزيل ، وعلىّ صاحب التأويل ﴾ ، وقوله : ﴿ أنا مدينة العلم ، وعلىّ بابها ، فمن أراد العلم ، فليأت الباب(٦٠) ﴾ . فكان هذا العلم — فى رأيهم — يزداد من إمام لآخر ، حتى أنه يتضاعف كل مرة ست مرات(٦١) . وربما يكون بسبب علم الباطن ، أن سماهم أعداؤهم بالباطنية ، ظناً منهم أنهم أحلوا الباطن محل الشريعة(٦٢) . ولكن الفاطميين طول عهدهم فى مصر ، جعلوا الباطن بقصد تأييد الدين والمذهب ، فهو أشبه بالتفسير والقياس والرأى عند السنة(٦٣) . يُضاف إلى ذلك أن علم الباطن ، كان يتم تحت إشراف الإمام نفسه ؛ خوفاً من التغيير فيه ؛ فقبل قراءته على الناس ، كان داعى الدعاة يتلوه على الإمام ، ويأخذ علامته بظاهره(٦٤) .

كذلك تميّزت الدعوة بتوسعها فى العلوم الفلسفية ، أو ما عُرف بالتعبير الإصطلاحى : علم الحقائق(٦٥) . فهذا كان من شأنه أن يهب الدارس قوة فى الجدل والاستدلال ، وقدرة على البحث والنقاش . وكان سبب ظهور الميل الفلسفى فى زمن الحاكم ، أن الفلسفة الإسلامية كانت فى أوجها : ففى وقته وجد الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ / ٩٨٠ — ١٠٣٧) ، وقبله مباشرة الفارابى المعلم الثانى (م ٣٣٩ / ٩٥٠) ، والكندى فيلسوف العرب (الثالث / التاسع(٦٦)) ؛ وكل من هؤلاء نقل عن الفلسفة اليونانية وتناولها بالشرح والتعليق ، وحاول التوفيق بينها وبين العقائد الإسلامية . فلم يكن من الممكن ، والعصر الذهبى للفلسفة

الإسلامية ، أن يقف مفكرو الإسماعيلية عند ظاهر العقائد ، وإنما عملوا هم الآخرون على المزج بين عقائدهم ، وبين الأفكار الفلسفية ، مجاراة لتيار العصر . ويكفي ان نتصفح الكتابات التأويلية ، مثل كتاب : راحة العقل،(٦٧) لشيخ فلاسفة الإسماعيلية زمن الحاكم ، المسمى حميد الدين الكرماني (م ٤١١/١٠٢٠) ؛ فنجد أن له نظرة فلسفية في العقائد الدينية والمذهبية ، لاتختلف عن نظرة غيره من فلاسفة المسلمين ، مع بقاء طابعها الشيعي المميّز ، وأنه وجد لعقائد المذهب حلولاً ليس فقط في أقوال فلاسفة المسلمين السنة ، بل وفي أقوال فلاسفة اليونان ، أمثال : أفلاطون وأرسطوطاليس وأفلوطين ؛ كما تكلم هو الآخر في العقل الأول والسماء والنفس والوحي والمعجزة . والواقع أنه كان للنشاط الفلسفي عند الإسماعيلية سابقة عريقة ، ظهرت من قبل في رسائل إخوان الصفا ، التي أعتبرت من تأليف أئمة الشيعة وعلمائها ، وحاولت التوفيق بين عقائد الإسماعيلية والفلسفة(٦٨) ، وفيما كتبه الدعاة الأوائل للمذهب الإسماعيلي ، أمثال : النخشبي (النسفي) في كتابه : المحصول ، والرازي في كتابه : الإصلاح ، والسجستاني (السجزي) في كتابه : النصرة(٦٩) . ولكن ما حدث من نشاط فلسفي زمن الحاكم ؛ لم يعرف له مثيل من قبل أو من بعد ؛ بسبب أن الكرماني وفق بين آراء فلاسفة المذهب القدامى وآراء عصره ، بحيث لم تظهر بعده للمذهب فلسفة جديدة(٧٠) .

وقد ترتب على التعمق في دراسة المذهب ، بظهور علم الباطن وفلسفته ؛ أن الدعوة لم تعد محاضرات أو دروساً مبسطة علانية ، وإنما أصبحت عدة دعوات متدرجة ، عددها سبع أو تسع ، دعوة بعد دعوة(٧١) ؛ تتسم بالسرية ؛ خوفاً من اختلاطها أو التغيير فيها . ولم يكن المستجيبون لها ،

ينتقلون إلى الدرجة السادسة فيها ، إلا إذا درسوا كل نواحيها ومعانيها الباطنية والفلسفية . كذلك جُعل لها عهد خاص على المستجيبين ، يأخذه داعى الدعاة بنفسه ، وهو : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوله ، والإيمان بالبعث والساعة ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، والجهاد فى سبيل الله ، ولا سيما ستر المستجيب لكل ما سمعه ، وألا يقول إلا الصدق ، وألا يتفق مع أعداء المذهب ، وأنه إذا خالف عهده هذا ، فنساؤه طوالق ، وكل مايملك حرام ، وأن يحج ثلاثين حجة ماشياً حافياً ، ثم تقبل توبته(٧٢) .

وقد أتت هذه الدعوة الهائلة بثمرتها ، فيذكر المؤرخون أن المصريين فى عهده أقبلوا على الدعوة رجالاً ونساء ، لا سكان مصر والقاهرة فحسب ، بل قراها ومراكزها « نواحيها » ، وأنهم من تزاحمهم على سماعها ، كان يموت منهم عدد من الرجال والنساء(٧٣) . وكذلك وفد على مصر بسببها عدد كبير من الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، فكانت الدولة تنفق عليهم الأموال الطائلة ، بحيث أن ناظر المال نبه الحاكم إلى أثر ذلك على ميزانية الدولة ، وأنه لم يبق أحد من الناس إلا وهاجر إلى مصر ؛ ولكن الحاكم لم يهتم بما يُنفق فى سبيل الدعوة(٧٤) . ولا ريب ، فإن عقائد الفاطميين فى عهد الحاكم ، شغلت الناس كثيراً ، سواء من دخل فيها ، أو ظل متمسكاً بمذهبه .

وفوق ذلك ، عمل الحاكم على تطبيق المذهب ، وتشدد فيه أكثر من سابقيه . فأعاد صلاة القنوت ، التى كان أبوه العزيز قد تساهل فيها ، وقطعت فى سنة ٣٧٠/٩٨٠ ، كما استمر فى قطع صلاتى التراويح والضحى من جميع جوامع بلاد الخلافة(٧٥) . وقد جعل الحاكم المؤذنين الشيعة يضيفون إلى

صيغة الأذان — إذا شاءوا — عبارة : أن محمداً وعلياً خير البشر[٧٦] ، وأمر بالتثويب فيه أى التثنية فى الدعاء[٧٧] . ونجده ينظم أوقات الصلاة ، فجعلها بحسب المزولة العربية — الساعات — لتكون أدق ، وليس بحسب المتعارف عليه فى التوقيت بالشمس[٧٨] ، فهو عمل دينى ولا ريب . وقد كان الحاكم يحتفل بأعياد الشيعة مثل سابقيه من الخلفاء ، ولكن دون بذخ ، كما أنه رفض أن تستغل لمضايقة غير الشيعة ، أو الإتيان بأمور لا تليق ، مثلما كان يحدث فى عيد عاشوراء ، فقد كانت النساء تخرجن جماعات فى الشوارع للبكاء والنوح على الحسين ، وكان بعض الناس تمتد أيديهم إلى أمتعة الباعة ؛ فمنع الحاكم المرور فى الشوارع فى هذه الذكرى ، وأن يكون الاحتفال بها فى الصحراء ، كما منع القراء من إلزام الناس بالقراءة على الحسين ، وعاقب بعضهم بسبب ذلك[٧٩] .

ولابد لنا أن نقر أنه على الرغم من حماس الحاكم لمذهبه ؛ فهو لم يجبر أحداً على اعتناقه ، أو أنه تعصب ضد المذاهب الأخرى . فيقول الحاكم نفسه : «إن كل واحد حر فى اختيار مذهبه ، وأن يظهر ما فى ضميره»[٨٠] ، ويروى المقريزى أن الحاكم جعل المالكية يدرسون مذهبهم بدار الحكمة ، وأعتبر ذلك من المحاسن المأثورة للحاكم[٨١]. ويؤيد بعد الحاكم عن التعصب وتسامحه الجم ، تعيينه فى رئاسة القضاء بمصر وبلاد الخلافة قاضياً سنياً ، هو ابن أبى العوام ، الذى استمر فى القضاء من سنة ١٠١٤/٤٠٥ ، إلى آخر حكم الحاكم فى ١٠٢٠/٤١١ . وحينما قال الناس له : « إنه ليس على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من آبائك » ، قال : « هو ثقة مأمون مصرى عارف بالقضاء وبأهل البلد ، وما فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره » ، وكأن الحاكم لا يهمه مذهب قاضيه ، بقدر ما يهمه أن يكون قاضيه مأموناً وثقة[٨٢] .

كذلك سمعنا زمن الحاكم أن فقهاء مالكية وشافعية ، قد تولوا القضاء[٨٣] . وقد لاحظ القلقشندى ذلك ؛ فقال : « إن مذهبي مالك والشافعي ظاهرى الشعار فى زمن الفاطميين » . ومع ذلك كان الفاطميون يراعون مذهب مالك ، أكثر من رعايتهم مذهب الشافعى ، ومن سألهم الحكم به أجابوه[٨٤] . ربما لأنهم عرفوه من قبل بالمغرب ، أو ليوجدوا للمذهب الشافعى منافساً ويُضعفوه ، إذ كان المذهب الشافعى مذهب غالبية المصريين .

وثمة أيضاً ما يدل على تسامح الحاكم ، وهو منعه سب أعداء المذهب جرياً على سنة آبائه الحميدة فى ذلك ؛ ولم يعامل أعداءه بالمثل ، الذين كانوا يلعنون علياً من على منابرهم ، لاسيما العباسون فى العراق والأمويون فى الأندلس . فحينما جاء المعز مصر ، لم يلعن لاعنيه ، وإنما كتب على سائر الأماكن بمدينة مصر : « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب عليه السلام[٨٥] » ؛ كما لم نسمع بأن العزيز هو الآخر أمر باللعن . ولكن لما أقبل كثير من المصريين على دعوة التشيع زمن الحاكم ، وتركوا المذهب السنى ، أخذ بعضهم من أنفسهم يظهرون سب من تقدم على علىّ ، ومن خالفه وحاربه وباينه ، وهم من أُصطلح على تسميتهم بالصحابة والسلف . فجهروا بلعنهم على المنابر ، وكتبوا سبهم على الحوائط ، وسموهم بأسمائهم ، وهم : عائشة زوجة النبي التى حاربت علياً فى موقعة الجمل ، وأبو بكر وعمر وعثمان وكل منهم منع علياً من الخلافة ، وطلحة والزبير اللذان حاربا علياً فى موقعة الجمل مع عائشة ، والخليفة معاوية وواليه عمرو بن العاص ، وغيرهم من سائر خلفاء بنى العباس[٨٦] . ويؤيد المقريزى ذلك بقوله : إن هذا اللعن كان من رأى جماعة المصريين ، الذين كتبوه بالأصباغ فى سائر المواضع على أبواب الحوانيت والبيوت وسائر المساجد ، وعلى المقابر أو حتى

فى الصحراء مبالغة . والواقع أن الحاكم لم يكن مسئولاً عن لعن السلف وسبهم فى عهده ، وعلى النقيض كان يأمر بمحوه ، ويؤدب بالعقاب من يسبهم إلى حد قتله[٨٧] . وينقل عن الحاكم قوله : « لا يسب السلف لقول بعض آبائه الأئمة — فى وصيته لشيعته — ولا تكونوا سبابين ولا عيابين » . ولدينا سجل أصدره الحاكم ، ليقرأ فى كل مكان على جميع الناس ، فى رمضان ٣٩٨/ يونيو — يوليو ١٠٠١ ، يظهر فيه منع الحاكم سب السلف ، وها هو نصه[٨٨] :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله ووليه أبى علىّ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى كل حاضر وباد .

أما بعد : فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ، ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ . مضى أمس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه . الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح ، والفساد والإفساد بينهم مستقبح ؛ إلا من شهد الشهادتين أحق أن لا تنفك له عروة ، ولا توهن له قوة . بحى على خير العمل يؤذن المؤذنون ولا يؤذنون ، ويخمس المخمسون ، ويربع المربعون فى الصلاة على الجنائز ، ولا يعترض أهل الروية فيما هم عليه صائمون ، ولا يشتم السلف ، ولا يبغى الخالف على من قبله خلف . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون . معشر المؤمنين ، نحن الأئمة ، وأنتم الأمة ، عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم تعملون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله الأكرمين» .

حقاً إن الحاكم فى وقت ما ، قد يكون بدا عليه تعصب ضد السنة ، فإن تعصبه — فى رأينا — كان فى فترات متقطعة ، مما يجعلنا نظن بأنه كان لأسباب سياسة عليا ، ولاسيما فى الفترة التى غزا فيها المغامر أبو ركوة المالكى المذهب مصر ، بحيث أنه لما طالب ابن باديس — والى الفاطميين على المغرب — من الحاكم أن يعدل عن اضطهاده للمالكية ، عدل عن ذلك مباشرة(٨٩)، وربما يكون أيضاً بسبب رد الفعل من جانبه لإرضاء تعصب الشيعة ، الذى لمسناه فى سب السلف . ويجب أن نذكر أن مؤرخى السنة ، لم يذكروا عن تعصب الحاكم غير روايات معدودة ، مثل قتله بعض فقهاء المالكية(٩٠) . — ولم يذكروا أنه قتل فقهاء من الشافعية — ، وقبضه على ثلاثة عشر رجلا ، وضربهم والتشهير بهم — دون قتلهم هذه المرة — من أجل صلاتهم الضحى ، وقتله رجلاً أنكر أنه يعرف علياً ، وإن لم يقتله — على حسب قولهم — إلا بعد أن أرسل إليه أربعة شهود ، ووسيطه ، وقاضى القضاة ، فلم يقبل الرجل — مع ذلك — التعرف على على(٩١) . ومن قبل ذكر مؤرخو السنة هذه الروايات عن تعصب العزيز ، الذى ضرب رجلاً وطيف به ، لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك(٩٢) ، وعن الظاهر بن الحاكم ، الذى أخرج هو الآخر من مصر فقهاء المالكية وغيرهم(٩٣) . مهما يكن ، فإن الحاكم وإن كان قد تعصب وقتاً ضد السنة ، فإنه لم يكن يستطيع أن يستمر فى تعصبه ، بسبب أن أغلبية رعيته فى مصر والبلاد التابعة لها ، كانوا من السنة .

*

كذلك أخذ هذا الخليفة ، الذى كان الدين يملك عليه كل حواسه ، على عاتقه أن يقوم بالحسبة ، وهى اصطلاح إسلامى يعنى فى أساسه : الأمر بالمعروف عند ما يكون مهملاً ، والنهى عن المنكر عند ما يكون علناً ، وإن

تحولت هذه الأصول المثالية إلى واجبات عملية إجتماعية وخلقية ، تفق والمصالح العامة لسكان المدن[٩٤] . يضاف إلى ذلك أن الحاكم اعتبر الحسبة فى عموم واجبات الإمام ، بناء على ما نقل عن علىّ من قول النبي له : «يا على ، مر بالمعروف وأنه عن المنكر[٩٥] » .

فعمل الحاكم على أن يخضع أمور الحياة فى مملكته للنص الحرفى لهذه القاعدة الدينية المثالية ، فكانت هذه المراسيم والأوامر التى صدرت فى عهده ، وأطلق عليها سجلات[٩٦] . وقد حاول المؤرخون السنة وغيرهم من أعداء المذهب الشيعي ، السخرية من هذه الأوامر ، ورموه بسببها بالخلل فى العقل والجنون ، فقد كان — فى رأيهم — يأمر بالشىء ثم ينهى عنه ، وعللوها بمرض « الماليخوليا » ، الذى أصيب به فى حداثته ، فكان يصاب بالتشنج ، وأنه شفى منه ، ثم عاد إليه[٩٧] . ولكن فى رأينا أن هذه المراسيم ، إذا فسرت تفسيراً دقيقاً فى ظروف المجتمع الذى عاش الحاكم فيه ، نجدها تتفق جميعاً وقاعدة الحسبة ، فضلاً عن أنها تدل على وعى كبير لشئون الحياة فى زمنه ، وتديّن بالغ .

ولأهمية دور الحسبة فى حياة المسلمين ، كان الحاكم يقوم بنفسه بتنفيذ واجباتها[٩٨] ، أو يكفلها إلى موظف كبير يُسمى المحتسب يختاره بعناية[٩٩] ، أو يكفلها لقاضى القضاة[١٠٠] . وكذلك كان الحاكم يتشدد فى توقيع عقوبات الحسبة على المخالفين ، وهو ما عُرف إصطلاحاً بالتعزير ؛ وهى : الردع بحذف الشىء المخالف ، والجلد بالسوط أو بالدِرة ، والتشهير بالطواف فى المدينة[١٠١] .

فقد راقب الحاكم مراقبة دقيقة التجار وأصحاب الحرف والصناعات لمنع الغش ، وكان يعاقب المخالف عقاباً صارماً . ورعاية للصالح العام ،

كان يصدر عدة أوامر — من وقت لآخر — على حسب الأحوال بمنع أكل وبيع بعض المأكولات ، التى ربما ترتبت عليها مضار صحية ، وأمراض فى عصره . فمنع الناس من أكل وبيع الملوخيا (الملوخية) ، والجرجير ، والقرع ، والتـــوكاية (المتوكاية) وهى نبات للحساء ، والدلينس وهو نوع من الصدف « أم منخلول » يؤكل نيئاً مملوحاً ، والترمس العفن ، كما أمر بقتل الخنازير ، ومنع عجين الدقيق بالرجل[١٠٢] ؛ لنفس المقصد . ولكن إصدار هذه الأوامر على الخصوص ، وتعزير مخالفيها ، أثارت سخرية عدد كبير من المؤرخين ، فرموه باضطراب الذهن ، كما أن البعض فسرها على أنها تعصب مذهبى ، إذ ان بعض هذه المأكولات كانت محببة لأعداء الفاطميين على حسب قولهم ؛ فالملوخيا كان معاوية يحبها كثيراً ، والجرجير يُنسب إدخاله فى الطعام لعائشة ، والمتوكاية تنسب إلى الخليفة العباسى المتوكل . ولكننا لا نرى فى هذه الأوامر مطعناً وداعياً للسخرية ، ذلك لأنها بخصوص مأكولات قد يترتب عليها مضار حتى فى وقتنا ، كما ينفى التعصب عن الحاكم ما قلناه سابقاً ، وأنه لم ترد إلينا من المعترضين — إذا كانوا جادين — تفاصيل عن بقية الممنوعات الأخرى مثل الخنزير والدلينس والقرع والترمس العفن مثلاً ، فضلاً عن أنه لم يتأيد بروايات متقدمة ، أن أعداء الشيعة كانوا يحبون هذه المأكولات .

وكذلك كانت الواجبات الأخلاقية ، من عمل الحاكم البارز فى الحسبة ، مما جعل الحياة فى مصر والقاهرة فى عهده ، ينتابها تغيير لم يحدث من قبل . فنعرف أن الدولة الفاطمية منذ مجيئها مصر ، لكى تجتذب المصريين إلى جانبها ، بالغت فى ترك الحرية لهم ، بتناول حياتهم كما يريدون . فكان

المصريون مع إسلامهم يشربون الخمر مثل النصارى ، وهى التى تعودوا عليها منذ زمن الفراعنة : فنسمع أن مصر اشتهرت بصنع البيرة المسماة « الفقاع » ، والنبيذ المسمى « المزر[١٠٣] » . وأكثر من ذلك ، أن الحاكم لما أمر بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت والمحال بمصر والقاهرة ليلاً — وكان ذلك لا يُعمل قبلاً — بقصد زيادة حركة البلد المعيشية ، بحيث كان الناس يدعون له لاتساع أرزاقهم ؛ إلا أنهم بالغوا فى السرور فى نفس الوقت ، وخرجت النساء فى الطرقات ، وكان الناس يشربون الخمر فى الشوارع والحوانيت[١٠٤] . كذلك كانت بيوت الفساد والفجور تملأ أنحاء المملكة[١٠٥] ، وانغمس الناس فى الإباحية .

فنجد الحاكم يعمل على أن يجبر الناس على أن يضعوا حداً لهذا المجون ؛ فقرر من الأوامر الرادعة ما يصون الأخلاق المهددة . فيأمر محتسبه غَبَين — الذى كان رئيس شرطته أيضا — بمنع شرب الخمر وصنعه ، وتتبع السكارى . ولكن الناس شربوها فى السر ؛ فما كان من الحاكم إلا أن حرم كل ما يدخل فى صناعة الخمور : فقطعت كروم الجيزة ، وبلغ ما قطعه منها مائة ألف كرم ، وديس العنب فى الطرقات تحت أرجل البقر ، وغرّق بعضه فى النيل ، كما كسرت جرار العسل ودنانها ، وبلغ ما أراقه منها خمسة آلاف جرة فى أربعة أيام ، ونهى التجار عن بيع الزبيب[١٠٦] . ولما تظلم أحد التجار من كسر جرار عسله ، مع أنه لا يحيلها إلى خمر ؛ أمر الحاكم فوراً بأن يرد إلى التاجر ثمن ما كسر من الجرار ، وأخذ عليه تعهداً بألا يحولها إلى خمر[١٠٧] . وبعد ذلك ، خفف الحاكم من شدة أوامره ، فأباح بيع العنب إلى أربعة أرطال والعسل إلى ثلاثة أرطال[١٠٨] ؛ وإن أدام أوامره المشددة فى تحريم الخمر ؛ فكان يقيم الحد على من يشربها ،

ولو فى الستر[١٠٩] . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين ، الذين دأبوا على السخرية من أوامر الحاكم وتأويلها تأويلاً سيئاً ، ادعو أنه لم يحرم الخمر تديناً منه ؛ وإنما لأنه كان يؤثر عن جده علىّ كرهه لشرب الفقاع[١١٠] .

كذلك صوناً للأخلاق المهددة نظم الحاكم دخول الحمامات ، التى انتشرت فى مدن الإسلام انتشار المساجد لعلاقتها بالوضوء ؛ ولكنها تحولت فى زمنه إلى مواخير ؛ لإهمال الحكام شئون الحسبة . فمنع الحاكم دخول الناس إليها عرايا بدون مئزر ، ومنع اختلاط الرجال والنساء فيها ؛ فهوجمت وأُخذ من كانوا بغير مآذر وأدبوا[١١١] . ومع ذلك ، لم يكن الحاكم أول من فعل ذلك ؛ فالفقهاء من قبل وضعوا قيوداً لدخول الحمامات ، ونظموها ، وجعلوا بعضها للرجال ، وبعضها للنساء .

وقد ضرب الحاكم بيد من حديد على العناصر الفاسدة فى مملكته ، ووضع حداً للهو . فأصدر أوامره بإزالة المواضع التى كانت لأهل الفساد والفجور فى مملكته[١١٢] ؛ كما تتبع النساء العابثات ، واستقصى أحوالهن ، وجهز عجائز يطفن البيوت ، يستعلمن عنهن[١١٣] . ومنع الغناء وأحرق آلاته ، وكاد ينفى المغنين وغيرهم من أصحاب الملاهى ، لولا أنهم تعهدوا بألا يعودوا إلى مهنتهم ؛ فتركهم أحراراً[١١٤] . وكذلك منع الناس من الجلوس فى المقاهى « والحوانيت » ؛ ليشربوا فيها الخمر[١١٥] ، أو خروجهم للصحراء للرقص والغناء على عادتهم ، ومنع لعب الشطرنج[١١٦] . فكأنه كان شديد الرغبة فى أن يتحول شعبه عن اللهوكاية ، إلى العمل النافع ؛ وهذه عقلية سبقت عصرها ولا ريب .

وفوق ذلك ، نسمع لأول مرة فى التاريخ عن إصدار أوامر ترمى إلى وضع حد لسفور النساء منعاً للفتنة ، مما يدل على حمية نادرة ، لا تقف عند

نسائه ، وإنما تشمل نساء رعاياه أيضاً . بيد أن أعداءه شوهوا حقيقة تصرفه نحو النساء أيضاً ، وأرجعوها إلى عقدة فى نفسه ، ناشئة عن شغفه بالنكاح[١١٧] ، مما يجعله يميل إلى تعذيبهن ؛ فكأنه سبق بتصرفه السادىزم « Sadisme » ، الذى عُرف بفرنسا . وكذلك رددوا كعادتهم بتهويل كبير روايات مبالغاً فيها عن تعذيبه للنساء ، منها : أنه مر يوماً بحمام بمصر للنساء ، فسمع به ضجيجهن ، فأمر بأن يُسد عليهن باب الحمام ، فسدّوه عليهن من وقته بالحجر ، حتى متن جميعهن فى الحمام ؛ كما أنه لغير سبب غَرّق بعضهن فى صناديق اتخذها لهن سمرت عليهن ، وثُقلت بحجارة وأُلقيت فى النيل[١١٨] . ولكننّا نرى تصرفه نحو النساء راجعاً على الخصوص إلى غلوهن فى الفساد ، وهو ما لم يكن يرضى عنه رجل متدين مثله ، فلا ننسى أن زمنه زمن عصور وسطى ، حيث نظام الحريم والجوارى . ومما ينفى عن الحاكم العقدة النفسية نحو النساء ، زهده فيهن ، بحيث أنه أخرج من قصره حظاياه وأمهات أولاده ، كما ذكرنا .

وقد كان تصرف الحاكم نحوهن متدرجاً — كما هو شأنه دائماً — مما يدل على أنه كان يريد لهن النصيحة أولاً ، صيانة لهن . ففى أول الأمر منعهن من الخروج فى الليل[١١٩] ، وكشف وجوههن وراء الجنائز ، وخروج النوائح بالطبل والزمر على الميت[١٢٠] . ولما لم يرتدعن ، أصدر أوامره بمنعهن من الخروج نهائياً ، وليعوقهن عن ذلك منع الخفافين من عمل الأخفاف لهن ؛ كما منعهن من النظر من الطاقات أو الأسطح ، وقد استمر منعهن من ٤٠٤/١٠١٣ ، إلى وقت خلافة الظاهر فى ٤١١/١٠٢٠ ؛ أى حوالى سبع سنوات[١٢١] . وقد شكت النساء اللاتى لارجال لهن ، فأمر الحاكم الباعة أن يحملوا كل ما يباع فى الأسواق إلى الدروب ، وأمر من يبيع لهن

أن يكون معه شبه المغرفة بساعد طويل ، يمده إلى المرأة وهو من وراء الباب ، وفيها ما تشتريه ، فإذا رضيته وضعت الثمن فى المغرفة ، وأخذت ما فيها ، لئلا يراها[١٢٢] . ومع ذلك لم يكن منعه النساء من الخروج كلية ؛ فإذا دعت الضرورة إلى حضور قابلة لمن تلد ، أو غاسلة لمن تموت ، أو رغبت امرأة فى السفر ، وتضطر إلى الخروج من منزلها ، استأذن فى ذلك ، برفع رقعة إليه ، فيوقع على ظهرها بخطه إلى صاحب الشرطة[١٢٣] . فكانت المرأة التى تخرج بغير اذن تؤدب عن طريق صاحب الشرطة[١٢٤] ؛ مما جعل النساء يلزمن حدودهن فى زمنه .

وفى عهد الحاكم ، كانت مراقبة أهل الذمة ، ضمن واجبات الحسبة ، لإظهار ما فى الإسلام من العزة . ومنذ عمر بن الخطاب ، الذى وضع لأهل الذمه شروطاً ، تنظم تصرفاتهم فى المجتمع الإسلامى ، عُرفت بالشروط العمّرية ، لم يكن أغلب حكام المسلمين يلجأون إلى هذه الشروط ، إلا فى حالات الاضطهاد والحروب . لذلك أعتبر أهل الذمة رجوع الحاكم إلى هذه الشروط ، وزيادته عليها[١٢٥] ، امتحاناً لهم من قبل الله ، يذكرهم بما عانوه فى عهود الاضطهاد السابقة[١٢٦] .

وأكبر الظن أن رجوع الحاكم إلى الشروط العمّرية ، يرجع إلى أن أهل الذمة كانوا قد اشتد بأسهم بين المسلمين ، منذ أن تمكنوا فى الدولة الفاطمية أيام العزيز[١٢٧] . وقد نسب إلى الحاكم أفعال ظالمة كثيرة ، نحو أهل الذمة ، مع أنها من أفعال رعاياه المسلمين المتعصبين ، وهو برىء منها . ولا ريب ، فى ذلك الوقت ، كان الشعب المصرى فى فترة قلق ، يغير دينه من النصرانية ويتحول إلى الإسلام . فينقل المؤرخون ديالوجاً بين مصرى

أسلم ، وآخر لم يُسلم ، فمن قولهله : « أكسر الصليب ، وادخل فى الدين الواسع» ، كما أن المسلمين كانوا يهينون النصارى ويشتمونهم ، ويبصقون فى وجوههم[١٢٨] . وعلى النقيض ، كان الحاكم ينكر كثيراً من أفعال المسلمين المتعصبين ضد رعاياه من أهل الذمة[١٢٩] .

ومع ذلك ، فإننا نلاحظ أن الحاكم كان أشد وطأة على القبط الملكانية دون بقية أهل الذمة . فنعرف أن القبط فى مصر طوائف مختلفة ، منها[١٣٠] : الملكانية على مذهب بيزنطة (الروم) ، ولذلك كانت تعرف باسم ملكانية الروم أيضاً[١٣١] ، والنسطورية واليعقوبية ، وكلاهما له كنيسة مستقلة عن بيزنطة ، لا سيما اليعقوبية أو الأرثوذكسية ملة غالبية قبط مصر ، التى ظهرت لها كنيسة مستقلة منذ عهد جستنيان . ومع أن المعز لم يتعصب لطائفة من القبط على أخرى إلا أن نفوذ الملكانية كان قد ازداد فى عهد العزيز ؛ بسبب زواجه من نصرانية ملكانية ، أنجبت له سيدة الملك أخت الحاكم ، بحيث أن العزيز عيّن أخويها فى أعلى مناصب الكنيسة : فعين أريستس بطريركاً على بيت المقدس ، والآخر أرسانيوس (أساميس أو أرسانى) ، بطريركاً على القاهرة ومصر . ومنذ ذلك الوقت واستبدت طائفة الملكانية فى البلاد ، وحتى بطائفة الأرثوذكس المسيحية[١٣٢] . وربما كانت وطأة الحاكم على طائفة الملكانية بالذات ، بسبب الحروب الشديدة بين الفاطميين والروم ، وربما لرغبته فى إبعاد الظن بمحاباتها ، بسبب قرابة اخته سيدة الملك .

على العموم قام الحاكم بتنفيذ الشروط العمرية مع أهل الذمة ، وإن استثنى منهم الخيابرة[١٣٣] ، وهم يهود أصلهم من خيبر وما يجاورها — الذين كان عمر نقلهم من الجزيرة إلى مصر — وذلك جرياً على السنة الأولى منذ أيام النبى . فأصدر الحاكم الأمر إلى أهل الذمة بالتميّز عن المسلمين بعلامات

خاصة عرفت بالغيار[١٣٤] ، بوضع زنانير ملونة جلها أسود حول أوساطهم ، ولبس العمائم السود على رءوسهم ، وتلفيعات سوداء « طيالس » — وذلك لأن اللون الأسود هو شعار أعدائهم العباسيين — وجعل القبط يحملون صلباناً واليهود يحملون الخشب إشارة إلى رأس العجل ، ومنعهم من ركوب الخيل ، وركوب البغال والحمير ، بركب من خشب وسروج ولجم من سير سود غير محلاة بفضة ، وأمرهم أن يتميزوا فى الحمامات عن المسلمين ، ثم أفرد لهم الحمامات على حدة . ولكن أهل الذمة فى أغلبهم نزعوا الغيار ، وتشبهوا بالمسلمين ؛ حتى لا يُعرفوا[١٣٥] .

كذلك راقب الحاكم مسلك أهل الذمة فى أعيادهم ؛ التى جروا على الاحتفال بها ، منذ زمن ولاة العباسيين . فقد كان الولاة العباسيون يطلقون لأهل الذمة حرية الاحتفال بأعيادهم ، ويحضرون بعضها بأنفسهم ؛ مثلما فعل الأخشيد محمد بن طغج فى ٣٣٠ / ٩٤١ ، الذى حضر عيد الغطاس — وهو ذكرى تعميد المسيح بفلسطين — وأمر بإسراج ألف مشعل على شاطىء النيل[١٣٦] . ولما جاء المعزّ ألغى الاحتفال بأعياد أهل الذمة ، فألغى احتفال الغطاس والنوروز (النيروز) — عيد رأس السنة القبطية — وهدد بالشنق من يخالف أمره[١٣٧] ، ربما إرضاءً للمتعصبين من المسلمين . ولكن فى عهد العزيز ، الذى تزوج من نصرانية ، عاد النصارى إلى الاحتفال بأعيادهم بحرية ، كما سُمح للمسلمين بمشاركتهم فرحهم فيها ، وكانت الدولة تطلق المأكولات والملابس للموظفين من أهل الذمة والمسلمين ؛ زيادة فى الابتهاج . وقد انتهز أهل الذمة هذه الحرية ، فأظهروا شعائرهم بطريقة صارخة ، ففى ليلة الغطاس أو ما يعرف أيضاً بليلة الحميم ؛ كان القبط الملكانية ، يخرجون من كنيستهم ، ويسيرون فى الشوارع

يقرأون بتلحينات ومعهم الصلبان المشهورة، والشموع الموقدة، فإذا وصل الموكب إلى شاطىء النيل، الذى أسرج بالمشاعل، صلّبوا وقدسوا، ووقف الأسقف وخطب بالعربى فى هذه الذكرى، ودعا للسلطان. ثم بعد ذلك، يغطس القبط فى النيل، حتى يتطهروا ويبعدوا عنهم المرض، وكان المسلمون يغطسون معهم، وتكثر الزوارق، ويبالغ الناس فى المأكل والمشرب، والعزف والقصف. وقد كان لأهل المذاهب المسيحية الأخرى فى هذا العيد وغيره شأن كبير، على حسب ملاحظة يحيى الأنطاكى. فنجد الحاكم يُخرج رئيس شرطته فى موكب كبير، وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون والنصارى، كما كان يحضر بنفسه ليتأكد من تنفيذ أوامره[١٣٨].

ولكن الحاكم غضب على أهل الذمة، لرفضهم إطاعة أوامره بلبس الغيار، وتشبههم بالمسلمين[١٣٩]. فنادى بينهم أن يلتزموا بما أمر، أو يسلموا، أو يخرجوا عن مملكته، وخيّرهم فى الهجرة إلى بلاد الروم أو الحبش أو النوبة[١٤٠]، فكان ما أمر به أشبه بما كان ينادى به قواد الفتوح فى العصر الإسلامى الأول. وزاد الحاكم غضباً من أهل الذمة، أن نصارى كنيسة القيامة أو قمامة، التى دفن بها المسيح ببيت المقدس، عملوا على فتنة المسلمين عن دينهم: فقد كانوا أثناء صلاتهم، وترديدهم كير يا ليسون Kyrie elison، يطلقون فى السماء ناراً مخبأة، ويعطونها عطراً خاصاً، مظهرين أنها نور ينزل من السماء، لكى يقنعوا الناس بحقيقة دينهم[١٤١]. ولما كان الحاكم لا يملك نفسه إذا غضب[١٤٢]، اتخذ نحو أهل الذمة، قوانين صارمة لم تعرف قبلاً، خاصة منذ حوالى سنة ٤٠٠ / ١٠١٠، واستمرت إلى آخر حكمه، فزاد بها على الشروط العمّرية.

فجعل النصارى يحملون صلباناً ثقيلة: فبعد أن كانت طولها شبراً، جعلها

ذراعاً ونصفاً ، زنتها خمسة أرطال ، وختمها بالرصاص ، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنار ويحملون الخشب الثقيل . كذلك منع النصارى من تقديم النبيذ فى قرابينهم ، وصاروا يقربون عوضاً عن الخمر ماء ، قد نقع فيه زبيب أو عود الكرم . ثم أمر النصارى بألا يُظهروا صليباً أو يدقوا ناقوساً ، ونُزعت الصلبان والنواقيس ؛ بل أمر بأن يمحو الناس الصلبان المرسومة على أيدى الناس وسواعدهم[١٤٣] ، كما منع أهل الذمة من التظاهر بالأعياد[١٤٤]. وفوق ذلك ، منع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة أو الحبشة ، أو حتى مكاتبة ملوكهما ؛ حتى بلغ من قلة أساقفة هذه البلاد ، أن قفلت كنائسها أبوابها[١٤٥] .

وأكثر من ذلك ، أمر بهدم الكنائس والبيع والأديرة فى مصر وذلك منذ سنة ٤٠٣ / ١٠١٢[١٤٦] ؛ وصادر أملاكها التى كانت عبارة عن ضياع ومزارع وقياسر وحمامات وحوانيت ونخيل وبساتين وشجر مثمر[١٤٧] وكان يبنى موضع بعض الكنائس مساجد ، كما أسكن المسلمين بيوت الرهبان[١٤٨] . وفى الوقت نفسه احتاط على كل ما وجده فى الكنائس والأديرة ، وجعله ملك الدولة « الديوان » ، أو باع بعضه لقلة الأموال وكثرة الحروب[١٤٩] ، كما وهب كثيراً منه لعسكره . ويبدو أن العوام المسلمين ، انتهزوا هذه الأوامر ، فكانوا يأتون بأمور فظيعة لم تشاهد من قبل ، مثل أنهم كانوا يدخلون الأديرة ومقابر النصارى ، ويأخذون توابيت الموتى ، ويحرقون الكتب فيها ، ولكن الحاكم أنكر فعل ذلك ، وأمر بالكف عنه[١٥٠] .

أما خارج مصر فى أنحاء مملكته ، فلا يبدو أنه هدم كنائسها وبيعها ، فيما عدا كنيسة القيامة المقدسة ، التى يحج إليها النصارى ، وكانت



أشبه بالكعبة بالنسبة للمسلمين : فقد أصدر بخصوصها سجلاً إلى واليه على القدس ، كتبه أحد قبط مصر ، جاء فيه : « أمر الإمامة إليك بهدم قمامة ، فاجعل سماءها أرضاً ، وطولها عرضاً » ، فهدمت ، وإن بقيت بعض أجزائها وقد تعذر هدمها[١٥١] . وهذه الكنيسة قد يكون هدمها ، بسبب أن ملك الروم هدم جامع القسطنطينية ، وهو الذى لن يعاد بناءه إلا فى عهد الظاهر ، خلف الحاكم[١٥٢] . أما بقية الكنائس ، فلدينا سجل بمنحها الأمان ، حتى فى بيت المقدس نفسه[١٥٣] ، كما أنه لم يصادر غير أوقاف كنائس مصر وحدها ، وهى التى جعلها باسمه[١٥٤] .

وقد بولغ فى عدد ما هدمه الحاكم من كنائس وأديرة ، مثلما يذكر ابن تغرى بردى ، بأنه لم يبق فى مملكته دير ولا كنيسة إلا هدمها[١٥٥] . وعلى النقيض ، يقول المقريزى إن الحاكم لم يهدم غير كنائس وأديرة ملكانية — للروم — بلغ عددها ثلاثين ألف ، إلى آخر سنة ٤٠٥ / ١٠١٥[١٥٦] . ومع ذلك ، فقد نجا من الكنائس والأديرة عدد كبير ، مثل دير طور سيناء الملكانى الذى تمكن شيخه من حفظه بالحيلة[١٥٧] ، كما تذكر وثيقة مخطوطة بالفاتيكان عن كنائس وأديرة لم تهدم بالصعيد[١٥٨] . ولا شك فى أن الحاكم ، لم يهدم كل الكنائس ؛ خوفاً على المساجد التى فى بلاد النصارى ، لا سيما فى الحبشة والنوبة[١٥٩] ؛ اللذين كانا بهما عدد كبير من المسلمين .

ومما يؤيد أن الحاكم لم يكن ينظر إلا للمبادىء وحدها ، أنه لما سمع بأن بعض النصارى يتسللون سراً عن البلاد ، ويبذلون المال إلى أصحاب المراكز والطرق ، حتى يطلقوهم ، فإنه لم يرض أن تكون هجرة هؤلاء النصارى إلا باختيارهم ، فأصدر سجلاً إلى سائر عماله فى أن تكون هجرتهم

بأهلهم وأموالهم وما تحويه أيديهم ، والتصرف فى ذلك على حسب اختيارهم ، من غير إكراه . فانتقل جماعة من النصارى بالشام ومصر ؛ ولا سيما من الملكانية الذين صب الحاكم عليهم جام غضبه ؛ بعد أن باعوا أملاكهم ، فلم يعترض عليهم الحاكم ، ولا فتش عليهم(١٦٠) . وعلى النقيض أجبر الحاكم جماعة من الروم (اليونان) على الهجرة ، وقد كانوا يعملون فى قصره أو فى جيشه ؛ حتى كانت لهم حارة خاصة بهم تعرف بحارة الروم ؛ وكان من قبل قد أخرجهم من حارتهم ، وهدم منازلهم وكنائسهم(١٦١) . فمن المؤكد أن الحاكم أراد أن يتخلص من هؤلاء ؛ بسبب العداء القائم بين الروم والمسلمين .

وقد وصلتنا روايات عن تعذيب الحاكم لأهل الذمة بقصد تحويلهم إلى الإسلام ، معظمها صادر عن كتب نصرانية ؛ همها أن تظهر النصارى بمظهر الشهداء ، دون أن تبرز الحقيقة . فنحن لا نرى أن قسوة الحاكم مع كتاب القبط فى دواوينه — حتى أنه ضرب أحد مقدميهم ألف سوط إلى أن مات ، وبعد موته مائة ألف سوط(١٦٢) — كانت بقصد تحويلهم إلى الإسلام ، بقدر ما ترجع إلى سوء تصرف القبط فى الدواوين ، واستبدادهم بالمسلمين ؛ ومما ينفى عن الحاكم قصده تحويلهم إلى الإسلام ، هو بقاء القبط يعملون فى الدواوين وفى قصره طول عهده ، محتفظين بديانتهم ، ويمنحون الألقاب مثل المسلمين(١٦٣) . أما عن اليهود ، فقد وردت عنهم روايات مضطربة : فإحداها تقول إنه أفرد لهم حارة زُوَيْلة — على اسم بلدة أو قبيلة مغربية — وأمرهم أن يسكنوها ، ولا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم ، ولما أصدر أوامره بلبس الغيار ، أو الإسلام أو الهجرة ؛ فإنهم أسلموا ولم يمسهم بسوء(١٦٤) . ولكن رواية أخرى تقول : إنه أسكنهم

فى حارة اسمها الجودرية — على اسم جوذر خادم المهدى — ثم أحرقهم فيها ليلاً ، بسبب أنهم كانوا يهزأون بالمسلمين[١٦٥] .

وفوق ذلك ، نقلت إلينا الكتب النصرانية روايات غير واضحة عن اضطهاد الحاكم لرؤساء الملكانية واليعقوبية . فمثلاً بشأن أرسانيوس بطريرك القبط الملكانية ، وخال سيدة الملك أخت الحاكم ، فإن الرواية تقول باقتضاب إنه قُتل سراً ، دون أن يثبت أن الحاكم قاتله ، وقد بقى منصب بطريرك الملكانية شاغراً طول عهد الحاكم[١٦٦] . أما بشأن زخاريوس — زخريس — البطريرك الرابع والستين من بطاركة القبط اليعقوبيين . فإن الرواية تبين أن اعتقال الحاكم له ، لم يكن بقصد تحويله إلى الإسلام ، وإنما بناء على تحريض راهب اسمه يونس ، أراد أن ينال إحدى الأسقفيات ، وكان هذا البطريرك رفضها له ، فقابل يونس الحاكم وحرضه على البطريرك ، بقوله : «أنت ملك الأرض ، ولكن النصارى ملك لا يعبأ بك لكثرة ما قد اكتنزه من الأموال الجزيلة » . فغضب الحاكم على البطريرك اليعقوبى ، ورماه فى السجن ، وكان يلقى به إلى السباع ، ولكنها فى كل مرة ارتدت عنه وهى هادئة ، فكان الراهب يدخل على البطريرك فى سجنه ويتشفى فيه ، كما أن سجيناً مسلماً كان يحض البطريرك على الإسلام . وبعد ثلاثة شهور ، أطلق الحاكم سراح البطريرك بناء على تدخل أحد الأعراب المقربين للحاكم ، فخرج البطريرك من سجنه ، وعاش فى أحد أديرة الصعيد ، وبقى فيه تسع سنوات[١٦٧] .

مهما يكن ، فإن الحاكم فى آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية ، واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار[١٦٨] ، وهى العلامة المميزة . فاصدر سجلات متفرقة ، يأمر فيها بإعادة بناء الكنائس ، ورد أوقافها[١٦٩] .

كذلك أُعيد بناء كنيسة القيامة المقدسة[١٧٠] ، وإن قيل إن ابنه الظاهر هو الذى وافق على ترميمها ، بناء على معاهدة وقعها مع قسطنطين الثامن ملك الروم[١٧١] ، أو أن حفيده المستنصر هو الذى أعاد بناءها ، بعد أن عرض عليه ملك الروم رومانوس ، أن يطلق خمسة آلاف أسير نصرانى ، لقاء بنائها[١٧٢] . ولما قال للحاكم الذين أسلموا من أهل الذمة ، أن دخولهم فى الدين الإسلامى لم يكن عن إيمان ، وخيروه بين أن يقتلهم أو يرجعوا إلى دينهم ، سمح لهم الحاكم بالرجوع إلى دينهم ، على أن يلتزموا بلبس الغيار[١٧٣] ، بحيث أنه ارتد منهم فى يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى إلى دينهم[١٧٤] ، كما ارتد قبط كانوا تظاهروا بالإسلام سبع سنوات[١٧٥] . وقد أصدر الحاكم سجلاً هاماً عليه علامته ، يطمئن فيه أهل الذمة بحمايته لهم ، ما داموا قد التزموا بأوامره ، ولأهمية السجل ، نورده بنصه[١٧٦] .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى علىّ ، الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر ؛ عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فأقلقهم ، واستذراءهم بظل الدولة ، وتحرّمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة ، وإجابتهم إلى ماسألوا فيه من كتب أمان لهم يخلّد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب سلام الله عليه ،

وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم ؛ هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم ، وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أماناً صريحاً ثابتاً ، وعقداً صحيحاً باقياً ، فثقوا به واسكنوا إليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يُقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول إليكم بمضرة يدٌ إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مُقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقاً فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومد له وسيلة الثواء فى كنف دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيداً ، وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم ، إن شاء الله .

وكتب فى شعبان إحدى عشرة وأربعمائة » .

وأكبر الظن أن سبب تراجع الحاكم عما زاده على الشروط العمرية لأهل الذمة ، هو أنه قد اكتفى بما لقنهم إياه من ضرورة الالتزام بأوامره ؛ وذلك كما يظهر من سجله ، وأنه لم يعد فى حاجة إلى مزيد . ولكن تراجعه قد يكون أيضاً بسبب تذمر ممالك النصرانية المحيطة ببلاده من تصرفه نحو أهل الذمة ، بحيث أن ملك الحبشة كان يتراسل مع ملك النوبة بشأن قبط مصر (١٧٧) ، كما أن هدم كنيسة القيامة أثار ثائرة الروم ، ونصارى الفرنج (الاوربيون) ، وهددوا بالحرب المقدسة ، حتى أنه فى ذلك الوقت اتحد ملك البُلغار مع الروم فى سنة ١٠١٧/٤٠٨ ، مع عداوتهما الشديدة قبلاً (١٧٨) ؛ وذلك مما هدد الحاكم بخطر جلل . كذلك قد يكون تراجعه لخوفه من أن تساء معاملة المسلمين فى البلاد النصرانية ؛ حتى أن ملك الحبشة كان يجعل مسلمى بلاده يدفعون الجزية ، ويضع حول أعناقهم الحديد وعليه ختم

الملك . فكان الحاكم إذا حضر كتاب من ملك الحبشة أو النوبة ، تقدم إلى البطريرك بمكاتبتهما بما للنصارى عليه من الجلالة والإكرام فى بلاده ، ويدعوهما بأن يستوصيا بالمسلمين تحت رعايتهما[١٧٩] . أما مؤرخو النصارى، فإنهم وجدوا أن تراجع الحاكم حدث بعد مقابلة تمت بينه وبين البطريرك الأرثوذكسى وأساقفته[١٨٠] ، واعتبروه من آيات الله المعجزة ، وعجائبه الباهرة[١٨١] .

وعلى النقيض وجد مؤرخو السنة وغيرهم فى رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الذمة ، دلالة على مروقه عن الإسلام : فقد سمح لمن أسلم من أهل الذمة بالارتداد ، مع أن ذلك عقابه القتل . ولكن الحاكم يرد على ذلك بقوله : « ننزه مساجدنا عن أن يدخلها من لا نية له فى الإسلام »[١٨٢]. لا سيما وأن بعض من أسلم لم يكن اطلاقاً عن إيمان ، فقد وجد منهم من يشارك النصارى فى الصلاة والتقديس وأخذ القربان[١٨٣] . ومن بعده خلفه الظاهر ، فكان يسمح هو الآخر لمن أظهر الإسلام دون رغبة أن يعود إلى النصرانية ، فرجع كثير منهم إليها[١٨٤] . كذلك كان الحاكم يرى إعادة الكنائس للنصارى ، مع أن غيره لا يجوز اعادتها ولو هدمت بغير وجه حق كما يقول السيوطى[١٨٥] ، فلأن الحاكم نظر إلى الأمور نظرة واقعية ، فقد كان القبط يكونون وقتئذ ثلث سكان مصر .

*

وحدث فجأة فتق كبير فى المذهب الفاطمى فى آخر سنى حكم الحاكم ، هدد كيان المذهب بالإنهيار ، وجعل الحاكم لا يهتم بأى شىء فى الدولة غير رتق هذا الفتق . وقد أعتبرت هذه الفترة من تاريخ المذهب عصيبة ، أو ما اصطلح على تسميته « بالمحنة[١٨٦] » ، وهى كلمة تعنى حدوث اختلاف فى عقائد فرقة دينية إسلامية[١٨٧] . وقد سبق حدوث اضطراب فى المذهب

ولـكن ما حدث فى عهد الحاكم لم يعرف له مثيل من قبل ؛ إذ لم يقف أثره عند الدعاة ، بل امتد إلى الرعية .

فنعرف أن الشيعة تعتقد أن الإمامه منصب إلهى كالنبوة ، فـكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، كذلك يختار من يشاء للإمامة ، ومع أن الإمام لا يوحى إليه إلا أنه يتلقى التسديد الإلهى ، إذ هو وارث العلم اللدنى . فكان الإمام فى نظر الشيعة فى مرتبة دون النبي وفوق البشر[١٨٨] ، ولذا أُعتبر معصوماً عن الكبائر والصغائر ، وإلا زالت الثقة فيـه[١٨٩] . فـكان الاضطراب المذهبي يأتى غالباً من الغلو فى عصمة الإمام ، والخروج بمرتبته عن هذه الدرجة الوسطى بين النبوة والبشر .

وقد كانت تقوى الحاكم البالغة ، وقيامه فى الدعوة الفاطمية بما لم يقم به أحد من قبله ، وعمله على إنجاحها ، مما جعل أتباعه يبالغون فى تقديرهم لشخصه . فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب تبين أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة ، وإنما بشرت به الأنبياء ، وأشير إليه بالرمز فى التوراة على أنه الزاهد الراكب الحمار ، ليأتى بهذه الأعمال الباهرة[١٩٠] . وزاد الطين بلة أن الغلو فى ذات الحاكم ، وصل إلى حد التأليه ، وأن الغلو جاء من بعض المقربين إليه ، بحيث انفرط عقد مبادىء المذهب ، واختلطت عقائده . ويعبر أحد الدعاة عن هذه الحالة فى زمن الحاكم ، بقوله[١٩١] : « فغلا فيه صلى الله عليه من غلا ، وسفل بذلك من حيث ظن أنه علا ، ووقع فى أهل الدعوة والمملكة الاختباط ، وكثر الزيغ والاختلاط » .

فمن غلا فى ذات الحاكم رجـــل فارسى اسمه حسن (أو الحسن) ابن حيدرة الفرغانى ، المعروف بالأخرم[١٩٢] ، وهى كلمة تعنى من قطع وتر أنفه أو طرفها ، أو المثقوب الأذن ، وإن كان يبدو أن الفرغانى كان أجدع

الأنف ، بدليل تسميته بالأجدع . وينقل المؤرخون أن الفرغاني يرى أن المعبود هو الحاكم ، ويدعو إلى إبطال النبوة ، فأسقط اسم الله ، واسم النبي واعتبر التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشوراً . وفي يوم جاء في خمسين رجلاً من أصحابه إلى الجامع ، الذي كان فيه قاضي القضاة ابن أبي العوّام ، فدخلوا فيه راكبين ، وأخذوا أموال الناس وثيابهم ، وسلموا لابن أبي العوام رقعة ليقرأها الناس ، وقد بدأت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . فرفع القاضي صوته مُنكراً وهجم الناس بالأخرم ، وقتلوا أصحابه . أما الأخرم نفسه فهرب أو قتل . وقد أُختلف في وقت ظهور الأخرم ، فقيل في سنة ١٠١٨/٤٠٩ ، وربما يكون قبل ذلك في ١٠١٧/٤٠٨ ، وهي السنة التي جاء فيها داعٍ آخر اسمه الكرماني ، استدعاه الحاكم للرد على غُلواء الأخرم .

وكذلك ظهر داعية آخر ، اسمه محمد بن اسماعيل في ١٠١٧/٤٠٨ ، أو قبل ذلك ، يبدو أنه أعجمي فارسي ، أو ربما تركي بدليل أن اسمه أنوشتكين او هشتكين ، وإن لقب بالدُّرْزي ، التي لا يعرف لها أصل(١٩٣) . وهذا الداعية قرّبه الحاكم في أول الأمر ، حتى عُرفْ على أنه غلام للحاكم ، وارتفع مركزه في الدولة ، فكان القواد والعلماء يقفون على بابه ، ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده . وينقل المؤرخون أن الدرزي كان يؤمن بالتجسيم ، ويرى أن روح آدم جاءت عليّاً ، وأن روح عليّ انتقلت إلى أبي الحاكم ، ثم انتقلت إلى الحاكم ، ودعا الناس إلى أن يعتقدوا أن الحاكم الإله الذي صنع العوالم ، وصنف كتاباً شبهه بالقرآن سماه : الدستور(١٩٤) . وقد جعل الدرزي له أتباعا عرفوا بالدرزية(١٩٥) ، بلغ عددهم ستة عشر ألفاً ، كانوا يأتون بأمور مبتذلة ، مثل تلطيخ القبلة ، والبول على

مصاحف القرآن . وقد اختلف فى نهاية الدرزى ، وخلط بينه وبين الأخرم ، فبينما تقول رواية إنه قتل وجماعة من الدرزية على يد الأتراك وهو فى موكب الحاكم ؛ وأنهم لم يقتلوه بسبب اعتقاده ، وإنما لأنه كان قد نصح الحاكم بإزالة الألقاب التى كانوا يتباهون بها ، تقول رواية ثانية إنه هرب إلى الشام ونشر دعوته فيها ، وتقول ثالثة ، إنه قتل فى إحدى المعارك فى سنة ٤١٠/١٠١٩(١٩٦) .

وأدهى من ذلك أن هذا الاختلاف فى شأن الحاكم لم يقف عند بعض أتباع المذهب ، بل امتد إلى عامة الناس . فقد كان مجىء الحاكم بسيرته المثالية ، التى لم يسمع لها مثيل منذ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، ربما جعلت الناس يعتقدون ان الحاكم قد يكون المسيح ، الذى يأتى فى آخر الزمان لإقامة العدل ، ومثل هذه المعتقدات كانت منتشرة بين المسلمين وقتئذ . يضاف إلى ذلك ، أن شخصية الحاكم كانت مؤثرة ؛ بشكله المتصوف ، وصوته الجهير ، وجسمه الفارع ؛ بحيث أن جماعة يتعمدون لقاءه فى أمور تضطرهم إلى ذلك ؛ فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلاً(١٩٧) . فكان جهال الناس وأوباشهم إذا لقوا الحاكم ، سجدوا أمامه ، وقالوا له : « السلام عليك ياواحد يا أحد ، يامحيي يامميت » . وكان النصرانى أو اليهودى إذا لقيه يقول : « إلهى قد رغبت فى شريعتى الأولى » ؛ فيقول الحاكم — بقول المؤرخين — : « افعل مابدالك » ؛ فيرتد عن الإسلام(١٩٨) . كما أن بعض المسلمين كانوا يشتمون الحاكم ويكفرونه ونسبوا إليه إدعاءه الألوهية ؛ بحيث يقول يحيي إنه أحرق مصر بسبب شتيمة الناس له(١٩٩) .

وزاد فى الطنبور نغمة ، أن أعداء الفاطميين ، وجـــدوا فى هذا الاضطراب المذهبى فرصة لإثبات إدعاء الحاكم الألوهية ؛ بقصد التشهير به والقضاء على دولته . فقالوا إن مصر لم تر فرعوناً شراً من الحاكم ، رام أن

يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون ؛ وإنه أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره واحتراماً لإسمه ، فكان يفعل ذلك فى سائر مملكته ، حتى فى الحرمين الشريفين[٢٠٠] . ويؤكدون أن الحاكم نفسه ، هو الذى طلب من الأخرم إعلان الربوبية له ، وأنه لما قتل الأخرم كفنه بأكفان القصر ، ودفنه فى حفل رسمى ؛ وإن كان الناس نبشوا قبر الأخرم[٢٠١]. وكذلك لما أعلن الدرزى الألوهية للحاكم ، لم ينكر الحاكم عليه فعله ، بل أحسن إليه وشكره[٢٠٢] ، وطلب منه أن يدعو إلى ألوهيته عن طريق الرقاع ؛ وأن الحاكم هو الذى مهد للدرزى الهروب ، وكان يمده بالأموال سراً ، لنشر الدعوة إلى ألوهيته ؛ فقال له : « اخرج إلى الشام ، وانشر الدعوة فى الجبال ؛ فإن أهلها سريعو الانقياد » ؛ فخرج الدرزى إلى الشام ، ونزل وادى تيم ، واستمال أهله ، وقرر فى نفوسهم التناسخ ، وأباح لهم شرب الخمر والزناء ، وإباحة دم مخالفيهم[٢٠٣] ؛ أو أن الدرزى قتل فى مصر ، فقبض الحاكم على قاتله التركى وقتله ، وإن تظاهر الحاكم بأنه عاقب التركى لسبب آخر ارتكبه[٢٠٤] . كما ذهب بعضهم إلى أن الحاكم ، كان يعبد الكواكب ، مثل جده المعزّ من قبل ؛ وخصوا عبادة الحاكم لزحل والمريخ[٢٠٥] .

ويبين مؤرخو السنة على الخصوص ، ميل الحاكم إلى التأله ؛ بنقلهم رواية عن أحد فقهاء الشافعة ، وإسمه الحافظ السِّلفى[٢٠٦] — وهو الذى تتلمذ على يده فيما بعد صلاح الدين ، الذى قضى على الدولة الفاطمية — أن الحاكم كان جالساً فى مجلس عام ، حفل بأعيان الدولة ، فقرأ بعض القراء : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يؤمنونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهمْ ، ثمّ لا يجدوا فى أنفُسِهِمْ حرجاً مِمَّا قَضيت ويُسلِّموا تسليماً ٤ : ٦٥ ﴾ ، والقارىء

فى أثناء ذلك كله يشير إلى الحاكم . فلما قرأ قارىء آخر اسمه ابن المشجر : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ ضُرب مثلٌ فاستمعُوا لهُ ، إن الَّذينَ تدعونَ من دون الله لن يَخلُقُوا ذُبَاباً ولو اجتمَعُوا لهُ ، وإن يَسْلُبْهُم الذُّبابُ شيئاً لا يَستنقذُوهُ مِنه ، ضَعُفَ الطَّالبُ والمَطْلُوبُ ، مَا قدرُوا الله حقَّ قدرهِ ؛ إنَّ الله لقوىٌّ عَزيز ٢٢ : ٧٣ — ٧٤ ﴾ . فلما انتهت قراءته تغير وجه الحاكم ؛ بحيث أن الناس نصحوا المقرىء بالخروج عن مصر ، فذهب إلى الحج ، وغرق فى الطريق .

وكذلك وافق أغلب العلماء الحديثين ، ممن اهتموا بالدراسات الفاطمية ، مثل : « de Sacy » و«عنان» ، و« Betty» ، على ماتناقله المؤرخون السابقون فى دعوى ألوهية الحاكم ، وأنه فى زايهم استمدها من عقائد الإسماعيلية . وحتى كامل حسين ، الذى حقق رسالة تنفى دعوى ألوهية الحاكم بعنوان : «الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، يميل هو الآخر إلى القول بأن الحاكم مال إلى تأليه نفسه غروراً وكبرا ، ولكن دون أن يستمد عقيدة التأليه من عقائد الإسماعيلية ، التى هى براء من ذلك[٢٠٧] .

وعلى النقيض من كل هذه الروايات المفتعلة ؛ فإن الحاكم لم يدع الإلوهية إطلاقاً ، وذلك بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخية ؛ فضلا عن أنه لم ينقل إلينا نص واحد ، أن الحاكم نفسه ، قال : إنه هو الإله . بل عظم الأمر على الحاكم[٢٠٨] ؛ ولكن المسألة — كما سنرى — شائكة ، ومعالجتها تحتاج إلى حذر متناه ؛ لتربص أعدائه به ، الذين هدفهم التشهير به ، بقصد اقتلاع دولته ، ولرغبته الملحة فى إنقاذ المذهب ودعاته ؛

وعودة الاحترام الذى فقده بسبب هذه الدعوى ؛ فأصبح النـاس إما ساخرين أو شاتمين .

وفى أول الأمر ، استخدم الحاكم الشدة وقتل دعاته الذين غالوا فيه أو لم يدفعوا عنه تهمة التأله(٢٠٩) . ويؤيد ذلك ماتداوله أيضاً مؤرخو السنة ، الذين قالوا إنه قتل العلماء(٢١٠) . كذلك كان يذهب لمجالس الدعوة ؛ويقرأ بنفسه على الشيعة فى كل أسبوع من علوم أهل البيت(٢١١) . وفوق ذلك ، كان يشرح المذهب لرعاياه المسلمين ، ويدفع عن المذهب الشيعى كل التباس لُصق به ، كلما أتيحت له الفرصة . ولدينا مثل واضح على ذلك(٢١٢) : ففى مرة كان الحاكم عند مسجد ، إذ سمع ضجة عظيمة وجلبة ، فطلب من بعض حرسه — الركابية — أن يعرفوا سببها . فعادوا وقالوا : « هم أهل اطفيح ، وهم مفترقون فريقين » فقال : «احضرهم» ، فأحضروهم ؛ فإذا فيهم أسود متعلق برجل قد ضيق عليه . فطلب الحاكم اطلاق الرجل فاطلقه ، وقال له : « من تكون » ، فقال : « أنا الخطيب باطفيح ، والرجل الآخر هو الداعى ، الذى أظهر فى بلادنا مالم نسمعه قط ، بأن أذن أن محمداً وعلياً خير البشر ، وما سمعنا بهذا الأذان من قبل ، وقد يجوز أن يكون محمد خير البشر ، ولا يجوز أن يكون علياً خير البشر ، لأن فى البشر آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، ولا يجوز أن يكون هو خيراً من هؤلاء الأنبياء أصحاب الشرائع ، . فأكد الحاكم للخطيب أن ما قاله الداعى ليس فى أصول الأذان ، وإن تمسك بأن علياً خير البشر مع محمد ، مدللاً على ذلك بأحاديث نبوية كثيرة وبالمنطق ، منها قول النبي : (أيها الناس ألا أخبركم بخير الناس أبا وأماً ، هما هذان الحسن والحسين ، أبوهما عليّ وصي أفضل الوصيين ، وأمهما فاطمة ابنتى أفضل نساء العالمين) ؛ وقوله : (ولداى هذان

سيدا شباب أهل الجنة) . واستطرد الحاكم قائلاً : « إن فى الجنة شباباً لا يهرمون منهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ فإذا كان الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة ، وأبوهما خير منهما ، فقد ثبت أن علياً خير البشر مع النبى » . فقال الخطيب : « آمنت بذلك وصدقت » ، ثم التفت الحاكم إلى الداعى ناصحاً إياه بالتريث دائماً فى نشر دعوته لآل البيت ، وقال له : « إذا دخلت مدينة أهلها عور ، فأردت السكنى معهم ، فغمض عينك الواحدة » .

ولكى يبعد الحاكم عن علوم أهل البيت كل شبهة ، ولما أذاعه الناس عنه وعن آبائه من إدعائهم علم الغيب[٢١٣] ، أمر ألا ينجم أحد ، ولا يتكلم فى صناعة النجوم . بل أمر بنفى المنجمين؛ إلا أنه لما أكدوا أنهم لن يشتغلوا بالتنجيم ، عقدت عليهم التوبة ، وأعفوا من النفى[٢١٤]. حقاً إن أئمة الفاطميين اهتموا بعلم التنجيم ؛ إلا أنهم لم ينظروا إليه — كما يظهر من كتبهم — إلا على أساس أنه علم مفيد ؛ لمعرفة الحساب والسنين والأوقات ، ووسيلة للاهتداء به فى البحر والبر . فقد عُرف عن الحاكم اهتمامه بهذا العلم ؛ بحيث اشترك مع عالم اسمه علىّ بن عبد الرحمن بن يونس المصرى فى عمل زيج فى الحساب وعلم النجوم ، عرف بزيج ابن يونس أو الحاكمى ، فاق الزيج الذى عمل بأمر المأمون العباسى ؛ فأصبح زيج الحاكم عمدة العلماء من المنجمين فى استخراج التقاويم والنبوءات الجوية ، ومعرفة الكسوف والحادثات . كذلك نُقل عن المعزّ قوله : « من نظر فى علم النجوم ليعلم عدد السنين والحساب ، ومواقيت الليل والنهار ، وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله عز وجل ، وما فى ذلك من الدليل على توحيده جلّ ذكره ولا شريك له ؛ فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم الغيب والقضاء بما يكون ، فقد أساء وأخطأ » .

وقوله : « إن أباه — المنصور — عانى من الحروب كثيراً ، فما كان ذلك باختيار من علوم النجوم ، ولا التفت إليه ، وإنما علم النجوم هو القدرة على خلق الله »(٢١٥) .

وقد دفع الغضب الحاكم إلى أن يعرض عن أهل دعوته ورجال دولته والناس جميعاً ، لتجاسرهم على مثل هذه الدعوى ، بألوهيته . فأمر ألا يدخل عليه في قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً أسماهم ، وأن يدخل الكتاب والقراءون — قراء القرآن — والأطباء والمؤذنون وخدام القصر ، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس(٢١٦). وكذلك ألغى ماجرى به الرسم من مواكب الصلاة في الجوامع في أيام الجمع من شهر رمضان وفي العيدين(٢١٧) . بل ألغى كل ما يتعلق بالمذهب من الاحتفال بأعياده ، مثل عيد الغدير ، وأبطل مجالس الدعوة العامة والخاصة ، وما كان يؤخذ لها من مال الخمس والزكاة والفطرة والنجاوى(٢١٨) . ولا ريب أنه في ذلك الوقت أيضاً ، ألغى كل مراسيم الحسبة الأخلاقية ، التي كانت تضع حداً لمجون الناس ، ومراقبة أهل الذمة بقصد إظهار عزة الإسلام ، كما لم يعد يهتم بمن ارتد من النصارى واليهود ، أو من تحول إلى المذهب أو بقي سنياً : فقرئت سجلات فيها يعلن كل واحد ما شاء من الاعتقاد(٢١٩) .

ويفسر الداعية إدريس تصرف الحاكم هذا ، ليتميز المؤمنون بالاخلاص ، ويبقى المنافقون في الحيرة(٢٢٠) . أما أعداء الفاطميين فقد فسروه على أنه دليل على مروق الحاكم عن الدين والمذهب ، فبقولهم إنه ألغى الصلاة والصوم وغيرهما من فرائض الدين(٢٢١) ، لاسيما وأن الحاكم كان قد أوقف أيضاً مواكب الحج ، وقطع حمل الكسوة عدة سنوات ، وكانت تجهز بعساكر ، وتحفر الآبار على طول الطريق ، وذلك بسبب هجمات

الأعراب[٢٢٢] . ولكن مؤرخاً منصفاً هو ابن خلدون — وهو سنى — يعترض على القول بأن الحاكم ألغى الصلاة وغيرها من فرائض الدين ؛ فيقول : « إنه زعم لا يقبله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته[٢٢٣] » .

ويبدو أنه فى وقت ما بلغ اليأس بالحاكم حداً كبيراً أمام دعوى تألهه ؛ فاعتزل الدنيا كلها ، لاسيما وأنه كان رجلاً متديناً إلى أبعد الحدود ، مما يدل على ما أحدثته هذه الدعوى من رد فعل قوى فى نفسه . فكان يجلس فى مكان مغلق لا يدخله عليه أحد يوقد بالشموع ليلاً ونهاراً ، أو يجلس فى الظلمة[٢٢٤] ، أو يخرج بمفرده هائماً فى الفلوات ، أو يذهب إلى جبل المقطم ، يقبع فوقه ، يتغوث إلى الله ويناجيه[٢٢٥] . ومن قبل ، اعتزل المعز — جد الحاكم — الناس ، بسبب اضطراب الدعاة ، وإن ذكر مؤرخو السنة أيضاً أن المعز اختفى فى سرداب ، وأنه كان مريضاً بمرض نفسى[٢٢٦] . وبلغ القلق بالحاكم إلى حد أنه ترك شعره إلى أن طال ، ونزل على أكتافه ، وأطلق أظافره ، وكان يلبس الكسوة الواحدة من الصوف المدة الطويلة ؛ إلى أن تتلبد وتنالها الرثاثة[٢٢٧] .

ولكن ما لبث الحاكم أن دفع اليأس ، وشمر عن ساق الجد فى سبيل إنقاذ المذهب ودعاته ، وأصبح ذلك شغله الشاغل ، ولم يعد يهتم بأى شيء غيره . ولكى يعيد الأمور إلى نصابها ، عمل على استدعاء رجال من أتباع المذهب ، موثوق فى عقيدتهم وتمذهبهم السليم ؛ لكى يساعدوه فى عودة الأمور إلى نصابها .

فكان أول من استخدمه لذلك ، رجل فارسى اسمه ختكين الضيف[٢٢٨] ،

الذى يُعتبر قطباً من أقطاب المذهب ، كان يعمل مع البويهيين الشيعيين بالعراق ، ثم هاجر إلى مصر ، ولذا لقب بالعضدى منتسبا إلى عضد الدولة البويهى ؛ الذى كان يعتقد فى إمامة الفاطميين . فعينه الحاكم داعية للدعاة ، ورد مجالس الدعوة إلى سالف الرسم ، بعد أن قطعت ثلاث سنوات من ٤٠٠/١٠٠٩ إلى ٤٠٣/١٠١٢ ، ومنحه لقب الصادق الأمين(٢٢٩) ، مما يدل على رغبة الحاكم الشديدة فى أن يبين ختكين صدق الدعوة الفاطمية ، وموقف الإمام منها . وقد بذل ختكين جهده فى تنوير الدعاة بحقيقة الدعوة ومنزلة الإمام الحاكم فيها ، فأرسل إلى المدينة يبحث عن كتب جعفر الصادق - جد أئمة الفاطميين - وإن قيل إن ذلك كان بأمر الحاكم فى سنة ٤١٠/١٠١٩ ؛ فوجدت فى دار جعفر كتب فيها كثير من علم الأئمة (٢٣٠) .

ولدينا نص صريح معاصر ، يوضح ظروف المحنة ، وأسباب مجىء ختكين هذا ، جاء فيه : « إن أبناء الدعوة الهادية بسط الله أنوارها ، لما عمّتهم المحنة بإمساك السماء عن المطر ، وملكتهم الحيرة بوقوف الأرض عن تربية البذر ، وشملهم الضر باستيلاء القحط ، وتداولتهم أسباب الخبط ، وعضتهم نواجذ الإمتحان ، وتنكرت لهم صروف الزمان ، فبهت أعقلهم ، وتحير أحلمهم ، وضعف رجاؤهم وأملهم ، فاستيأسوا ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وجاءهم نصر الله بمنظر وليّه وابن وليّه سلام الله عليه وعلى آبائه المطهرين - إليهم - رحمة لهم ؛ فأضاء لهم ما كان مظلماً ، وأنار لهم ما كان مستبهماً ، وكان ذلك اختياره سلام الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، من بينهم أصدقهم لهجة ، وأأداهم أمانة ، وأقومهم ديانة ، وأثبتهم فى الطاعة قدماً ، وأقدمهم فى الهجرة قِدماً ، ذلك ختكين الضيف ... »(٢٣١) .

وكذلك استقدم الحاكم داعية آخر هو أحمد بن عبد الله فى ٤٠٨/١٠١٧ ،

الملقب بحميد الدين الكرمانى(٢٣٢) ، نسبة إلى كرمان بإيران ، وهو يعتبر شيخ فلاسفة المذهب، ووصف على أنه حجة العراقين، أى فارس والعراق . وقد عينه الحاكم رئيساً لدار الحكمة ، دون أن يعينه رئيساً للدعوة ، لوجود ختكين المذكور . وقد بذل الكرمانى جهداً كبيراً فى سبيل تقويم ما اعوج من الدعوة(٢٣٣) ، وكتب فى ذلك رسائل عديدة ، بلغ عددها تسعاً وعشرين، وصلنا بعضها ، ولم يصلنا البعض الآخر . ففى رسالة مباسم البشارات(٢٣٤) ، يبين الكرمانى ظروف المحنة ، وسوء حالة الدعاة ، وظهور المنافقين ، وصدق إمامة الحاكم وحقيقتها ، وأن ماحدث هو بارادة الله لامتحان عباده . ولعل أهم وصلنا من الكرمانى هو الرد على دعوى الفرغانى الأجدع ، فى رسالته المشهورة ، بعنوان : « الرسالة الواعظة تجمع موعظة وأجوبة عن مسائل المــــارق فى الدين حسن الفرغانى الأجدع » ، حاول فيها الكرمانى بالمنطق وغيره أن يثبت عقيدة الاسماعيلية فى الله الذى لا إله إلا هو ، وإظهار الحاكم كشيعى مثالى ، يعبد الله ، ويساعد الناس على فهم دينهم . وها هو بعض ما جاء فى هذه الرسالة ، فيقول موجهاً الكلام للأخرم(٢٣٥) :

« وأما قول أصحابك : إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فقول كفر ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال ، هذا أن دعوا للإله المعبود غيراً ، فيا لجسارة على الله حين جعلوا له تعالى شريكاً ما أعظمها ، ويا لجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى ما أفظعها ، ولقد قالوا عظيما ، وافتروا إثماً مبينا ، وإن ذلك إلا كفر محض ، فما أمير المؤمنين عليه السلام إلا عبد لله خاضع ، وله طائع ، يسجد لوجهه الكريم ، ويعظمه غاية التعظيم ، وباسمه يستفتح ، وعليه فى أموره يتوكل ، وأمره

إليه يفوض ، والله تعالى قد فضّله على خلقه ، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه خليفة له فى أرضه ، ووسيلة لعباده إلى جنته ، وأوجب طاعته على عباده ، وهو سلام الله عليه ، يتبرأ إلى الله تعالى ممن يعتقد ذلك فيه ، وكيف يكون معبوداً وهو جسم ذو أبعاض مؤلفة ، ونفس ذات قوى مكلفة ، يأكل ويمشى ، وينام ويستيقظ ، وتنطوى عليه الأحوال المتضادة من رضا وسخط ، وغمّ ومسرة ، وسقم وصحة ، كغيره من البشر ، وهو سلام الله عليه ينفى ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه . كلا إن المعبود ليس إلا الإله الذى له يسجد أمير المؤمنين سلام الله عليه ، ويوحده ويسبحه ، وعن النعوت والصفات يقدسه ، وله سجد من النبيين والأوصياء ، والأئمة المتقين وتابعيهم ، وإياه يعبد وله يسجد من يخرج إلى الكون منهم ، مادام عقل ، وفاض عدل ، الذى خلق السموات بأفلاكها ، والنجوم بأنوارها ، والأركان بطبائعها ، والمواليد بأجناسها ﴿ لا تَسْجُدُوا للشمسِ ولا للقمرِ واسجُدوا لله الذى خَلَقَهُنَّ إن كنتُم إياهُ تَعبُدُونَ ٤١ : ٣٧ ﴾ .

وبعد ذلك ، اتخذ الحاكم خطوة جريئة فى سبيل انقاذ المذهب وأتباعه ، وذلك بالقيام بحركة إصلاحية فى عقائد المذهب نفسها ، مما أدى إلى ظهور مذهب جديد ، وجعل الحاكم من أصحاب النحل . وفى سبيل ذلك استعان بداعية فارسى ، كان قد هاجر إلى مصر ، اسمه حمزة بن علىّ بن أحمد[٢٣٠] ، الذى عرف باللبّاد ، ربما لأنه كان فى بدء أمره يشتغل بصناعة اللباد اى الجلد ، وإن اشتهر بالزوزنى ، نسبة إلى مقاطعة زُوزَن بفارس . وقد اختلف فى وقت ظهور حمزة ، فقيل فى اواخر سنة ٤٠٧ / ١٠١٦ أو أوائل سنة ١٠١٧/٤٠٨ ، أو حتى فى ١٠١٨/٤٠٩ أو ٤١٠ / ١٠١٩ ؛ مثلما أُختلف فى ظهور الدعاة الآخرين قبله .

ومع ذلك ، لم يعلن الحاكم بنفسه نشأة المذهب الجديد ، ربما خوفاً من زيادة بلبلة الخواطر ، وإنما جعل تكوين المذهب وظهوره على يد حمزة هذا . فكان الحاكم يكثر من زيارة حمزة(٢٣٧) ، الذى اتخذ له مكاناً خارج القاهرة فى مسجد اسمه : التبر أو التبن أو الجميزة ، وعرف قديما باسم البئر ، كان قد بنى فى أيام كافور(٢٣٨) . وقد تعمد الحاكم تقوية المذهب الجديد(٢٣٩) ، فاطلق يد حمزة فى عقد مجالس الدعوة للرجال والنساء(٢٤٠) ، ومكاتبة رجال الدولة الرسميين ، بما فيهم ختكين داعى الدعاة ، وابن أبى العوام قاضى القضاة ، وعبد الرحيم ولىّ العهد(٢٤١) ، بل منع الحاكم غير حمزة من الكلام فى الدعوة ، مثلما فعل مع ابن أبى العوام ، الذى كان سنياً(٢٤٢) . فكان الحاكم يأتى لحمزة ويسأله عما حصل من أهل الدعوة(٢٤٣) ، ويحرضه على الكتابة للدعاة(٢٤٤) .

وقد نجح حمزة فى تكون المذهب الجديد ، فنسمع عن طبقات جديدة للدعاة فى مصر تشبه ما كان عليه الحال عند بدء الدعوة الإسماعيلية ، على رأسهم الإمام الذى يأمر لهم ، والناطق الذى ينطق فى كل عصر وزمان بالحق ، والداعى الجدّ ، لأنه جد فى طلب العلم من الإمام ، والمأذون لأنه يفتح باب العهد ، والمكاسر الخيال الذى يلوح بعلمه(٢٤٥) ، كما عين حمزة الدعاة فى جميع أنحاء مصر وأعمالها والشامات وما حولها(٢٤٦) . وكذلك أصبح حمزة ودعاته يجبون مال الدعوة — دون غيرهم — من النجوى وغيرها ، التى بلغت ثلاثين درهماً أو ثلاثة دنانير ونصف(٢٤٧) . وقد كان من ينضم للمذهب الجديد ، يؤخذ عليه العهد ، وقد تلقب حمزة بالهادى ، أوهادى المستجيبين(٢٤٨) .

وقد سعى المذهب الجديد ، إلى اظهار الإيمان المطلق أو ما عُرف بالتوحيد(٢٤٩) ، الذى اضطربت حقيقته بين الدعاة ، لا سيما بظهور دعوى

الأخرم والدرزى . يضاف إلى ذلك ، أن التوحيد عند الشيعة هو أصل الدين الإسلامى ، وأن الإخلاص فيه يكون بثبوت مرتبة الوصاية ، وهى تولية النبي لعلىّ ، والإمامة التى تبقى فى أسرة علىّ إلى يوم الدين[٢٥٠] . لذلك عرفت الدعوة إلى المذهب الجديد بالتوحيد ، وسمى المستجيبون لها من الرجال بالموحدين ، ومن النساء بالموحدات . ويؤيد قصد المذهب الجديد فى تنقية الإيمان ، ما ورد فى رسالة حمزة المعنونة : « برسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين » ، التى فيها يتكلم عن التوحيد على طريقة الدعاة الشيعة ، بما فيها من ظاهر وباطن[٢٥١] .

ومن الطبيعي أن يكون المذهب الجديد ضد كل ما يمس نقاء عقيدة التوحيد أو ينال منها . ويؤيد ذلك مهاجمة حمزة للنصيرية[٢٥٢] ، ويبدو أنها كانت فرقة قديمة للغلاة فى الشام ، وسميت هكذا لأنها غلت فى علىّ ابن أبي طالب ، وادعت فيه ما أدعت النصارى فى المسيح ، فقالت بألوهية علىّ . ولدينا عدة رسائل من تأليف حمزة ، كلها تهاجم النصيرية وخروجها على التوحيد ، أشهرها رسالة بعنوان : «الرسالة الدامغة للفاسق ، والرد على النصيرى لعنه المولى فى كل كور ودور »[٢٥٣] . وقد كانت النصيرية بسبب مقالاتها فى علىّ ، من أعدى أعداء الإسماعيليه[٢٥٤] ، وحتى بعد الحاكم نجد ابنه الظاهر يحارب هذه الفرقة أيضاً ، كما يظهر فى سجل به كلام كثير ، صدر فى سنة ٤١٤ / ١٠٢٣[٢٥٥] .

وأكثر من هذا أن حمزة هاجم الدرزى ومقالته ، ويبدو أن الدرزى كان من أتباع حمزة فى أول الأمر ، إلا أنه خرج على مبدأ التوحيد ، وسار على نسق المغالين ، فغالى فى ذات الحاكم . فيقول حمزة فى رسائله إن الدرزى كان ينطق بغير معرفة ولا علم[٢٥٦] ، وأنه ألف كتاباً — يقصد الدستور —

بدون إذن الإمام ، مع أنه على حسب ملاحظة حمزة ، لا أحد يؤلف بدون أمر الإمام[٢٥٧] . ويبين حمزة فى كتاب : «الغاية والتضحية» ، ظروف خروج الدرزى على عقيدة التوحيد : « فقد سمى نفسه بسيف الإيمان ، فلما أنكرت عليه ذلك ، وبينت له أن هذا الاسم محال ، وكذلك لأن الإيمان لا يحتاج إلى سيف بعينه ، بل المؤمنون محتاجون إلى قوة السيف وإعزازه ، فلم يرجع عن ذلك الاسم وزاد فى عصيانه ، وأظهر فعل الضدية فى شأنه ، وتسمى باسم الشرك ، وقال : أنا سيد الهادين ، يعنى أنا خير من أمامى الهادى »[٢٥٨] . فمن المؤكد ـ وهذا كلام حمزة ـ أنه من الخطأ ، أن يسمى مذهب الحاكم الجديد بالدرزية نسبة إلى الدرزى ، كما لاحظ دى ساسى « De Sacy »[٢٥٩] ؛ لا سيما وأن العينى يسمى مذهب الحاسم بالفرقة الحاكمية[٢٦٠] ، نسبة إلى الحاكم مباشرة .

وطبيعى والمذهب ناشىء ، كان لا بد أن يدفع عن نفسه هرطقة الغلاة ، حتى لا تختلط عقائده بها . فنفى حمزة عن المذهب الدعوة إلى التناسخ ، أو إلى إلوهية الحاكم ، وأورد قولاً قاطعاً ضد مقالة الغلاة ، بقوله : « ولا تعتقد بأن مولانا جل ذكره الإمام ، بل الإمام عبده ومملوكه ، لا يقدر على دفع مضرة ، ولا جر منفعة ، إلا بقوة مولانا جل ذكره[٢٦١] » . ويقول : « إن الإمام عبد مولانا » . ويذكر فى رسائله : الله ومحمد وأمير المؤمنين وآيات من القرآن الكريم ،[٢٦٢] ؛ كما سمى نفسه : « هادى المستجيبين ، المنتقم من المشركين ، والمنافقين ، والناكثين بسيف مولانا أمير المؤمنين[٢٦٣] » . وقد نفى عن المذهب أيضا ، إباحة استحلال الفروج ، أو نكاح الأخت ، أو شرب الخمر ، أو لعب الميسر[٢٦٤] . وعلى النقيض دعا النساء خاصة إلى التجمل بالخلق الفاضل : « والتبرى من كل عيب

ودنس ، وأن يجنبن أنفسهن عن الشهوات والشبهات ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، لينتفعن بإيمانهن[٢٦٥] » .

ولكن نجاح المذهب الجديد جر إلى صراع شديد مع أنصار القديم ؛ لاسيما وأنه قد استجاب للمذهب عدد كبير من رجال ونساء لا فى مصر فقط ، بل فى الشام فى نواحي وادى التيم ، وبلاد صيدا ، وبيروت ، وحلب ، وما جاورهم . فقد كان أصحاب ختكين ، إذا لقوا دعاة حمزة ، لعنوا بعضهم بعضا ، ويكفر كل فريق منهم الفريق الآخر[٢٦٦] . كذلك لقى الحاكم فى تصرفه الجديد عنتاً من سكان مصر ، الذين تجرأوا على سبه وسب أهل الدعوة ، حتى فى أعماق القرى[٢٦٧] . وقد تداول الناس سجلا ، بتاريخ العشر الأخير من شهر رمضان سنة ٤١٠ / يناير ١٠٢٠[٢٦٨] ؛ يطالبهم فيه الحاكم باحترام إمامهم ، والامتناع عن سماع الترهات ، والتدخل فيما يقوم به : « فينعى عليهم ترك التشاغل بعيوب نفوسهم ، واعتراضهم عليه فيما يفعله ، ويشير عليهم بالمبادرة إلى الإيمان فى أوانه ، ويوبخهم على مخالفتهم إياه فيما قصد بهم إليه ، مما يعود عليهم بالقرب إلى باريهم ، ومجاهرتهم له بما أتوه من الخطايا ، وتظاهروا به من البدع ، ويتوعدهم بأن كل عقوبة سيحلها بهم إن لم يذروا الشر ويعملوا الخير ويعمدوا عليه ، ويسلموا إلى إمام دهرهم ، ويلجوا إليه أمرهم ، ويذكرهم بما تقدم من إنذاره لهم ، وتخويفه إياهم على مباينته ، ويعد من قبل أوامره واهتدى مرضاته بالإحسان إليهم ، والإبقاء عليهم ، ويحذر من صبر على الأفعال المنكرة بخلاء ديارهم ، وتعفية آثارهم ، وسبي نساءهم وأولادهم ، ونهب أموالهم ، وأنهم حينئذ يطلبون ناصراً فلا ينصرون » .

ومن ناحية أخرى نقل إلينا مؤرخو السنة روايات مغرضة عن المذهب

الجديد ، دون سعى إلى تحرى الحقيقة كعادتهم . فبقولهم إن حمزة دعا الناس إلى مقالة الدرزى فى التناسخ ، والرخصة فى نكاح الأخوات والبنات والأمهات ، وإسقاط جميع التكليفات الدينية من الصوم والصلاة والحج[٢٦٩] . ويبدو أن مؤرخى السنة تعودوا أن يلقوا بمثل هذه التهم ، لكل فرقة شيعية ، حتى ولو كانت هذه التهم غير صحيحة أو معقولة . فمثلاً تناقلوا عن القرامطة قبلاً ، قولهم[٢٧٠] : إن روح الله وأرواح الأنبياء تحل فى الأجساد ، وأنهم جعلوا القبلة إلى بيت المقدس ، والصلاة أربع ، ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها ، وأن الجمعة يوم الإثنين ولا يعمل فيها شىء ، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة ، والصوم يومان فى السنة . كذلك ينقل البغـــدادى عن فرقة القرامطة أشياء عجيبة ، منها[٢٧١] : أنه كان لها كتاب اسمه السياسة والبلاغة الأكيد ، ورد فيه الإباحة والرخصة ، مثل قولهم : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليست له زوجة فى حسنها ، فيحرمها على نفسه ، وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق باخته وبنته من الأجنبى » . فمن الواضح أن أقوال معظم مؤرخى السنه لا يعتد بها فى الكلام عن مذهب حمزة أو غيره من مذاهب الشيعة ؛ لما يظهر فيها من تحامل وحقد ، ومخالفتها للحقيقة .

وقد وصل الحقد على المذهب الجديد إلى درجة التزييف والتلفيق فيما كتبه حمزة[٢٧٢] ، وعُرف برسائل حمزة ، أو رسائل الدروز خطأ ؛ حيث يوجد أغلبها مخطوطاً فى عدة مكتبات ببلدان مختلفة ، مثل : باريس وليدن واكسفورد وفيينا والقاهرة ؛ وإن كان أكثرها عدداً هو ما يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس[٢٧٣] . فإذا تصفحنا هذه الرسائل ، شعرنا بعدم الاطمئنان

إلى صدق ما ورد فيها ؛ بسبب تنافر السياق والمعنى ؛ مما يؤكد الدس ، وأنها لم تنقل من وجه صحيح . يضاف إلى ذلك أن هذه الرسائل كتبت بأنواع الحبر : أحمر وأسود وأخضر وأصفر ، وهمشت بخط يخالف خط النص[٢٧٤] ؛ كما أن بعضها يحمل تواريخ متأخرة على وفاة حمزة ، وأن بعضها الآخر قد كتبه أحد الدروز ، الذين تحولوا إلى المسيحية[٢٧٥] . كل هذا يدلنا على أن أيدٍ غريبة معادية قد تدخلت بقصد تزييفها ، وشوهت حقيقتها.

وبجانب ذلك ، وقع بعض كبار المؤرخين الحديثيين ، مثل De Sacy (دى ساسى) ، الذى تناول ديانة الدروز فى كتابه : «Exposé de la réligion des Druzes » ، فى التسرع فى الأخذ بكل ما جاء فى رسائل حمزة ؛ فترجمها على علاتها ؛ دون أن يميز فيهـا الصحيح من الزائف . ثم فى ترجمته لهذه الرسائل تدخل هو الآخر فى مضمون النص ؛ فمثلاً إذا جاءت كلمة مولانا ، قال : C'est - à - dire Hakem (أى الحاكم[٢٧٦]) ؛ وإذا جاء فى النص قائم الزمان قال : C'est - à - dire le chef de ce siècle Hamza lui - même (أى صاحب هذا الزمان حمزة نفسه[٢٧٧]) ، مع أن كلمة مولانا قد تعنى الله ، وصاحب الزمان هو لقب الإمام القائم[٢٧٨] .
ومن المؤكد أن De Sacy أساء فهم النص ، بسبب أنه لم يكن فى متناوله الكتب الاسماعيلية التى بين أيدينا ، كما لاحظ مستشرق آخر هو Ivanow (ايفانوف[٢٧٩]) ، وأن هذه الرسائل مملوءة بالتأويل وعلم الباطن ، شأن كتب الدعاة زمن الحاكم ؛ مما جعلها عسيرة الفهم عليه . كذلك مؤرخنا المعاصر عنان نقل هو الآخر فى كتابه : « الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية »، بعض رسائل حمزة دون تمحيص، وفسر محتوياتها — بما فيها من زيف — على أنها تأييد للقول بألوهية الحاكم . وأخيراً Betty Bouthoul

(بيتى بتول) فى كتابها : "Le Calife Hakim. Dieu de l'an Mille" ، قد خلطت الروايات المغرضة التى قالتها السنة ، بما ورد من تلفيق فى هذه الرسائل.

وأما أتباع مذهب حمزة اليوم ، وهم المسمون بالدروز خطأ (٢٨٠) ؛ فقد اقتصروا فى العالم الإسلامى على منطقة حَوْرَان بالشام (٢٨١) ، التى أصبحت تعرف فى وقتنا بجبل الدروز . ونحن لا نعرف سبب اقتصارهم على هذه المنطقة بالذات فى الشام ؛ ربما لأنه كان بها سلالة تختلف بتكوينها القوى وخشونتها عمن حولها ، اعتنقت هذا المذهب ، أو ربما لأنه قد سكنتها إحدى هجرات عربية حديثة ، جاءت مع غزوات القرامطة . ولا بد لنا أن نقرر أن أتباع حمزة اليوم على قطع ويقين مسلمون ، دينهم هو الإسلام ، ويشاركون فى كل مظاهره ؛ ولكنهم تميزوا فى أخذه بالتصوف ، وهذا يدل على أثر الحاكم القوى فيهم . فهم فى أغلبهم لا يعددون الزوجات ، ومنهم من ينقطع كلية عن الزواج ، ومنهم من يصوم الدهر ، أو يضرب عن أكل اللحم طوال حياته ، وهم يقتصدون فى الطعام والشراب ، وجميع ملاذ الحس والنفس ، ولا يتناولون الخمر ، كما أنهم يميلون إلى الخلوة للتأمل ، شأن الحاكم (٢٨٢) . إلا أنهم — مثل الشيعة الإيرانيين — يعتقدون برجعة الحاكم فى آخر الزمان ، وأنه هو المهدى لا محالة ؛ ويحلفون إلى الآن بغيبة الحاكم (٢٨٣) . ويقول كاشف الغطاء — وهو شيعى — إن التدين بالرجعة جائز فى الإسلام بقصد إظهار قدرة الله ، وهو من قبل الايمان بنزول عيسى من السماء ، ووجود الجنة والنار (٢٨٤) .

ولكن بعض المؤرخين حتى فى وقتنا ، يحيطون أتباع حمزة اليوم بالغموض ، وكأنهم يكتبون فى الظلام ؛ كما أنهم أوردوا عن معتقداتهم صنوفاً من التناقض لا يقبلها العقل ؛ مثلما فعل المؤرخون السابقون

فى كلامهم عن مذهب حمزة ، فيدعون أن الدروز ينكرون وجود الله والأنبياء ، ويعتقدون أن القرآن ليس من وحى محمد ، وإنما من كلام سلمان الفارسى أحد صحابته ، وأنهم يعبدون الحاكم ، وقد قسموهم طبقتين : طبقة العقلاء ويقابلهم فى النساء جويدة ، والأخرى الجهال ويقابلهم فى النساء غير جويدة ، وأنهما يتميزان بلبسهما ، كما أن العقلاء يطلقون لحاهم(٢٨٥) . ونحن نرى أن مثل هذا الكلام ينبو عنه تفكيرنا ، لتناوله فرقة من المسلمين تعيش بيننا .

وغنى عن البيان أن نقرر أن ما حدث من غلو الدعاة فى ذات الحاكم ، حدث من قبل لأجداده الأئمة ، ولخلفه من بعده ، وفى كل حالة كان الأئمة الفاطميون يحتجون على هذه الادعاءات ، ويعتبرونها هرطقة ، وخروجاً على الاعتقاد الفاطمى ، ويعملون جهدهم على تصحيحها . ونجد استبشاع هذه الادعاءات على لسان المعز — جد الحاكم — فى فقرة وردت فى كتاب المجالس والمسايرات ، يحمل فيها على جرأة الدعاة ، فيوجه الكلام إلى الداعية الفقيه النعمان بن حيون ، فيقول(٢٨٦) : « إنه إنتهى إليك وإلينا ، أنا ندفع نبوة محمد وندعى النبوة بعده ، وندفع سنته وشريعته ، وندعو إلى غيرها ، فلعن الله من قال بهذا وانتحله وادعاه ، ومن تقوله علينا ، ورمانا به ونسبه إلينا » . ثم يقول أيضاً : « فكيف ندعيها (النبوة) وندعى ما يصلى الله من ادعاه النار ، ونقول بقول من أبطل نبوة جدنا محمد (صلعم) من الكفار ، والله سائل من قوّلنا من ذلك مالم نقله ، ومؤاخذه بقوله » . وأخيراً يقول : « إن المنتسبين إلينا ، المتقولين مالم نقله ، اعداءلنا ، وأضر من عدونا المناصب لنا ، المباين بعداوتنا » . كذلك الظاهر بن الحاكم ، أصدر سجلاً يفند ما قاله الدعاة فى ذات الأئمة ، ويتيح لهم فرصة التوبة كما

أتاحها لهم أبوه ؛ فيتحدث فى سجله(٢٨٧) : « من ذهاب طائفة من الجهال إلى الغلو فى الإمامة ، وعدولها بالأباطيل عن موجب الحقائق ، وصفتها المخلوق بصفة الخالق ، وتبرؤه إلى الله فى ذلك » . ثم يقول : « وإنه هو وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً ، ومربوبون اقتساراً ، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ، ولا يخرجون عن قضية الله تعالى » . وأخيراً يقول : « إنه قدم إنذاره لهم بالتوبة إلى الله تعالى من كفرهم ، ولما يعتمده من الإبقاء على الجماعة — الدعاة — ومن أتى ذلك فيهم وأقام على كفره ، فسيف الحق يستأصله » .

*

إذن لا بد لنا أن نقر أن الحاكم بين الأئمة الفاطميين شخصية متميزة ، وضعت أسس الدعوة ، وعملت على سيادة قانون الأخلاق والدين ، وتركت أثرها فى نحلة دينية لا تزال تعيش بيننا .

الفصل الخامس

الأحداث الخارجية

أصبحت الخلافة الفاطمية منذ أن انتقلت من المغرب إلى مصر ، إمبراطورية واسعة فى نمو مستمر ، امتدت من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى . فكان الحاكم مثل أسلافه عاملاً على نمو هذه الإمبراطورية ؛ بحيث أُعتبر عصره عصر سيادة للخلافة الفاطمية ، وقد دل الحاكم على رجاحة عقل نادرة ؛ بتوزيعه الألقاب الفخرية على الولاة فى مملكته[1] ؛ مما قوى من ولائهم . حقاً إن الحاكم انشغل بأمور المذهب فى آخر عهده ؛ إلا أنه حافظ على حدود مملكته سليمة ؛ وإن كان لهذا الانشغال المذهبي أثره على ولايات مملكته بعده ؛ بظهور عوامل الفتور فى أجزائها .

*

وقد كان الشام أهم مكان ظهرت فيه سياسة الحاكم ؛ إذ أنه بالنسبة لحكام مصر المسلمين منطقة أمان لملاصقته أرض مصر ، وميداناً لجهاد أعداء الإسلام ؛ لوجود الثغور الإسلامية على حدوده الشمالية . ولقد صادف الحاكم فى الشام نفس الصعاب التى صادفها المعزّ والعزيز قبله ، إلا أن الحاكم يرجع إليه الفضل فى توطيد حكم الخلافة الفاطمية فيه .

وقد كانت الصعاب تأتى غالباً من قبل أهل الشام أنفسهم ، وهم من سلالة عربية تتوزعهم قبائل كبيرة سكنت الشام قبل الفتح ، مثل الطائيين والكلبيين ،

وقبائل جاءت مع القرامطة حينما غزوا الشام ومصر، مثل سليم وبنى هلال.
ونعرف أن عرب الشام لم يكونوا يرحبون بالفاطميين؛ بسبب أن معظمهم كان على المذهب السنى المعادى للمذهب الفاطمى، فضلاً عن أن الفاطميين فى أيامهم الأولى، اعتمدوا فى فتحهم للشام على عسكر من المغاربة، الذين أعتبروا أعداء تقليديين لعرب الشام منذ الفتوحات الأموية. لذلك وجدنا قبائل الشام تتحالف مع القرامطة فى طرد الفاطميين لما غزوا الشام فى سنة ٣٥٩/٩٧٠؛ بل ساعدوا القرامطة فى غزو مصر أيضاً[٢].

ثم هنالك بقية الحمدانيين فى شمال الشام والجزيرة المجاورة[٣]، وهم أسرة أرستقراطية من قبيلة تغلب — أعظم قبائل ربيعة — ولم تكن معروفة أيام الأمويين، ولكن ظهرت أطماعهم بضعف العباسيين؛ فسعوا إلى الحصول على أمرة الأمراء — وهو الحكم المطلق — فى بغداد، ثم أقطعتهم الخلافة العباسية نواحى شمال الشام والجزيرة للتخلص منهم؛ على أن يحموا ثغور المسلمين فيها. ولكن الحمدانيين كانوا فى حالة سيئة، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن ثغور الإسلام كما يجب؛ بسبب التنازع فيما بينهم، وإنغماسهم فى حياة الترف؛ فكانوا يبنون قصوراً فخمة، مثلما فعل سيف الدولة مؤسس دولتهم بالشام، الذى حول نهر قُوَيق — نهر مدينة حلب — وأطافه بقصره[٤]، وكانوا يتخذون الجوارى الجميلات من بنات الروم، وكان يجتمع ببابهم الشعراء وشيوخ العصر ونجومه[٥]. ولذلك وجدنا المعز حينما سير جوهراً لفتح مصر والشام، حذره من بنى حمدان، بأنهم غدارون لا ثقة فيهم؛ ففى رأيه: «إنهم يتظاهرون بثلاثة أشياء، وليس لهم فيها نصيب، يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم فى الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة[٦]».
ولا ريب أن عداء الفاطميين للحمدانيين يرجع على الخصوص إلى أن

الحمدانيين ساعدوا القرامطة فى غزوهم للشام ومصر(٧) .

ووراء كل هؤلاء دولة بيزنطة اليونانية النصرانية ، أو ما كان يسميه المسلمون بالروم . فهذه الدولة كانت قد ضعفت بسبب أن المسلمين فى أيام الراشدين والأمويين ، نفوها إلى أقصى بلادها فى آسيا الصغرى ، وسيطروا على مستعمراتها فى الشرق ، كما أن حدودها فى الغرب كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية مثل البلغار والروس(٨) . ولكن بيزنطة قويت بالأسرة المقدونية النشيطة ، وبضعف الخلافة العباسية نتيجة لغزوات القرامطة فى العراق والشام ؛ فبدأت تحركها الأطماع فى استرداد أملاكها فى الشرق ؛ بحيث أعتبرت محاولاتها فى سبيل أسترداد الشام ، المحاولات المسيحية الأولى لغزو الأراضى المقدسة ؛ تمهيداً للغزو اللاتينى بعد ذلك . ولا مراء فقد كانت دولة بيزنطة تتزعم النصرانية إلى وقتئذ ؛ إذ كانت تعتبر المسيح امبراطورها : "Christos Basilieus"(٩)

ففى عهد نقفور فوكاس(١٠) "Nickephoros Phokas" ، وكان يسمى طاغية الروم ؛ لأنه قتل الأمبراطور أرمانوس الثانى "Romanos II" ، وتزوج زوجته ثيوفانو "Theophano" ، ووجه كل همه لحرب المسلمين ، فغزا الشام غزوات متتالية منذ ٣٥١/٩٦٢ ؛ فاستولى على أهم مدن الثغور ، ثم فتح حلب ، واضطر سيف الدولة — مؤسس دولة الحمدانيين بالشام — إلى ترك حلب والهروب أمامه ، وطلب الهدنة . وبعد موت سيف الدولة فى ٣٥٦/٩٦٧ ؛ انتهز نقفور فرصة تنازع قواد الترك على الوصاية على أبى المعالى سعد الدولة بن سيف الدولة ، ودخل الشام من جديد ، ووصل فيه حتى طرابلس ، وأقام شهرين ثم رجع ، بعدأن أخذ أسرى كثيرين ، وأجبر خلقاً كثيراً على التنصر ؛ كما استولى على أنطاكية وضمها إلى ملكه ؛ وهى التى كانت

مفتاح عواصم المسلمين أيام الأمويين والعباسيين ؛ وسبى من نسائها وأطفالها نحواً من عشرين ألف[١١] .

ولكن نقفور لقى حتفه فى ٩٦٩/٣٥٩ على يد أقرب الناس إليه ، وهى زوجته ثيوفانو ، التى كانت تكره زوجها الشرس ، فدبرت مؤامرة لقتله ، بالاشتراك مع شخص أرمنى اسمه "Tchemeshauig" ، وإن عرف باسم زمسكيس "Zimiskes" ، وسماه العرب ابن الشمشقيق ، فقتل زمسكيس نقفور وهو يقرأ فى الإنجيل ، وتولى الملك بعده[١٢] . وقد كان زمسكيس مثل سلفه تحركه الأطماع فى استرداد بيت المقدس ، ويعتقد استحالة بقاء الحياة بينه وبين الفاطميين . فأغار على الشام فى ٩٧٣/٣٦٣ ، وسهل له سعد الدولة وقبائل العرب السير فيه ؛ فسلمت دمشق ، التى كان استولى عليها مغامر تركى اسمه افتكين بمساعدة أهلها لمنع الفاطميين من العودة إلى الشام ، وأراد زمسكيس أن يتوجه إلى فلسطين ؛ حيث يوجد الجيش الفاطمى ، الذى تحصن فى القدس . ولحسن الحظ أن زمسكيس ما لبث أن عاد إلى القسطنطينية ؛ ربما بسبب الاضطراب فيها ، أو لأنه زهد فى الحكم ، وذهب إلى الدير وترهب ، لتأنيب ضميره له على قتله نقفور ، أو لأنه دُس له السموم[١٣] .

هذه الغزوة البيزنطية المفاجئة أفهمت العزيز ، الذى تولى بعد المعز بضرورة احتلال الشام ، حتى يمنع عدو الإسلام من العودة إليها . فأرسل جوهراً القائد أفتكين التركى والعرب ، فاستدعى افتكين الحسن الأعصم زعيم القرامطة ، وهزموا جوهراً . فذهب العزيز بنفسه للقضاء على أفتكين والقرامطة ، وذلك فى ٩٧٩/٣٦٨[١٤] ؛ ويرجع إلى العزيز الفضل فى توطيد سيطرة الفاطميين فى جنوب الشام ، حتى دمشق .

ثم وجه العزيز همه إلى القضاء على الحمدانيين ، الذين قبلوا حماية بيزنطة ، فكان أميرهم سعيد الدولة أبو الفضائل ، الذى تولى بعد أبيه سعد الدولة ، ووصيه التركى لؤلؤ الكبير ، يحملان المال المقرر والهدايا إلى الروم[١٥] . فارسل العزيز نحوهم قائده التركى مَنْجُو تكين فى ٣٨٢/٩٩٢ ، على رأس العسكر المصرى ؛ ليثير غلمان الأتراك فى حلب ؛ فهاجم منجو تكين حلب وأحاطها بالخانات والحمامات ، وصمم على الاستيلاء عليها ؛ بحيث اشتد الحصار بالحمدانيين . عندئذ استنجد لؤلؤ بالروم ، وتوسل لهم بالمعاهدة التى بينهم وبين الحمدانيين ؛ وكتب إلى ملكهم : « متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية ، أخذت قسطنطينية »[١٦] .

فانتهز باسيل الثانى « Basilios II » — عظيم الروم — الذى كان تولى بعد زمسكيس ، فرصة العداء بين الفاطميين والحمدانيين ؛ لاستعادة الشام ، لاسيما وأنه كان قد انتهت حروبه مع الروس ، الذين كانوا يسكنون نهر الدنيبر ، وعاصمتهم فى كييف ، وقد اعتنق ملكهم النصرانية فى ٣٧٥/٩٨٥ ، وأنه هزم البُلغار بعد حروب استمرت خمساً وثلاثين سنة[١٧] ؛ بحيث سمى بقاتل البُلغار : « Bulgaroktonos »[١٨] . فأسرع باسيل الثانى إلى دخول الشام ، فى جيش كبير عدده مائة ألف ، يساعده اسطول كبير من الشلنديّات[١٩] — وهى مراكب حربية كبيرة — فسلمت له حلب وحمص . ولكن باسيل الثانى اضطر هو الآخر إلى الإنسحاب لظروف داخلية أو خارجية .

فلما سمع العزيز بزحف ملك الروم جهز اسطولاً كبيراً فى ميناء القاهرة المسمى : « المقس[٢٠] » وهو الأسطول الذى بناه المعزّ من ستمائة مركب ، ولكن فى ظروف غامضة إحترقت بعض مراكبه ومعها عدة الأسطول وسلاحه ، وأُتهم به جماعة من الروم فى مصر — لعلهم من

الروم الملكانية — فاستعجل العزيز بناء أسطول غيره . كذلك نادى العزيز بالنفير العام فى المصريين « الناس » ، وجمع منهم أعداداً هائلة ، كما كتب إلى أهل الشام بالسير نحو ملك الروم ، حتى اجتمع بدمشق من العساكر ما لم يجمع من قبل(٢١) . ولكن العزيز ، الذى ذهب على رأس عسكر المصريين إلى بلبيس ، شرقى الدلتا فى طريق الشام ، وكأنه فرعون مصر ، توفى فجأة قبل تحرك العسكر فى ٣٨٦/٩٩٦(٢٢) .

وبعد العزيز وفى أول وصاية برجوان ، حدثت مصادمات عنيفة بين الروم وجيش الحاكم واسطوله ، وأحرز جيش الحاكم واسطوله انتصارات هائلة ، مما لم يقع مثله قبلاً منذ مجىء الفاطميين فى الشرق . ففى عام ٣٨٨/٩٩٨ ، أفسد الجيش الفاطمى تدخلاً من باسيل الثانى فى صـور ، وهى مدينة بساحل البحر الأبيض تقع غربى نواحى صيدا ، كانت أشبه بالكف فى البحر ، لها طريق ضيقة إلى البر ، وسورها من كل جهاتها ، ولها مرسى . فقد ثار بها رجل ملاح مغامر اسمه علاقة ، فارسل إليه باسيل الثانى أسطولاً لمساعدته . فقبض علاقة على الأمور فى صور ، وضرب العملة ، ونقش عليها : « عزاً بعد فاقة للأمير علاقة » . فارسل برجوان جيشاً حاصر صور ، كما أرسل الأسطول ، الذى استطاع هزيمة اسطول الروم ، وأخذ علاقة أسيراً ، وأرسل إلى مصر ، فسلخ وصلب بها . وفى نفس العام توغل جيش الحاكم فى أرض الروم فى منطقة الثغور ، وقابل جيشاً بيزنطياً بقيادة الدوق داميانوس الدلاسنوس « **Ducas Damien Dalassenos** » — يسميه العرب الدوقس — فقتلوا منه ستة آلاف ، كما قتل الدوقس ، وأسر أبناؤه(٢٣) .

ويبدو أن برجوان وصيّ الحاكم ، لم يكن يريد أن يستمر العداء بين الفاطميين والروم ؛ ربما لرغبته فى الانشغال ببسط سلطانه فى مملكة الحاكم ، أو لأنه انشغل باللهو عن أعمال الدولة فى آخر أيامه كما ذكرنا ؛ فسعى إلى الصلح معهم . ومن قبل ، كان ابن كاس وزير العزيز المشهور ، قد نصح خليفته وهو على فراش الموت ، بعقد السلام مع الروم(٢٤) ، لا سيما وأنه عقدت معهم هدنة سابقة فى ٣٧٧ / ٩٨٧(٢٥) ، لم ينقضها غير هجوم باسيل الثانى الأخير فى الشام . ولعل ابن كاس كان يقدر أنه لا يمكن الاستمرار فى محاربة الروم ؛ إلا إذا عمل الفاطميون أولاً على السيطرة فى الشام ؛ لذلك جرت بين برجوان وباسيل الثانى مراسلات وملاطفات ، وأرسل أريسطس بطريرك بيت المقدس ، وخال ست الملك إلى القسطنطينية ، مع رسول الروم ، وتم عقد هدنة لمدة عشر سنوات فى ٣٩١ / ١٠٠٠ . وكان من شروط الصلح أن يتمتع الروم فى إمبراطورية الفاطميين ، بالحرية الدينية ، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم(٢٦) .

ومع أن الحاكم بعد ذلك قبض على صولجان السلطة من قواده ، وتعصب ضد الروم الملكانية فى بلاده ، وهدم كنيسة القيامة التى يحج إليها الروم ؛ فقد بقى متمسكاً بالهدنة مع باسيل الثانى . فحينما أرسل ملك الروم للحاكم بعثة فى ٤٠٥ / ١٠١٤ ، أحسن الحاكم وولى عهده استقبالها فى قصره ، فاصطفت العساكر بعددها وأسلحتها ، وفرش الإيوان ، وعلق على حيطانه الديباج بالذهب ، حتى صار يتلألأ بالذهب ، كما علق فى صدره درقة مكللة بفاخر الجوهر ، تضىء ما حولها(٢٧) . ولكن باسيل الثانى ربما يكون قد فكر فى نقض الهدنة ، بسبب أن جماعة كاثوليكية تعرف بالأنجاز — لا يعرف أصلهم ، ولعلهم من البُلغار أو الهنغار أو الروس — وملكهم

يُسمى بالأبجازى ، كانوا يحاربون باسيل الثانى ، الذى أرسل نحوهم أسطوله ، فكاتب جرجس ملكهم الحاكم فى أن يتعاضد معه على حرب باسيل الثانى ، وأن يقصده كل واحد من جهته ، بحيث أن باسيل الثانى استعد لمهاجمة الحاكم ، لولا فقد الحاكم[٢٨] . ولكن ست الملك أخت الحاكم ، التى تولت وصاية الظاهر بن الحاكم ، أسرعت باسترضاء باسيل الثانى ، فارسلت إليه نقفور بطريرك بيت المقدس ، ليطالعه بعودة الكنائس ، وتجديد كنيسة القيامة المقدسة وسائر البيع فى جميع بلاد مصر والشام ، ورجوع أوقافها إليها ، واستقامة أمور النصارى ؛ وذلك مشافهة من غير مكاتبة ، مما جعل باسيل الثانى يعدل عن نقض الهدنة[٢٩] .

هذه السياسة السلمية مع بيزنطة ، هيأت الفرصة للحاكم ليسيطر على الشام سيطرة تامة ؛ وهذا لم يحدث قبلاً . فنعرف أن عرب الشام كانوا فى عداء مع الفاطميين ، حتى بعد استيلاء العزيز على بلادهم . وفى أول عهد الحاكم ، انتهزوا الفتنة بين طوائف المغاربة والمشارقه ، فثاروا بزعامة المفرج بن دغفل بن الجراح كبير قبيلة طىء . ولكن برجوان أرسل نحو المفرج جيشاً طارده وأسره ، وحمله إلى القاهرة ، ثم أطلق سراحه[٣٠] ؛ مع أن ابن كاس وهو على فراش الموت ، كان قد نصح بقتله[٣١] . ويبدو أن عرب الشام لم تعجبهم سياسة الحاكم المذهبية ، فعادوا للثورة من جديد ؛ بحيث أنهم احتووا على معظم جنوب الشام إلى الفرما أى مدخل الدلتا المصرية ؛ كما أنهم هاجموا حصون السواحل ، التى فيها عساكر فاطمية . وقد أصبح حكم العرب فى الشام رهيباً ، حتى أن عدداً كبيراً من سكانه البلاد غير المسلمين خرجوا إلى بلاد الروم . وقد استمرت ثورتهم مدة سنتين ونصف من ٤٠٢ / ١٠١١ إلى ٤٠٤ / ١٠١٣ ، دون أن يرسل

الحاكم نحوهم جيشاً . ولكن لما استفحل خطرهم ، بدعوتهم عرب الحجاز إلى التضامن معهم ، أرسل الحاكم نحوهم جيشاً مغربياً قوياً ، بقيادة علىّ ابن جعفر بن فلاح ؛ كما أمر بقية الجيوش التى كانت بدمشق والسواحل ، الاشتراك فى قتالهم . ويبدو أن الحاكم تمكن من قتل المفرج زعيمهم ، بأن دس له السم ، فتمكنت جيوش الحاكم من مهاجمة العرب فى كل مكان ؛ بحيث هرب أولاده ، لا سيما حسان ، الذى بقى شريداً وقتاً طويلاً ، إلى أن جاء إلى مصر فى ثياب كان الحاكم منحها لأم حسان ، وهو راكب حماراً ، وطلب الصفح من الحاكم[٣٢] . وبذلك قضى الحاكم على أكبر خطر قام به عرب الشام ضد الدولة الفاطمية .

وكذلك نجد الحاكم قد تمكن من أخذ حلب أيضاً ، التى لم تنجح حملات أبيه العزيز فى أخذها . فقد كان لؤلؤ الكبير استولى على حلب بعد موت أبى الفضائل فى ٣٩٢ / ١٠٠٢[٣٣] ، الذى يبدو أنه مات مسموماً ، وضيق على أسرة الحمدانيين ، فهرب أبنا أبى الفضائل وهما أبو الحسن علىّ وأبو المعالى شريف إلى الحاكم ؛ كما هرب أخو أبى الفضائل المسمى أبا الهيجاء إلى باسيل الثانى ؛ بحيث لم يبق من ذرية الحمدانيين أحد فى حلب . ويبدو أن لؤلؤاً قدّر صعوبة موقفه من دولة الفاطميين بعد عقدها الصلح مع الروم ؛ فأعلن الطاعة للفاطميين ، وليبيّن صدق خضوعه ، أرسل أولاده إلى مصر ، وأعلن الدعوة الفاطمية فى مملكته .

ومع أن الحاكم كان قد أرسل جيوشه لمساعدة لؤلؤ فى القضاء على أبى الهيجاء ، الذى حاول استعادة حلب بموافقة باسيل الثانى ، فإن لؤلؤاً عاد إلى موقف الخصومة ، وقطع الدعوة الفاطمية ؛ بل إنه حارب والى طرابلس من قبل الحاكم ؛ لذلك شجع الحاكم ضد لؤلؤ زعماء بنى كلاب

المحيطين بحلب ، وهم المرداسيون ، وقد كان الحمدانيون سيطروا عليهم لما أقاموا دولتهم . فأخذ بنو كلاب بقيادة صالح بن مرداس الكلابى ، يغيرون فى بلاد لؤلؤ ، بتحريض الحاكم .

وبعد موت لؤلؤ فى ٣٩٩ / ١٠٠٨ ، خلفه ابنه مرتضى الدولة منصور فحاربه الكلابيون ، كما حاربوا أباه ، بحيث استولوا على نصف بلاده ، وجعلوه يفر إلى الروم فى ٤٠٤ / ١٠١٣ ؛ وبذلك زال ملك بنى حمدان على حسب ملاحظة ابن تغرى بردى ؛ وقد منح الحاكم صالح بن مرداس بهذه المناسبة ، لقب : أسد الدولة . ولكن فتحاً أحد غلمان أبى منصور احتفظ بالقلعة فى حلب ، ولم يرض أن يسلمها لصالح ، واتصل بجيش الحاكم ، فلقبه الحاكم : مبارك الدولة . ولما دخل جيش الحاكم حلب بالإتفاق مع فتح ، واستولى على القلعة والمدينة ، زاد الحاكم فى لقب فتح ، فأصبح يلقب : مبارك الدولة وسعدها وعزها . فأصبحت حلب لأول مرة خاضعة لنواب الحاكم إلى أن تولى الخلافة الظاهر ؛ وولاها الحاكم أحد الحمدانيين ليعارض به المرداسيين ، وهو عزيز الملك (الدولة) فاتك ، الذى لقبه بأمير الأمراء ، فحكمها فاتك من ٤٠٧ / ١٠١٦ ، إلى نهاية حكم الحاكم .

مما سبق يتبين نجاح سياسة الحاكم فى الشام ؛ حيث سيطر عليها من حدود مصر إلى الفرات . يضاف إلى ذلك أن الشام ، وقد كان تربة معاديه للفاطميين ، أصبح فى عهده بفضل نشر الدعوة للمذهب الشيعى ، تربة صالحة للدعوة الشيعية ؛ بحيث أن الشام لا يزال مركزاً من مراكز الشيعة إلى وقتنا الحاضر .

كذلك كان هدف الفاطميين منذ تكوين دولتهم بالمغرب ، تدمير خلافة العباسيين فى العراق ، عدوهم اللدود . ولكنهم حين انتقالهم إلى مصر وفتحهم الشام ، أحجموا عن ذلك ، بسبب هجمات الروم فى الشام ، ولأن العباسيين كانوا قد سيطرت عليهم دولة شيعية هى الدولة البويهية ، وأصبح العراق نفسه موطناً هاماً للتشيع (٣٤) .

فقد كان العباسيون فى فترة احتضار ، وأصبح الخليفة العباسى أشبه بشبح لا سلطان له تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الأتراك الأقوياء ، وذلك منذ عهد المعتصم . ومنذ ٣٣٤ / ٩٤٥ ، لم يقف ضعف الخليفة العباسى على استيلاء رجل أقوى منه على السلطة ، ولكن تطور الأمر إلى أن سيطرت عليه أسرة تحكم معه وارثاً عن وارث ، هى أسرة بنى بويه (٣٥) ، التى أصلها من عنصر الديلم الفارسى ، المقيمين حول بحر قزوين . وقد بقى الديلم وقتاً طويلاً على دينهم المجوسى ، إلا أنهم تحولوا إلى الإسلام منذ سنة ٢٥٠ / ٨٦٤ ، وظهرت لهم مطامع على يد الأسرة البويهية ، التى تمكنت من تكوين دويلات بزعامة أفرادها فى فارس ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، ثم استولت على بغداد من الأتراك المتغلبين عليها . فكان بنو بويه مع الخلفاء العباسيين أشد وطأة من قواد الأتراك ، وأصبح الواحد منهم يسك العملة باسم شاهنشاه أى ملك الملوك ، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسى فى الخطب على منابر المساجد ، وتُضرب له الدفوف — الطبل — أمام قصره فى الضحى والعشى ، وهذا لم يكن يحظى به غير الخليفة العباسى من قبل (٣٦) .

يُضاف إلى ذلك أن بنى بويه على عكس قواد الأتراك السنة ، كانوا متشيعين ، فقد كانت القومية الفارسية منذ زمن قد تحولت إلى الشيعة (٣٧) ؛

بسبب أن الحسين كان قد تزوج جهانشاه ابنة يزدجرد . ولكن تشيع البويهيين ، كان على أساس المبدأ الزيدى[٣٨] ، نسبة إلى زيد بن علىّ السجاد ابن الحسين بن علىّ ، الذى قُتل أيام هشام الأموى . فكان الزيديون لا يعترفون بخلافة العباسيين ؛ إلا أنهم كانوا يقبلون خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، فقالوا بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، كما قالوا إن الإمامة غير واجبة شرعاً ، وأنها تقليد يمكن الإستغناء عنه ، وأن الفقهاء يكونون عوضاً عنها . ومع ذلك يجب أن نقرر أن البويهيين لم يكن لهم إمام حاضر ؛ وأن فقه مذهبهم لم يصل إلى درجة الفقه الإسماعيلى مثلاً .

معنى هذا أن الفواطم حينما نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر ، وامتد ملكهم نحو العراق بالاستيلاء على الشام ؛ وجدوا تشيعاً فى بغداد ، مركز الخلافة والأرض الخاضعة لها فى العراق والمشرق، وأن صاحب هذا التشيع هو صاحب الأمر والنهى . فكان هذا من شأنه ولا ريب ألا يدفع كلاً من الفاطميين أو البويهيين إلى أن يقضى الواحد منهما على الآخر ، ولكن على العكس عمل على التقريب بينهما . ونلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفواطم من قبل البويهيين مما حاوله معزّ الدولة أول البويهيين فى بغداد بالكشف عما فى قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمى المعزّ لدين الله لما جاء مصر ، لولا أن أشار إليه أصحاب النظرة البعيدة من أتباعه بتركه هذا الأمر خوفاً على سلطانه وسلطانهم ، ونفوذه ونفوذهم[٣٩] . فالخوف على سلطانهم كان الحائل الوحيد فى سبيل إعلان الفاطميين أئمة عليهم ، وهو نفسه الذى جر القرامطة إلى مقاومة الفاطميين وحربهم . ومع ذلك، فالولاء لأئمة الفاطميين من البويهيين أصحاب الأمر والنهى فى بغداد ، كان يعلمه الملأ فى كل مكان ، وتحت سمع الخلافة العباسية .

ولعل العلاقات الحسنة بين البويهيين والفاطميين لم تكن من القوة والصفاء ، مثلما كانت بين عضد الدولة البويهى والعزيز الفاطمى . وقد احتفظ لنا أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) برسالة بين العزيز الفاطمى رداً على رسالة عضد الدولة ، وفيها يشكر عضد الدولة على ولائه وخضوعه ، كما انتهز عضد الدولة وصول رسول العزيز بهذا المكتوب ليذل الخلافة السنية عدوة الفواطم ، فقرأ الرسالة مع ما تحمله من خضوع سافر وولاء ظاهر للفواطم فى حضرة المطيع ، حتى دهش أبو المحاسن وتعجب ؛ وإن كان ليس هناك ما يدعو للعجب لإجتماع البويهيين والفواطم فى رمز واحد ، وإمام واحد ، هو « علىّ » . ويجمل بنا أن نعرض بعض ما جاء فى هذه الرسالة[٤٠] الهامة : « وبعد ، فإنّ رسولك ، وصل إلى حضرة أمير المؤمنين ، مع الرسول المنفذ إليك ، فأدّى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودّتك ، ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين . . . » ، ثم ذكر كلاماً طويلاً فى المعنى . أما بقية الكتاب ، فيستدل منها على أن العلاقة لم تقف عند تبادل عبارات المودة والصداقة ، بل تعدتها إلى تبادل الرأى والمشورة ، فيما يحيط بهما فى العالم الإسلامى من خطر الروم ، وضعف الحمدانيين فى منطقة الثغور .

ولقد شارك عضد الدولة العزيز فى كرهه للحمدانيين ؛ فكما عمل العزيز على محاربة حمداني الشام ، عمل عضد الدولة على القضاء على حمدانيي الجزيرة ، لاسيما وأنهم كانوا هم الآخرين فى منازعات داخلية ؛ فقد كان أبو تغلب قبض على أبيه ناصر الدولة ، واستولى على السلطة منذ ٩٦٧/٣٥٦ ، فغزا عضد الدولة دولة أبى تغلب واستولى عليها ؛ فهرب أبو تغلب إلى الشام وقُتل فيها فى ٩٧٩/٣٦٩[٤١] . وكذلك لما حدث نزاع بين باسيل الثانى ،

ورجل اسمه بردس السقلاروس « Bardas Skléros » ، فكر عضد الدولة في مشاركة العزيز في جهاده ضد الروم ، بالمساومة ببردس الذى التجأ إليه، لاسترداد المدن التى فتحها الروم فى منطقة الثغور . ولكن صمصام الدولة ابن عضد الدولة عقد معاهدة مع الروم فى ٩٨٦/٣٧٦ (٤٢) ، مثلما فعل العزيز فى السنة التالية فى ٩٨٧/٣٧٧ .

ولكن بعد موت عضد الدولة فى ٩٨٦/٣٧٦ ، ضعف البويهيون، وتغير الموقف بين الفاطميين والعباسيين ، بسبب ما ترتب عليه من تقوية هذه الأخيرة ، عدوة الشيعة . وقد كان ضعف الدولة البويهية بسبب أن بناءها كان ضعيفاً ، فهى مثلاً لم تكن ذات عاصمة معينة ، وإنما انقسمت بين أعضاء الأسرة البويهية ، وأصبحت تبريز والرى وأصفهان وبغداد عواصم كل أمير بويهى ، ينزع إلى الاستقلال ، بحيث أن الخليفة الطائع السنى كان يجلس للمصالحة بينهم ، ويجمعهم على الائتلاف (٤٣) . وزاد من ضعف البويهيين اعتمادهم على الأتراك وغيرهم فى منازعاتهم (٤٤) ، مع أن استيلاء البويهيين على السلطة — لاسيما فى بغداد — كان بطرد الترك ، وانتصار العنصر الفارسى على التركى . يضاف إلى ذلك ، أن المذهب الزيدى كان يبيح الحرية المذهبية ، ويُجيز المهادنة بين أهل الملتين ، فكان هذا من شأنه أيضاً تقوية أمر السنة على حساب الشيعة .

وكان مظهر ضعف البويهيين فى العراق ، هو أن السنيين فيها أقاموا مشاهد لأعداء العلويين ، مثل مشهد الزبير بن العوام أحد أعداء علىّ ، الذى حاربه فى موقعة الجمل ، كما أقاموا أعياداً تقابل أعياد الشيعة مثل يوم الغار ، جعلوه بعد ثمانية أيام من يوم الغدير فى السادس والعشرين من ذى الحجة ،

وجعلوا إزاء يوم عاشوراء ، يوم مصرع مصعب بن الزبير ، الذى عملوه لأول مرة فى ٣٨٩/٩٩٩[٤٥] . وكذلك كان من مظاهر ضعف البويهيين ؛ تدخل الخليفة السنى فى أمور السياسة فى بغداد ؛ فأظهر ما يكنه من بغض وحقد نحو الشيعة عموماً . فقد عمل الخليفة القادر بالله ، الذى تولى بعد عزل الطائع فى ٣٨١/٩٩١[٤٦] ، على منع الشيعة فى أحياء الكرخ والطاق ببغداد ، من الاحتفال بيوم عاشوراء ، والنوح على الحسين فى ٣٨٢/٩٩٢ ؛ مع أنه عُمل منذ نحو ثلاثين سنة[٤٧] . ولما حدثت ثورة بين أهل السنة والشيعة ، وصاحت الشيعة : « حاكم يا منصور » ، إشارة إلى خليفة مصر ، أنفذ القادر الحراس لنصرة السنة[٤٨] . بل تمكن أحد قواد الترك فى بغداد من حبس بهاء الدولة البويهى ، وأصبح الخليفة والأتراك هم المسيطرون فى بغداد[٤٩] .

وأكثر من ذلك ، أن الخليفة العباسى السنى أظهر ؛ ما يكنه من بغض وحقد نحو الدولة الفاطمية ، عدوه اللدود . فوقف بالمرصاد للعقيليين بالجزيرة[٥٠] ، الذين سعوا إلى التقرب من الفاطميين . فقد كان بنو عقيل هاجروا من البحرين إلى الموصل ، وأصبحوا من رعايا بنى حمدان ، ولكن لما استولى البويهيون على دولة بنى حمدان ؛ تمكن العقيليون من الاستقرار مكانهم . فلما تولى قرواش بن المقلد أمير عقيل ، الملقب بمعتمد الدولة ، أعلن الخطبة فى الموصل والكوفة والمدائن للحاكم فى سنة ٤٠١/١٠١١ ؛ كما ضرب اسم الحاكم على السكة والبنود . وقد احتفظ لنا أبو المحاسن بنص الخطبة ، وهى اعتراف صريح بالحاكم وأسلافه ، ختمها بقوله[٥١] : « اللهم واجعل نوامى صلواتك ، وزواكى بركاتك ، على سيّدنا ومولانا إمام الزمان ، وحصن الإيمان ، وصاحب الدعوة العلوية ، والملة

النبوية ، عبدك ووليّك المنصور أبى علىّ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، كما صلّيت على آبائه الراشدين ، وأكرمت أجداده المهديين . اللهم وفّقنا لطاعته ، وأجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشدنا فى حزبه وزمرته . اللهم وأعنه على ما ولّيته ، واحفظه فيما استرعيته ، وبارك له فيما آتيته ، وانصر جيوشه ، وأعل أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنك على كل شىء قدير » . فلما علم القادر بذلك ، حرض الترك على مهاجمة العقيليين ، وأراد أن يسير نحوهم بنفسه ، وأنفق فى المعسكر مائة ألف ، مما اضطر قرواش أن يلغى الخطبة للحاكم .

وقد كان هذا الضعف البويهى مشجعاً للخليفة السنى القادر بالله على أن يهاجم الخلافة الفاطمية نفسها . فطعن فى نسب الفاطميين فى محضر رسمى(٥٢) ، قرأ على المنابر وأرسل إلى جميع ولايات الخلافة ، وهو النسب الذى يجعلهم ينتسبون إلى فاطمة وعلىّ ، وترتكز سلطة الدولة الفاطمية عليه . وقد كانت الخلافة العباسية تشكك فى نسب الفاطميين(٥٣) ؛ ولكن لم يحدث أن ظهر طعن رسمى قبل ذلك . وقد حرص الخليفة العباسى على أن يأخذ توقيعات كبار الأشراف العلويين والفقهاء والعلماء فى بغداد(٥٤) ، وذلك حتى يحوز الطعن الأهمية ، ولا يتسرب الشك إلى الناس ، مثل : الشريف الرضى ، وأخوه المرتضى نقيب الطالبيين ، والأبيوردى والاسفرائينى وأبو جعفر النسفى من العلماء ، وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة ، من أسرة النعمان فى مصر ، التى أبعدها الحاكم عن مناصب دولته . وهاهى صورة المحضر : «.... فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر ، وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال — ابن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن ابن سعيد — لا أسعده الله — فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله ، وتلقب

بالمهدى ، وهو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب ، وأن ذلك باطل وزور .. ، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة .. ، قدعطلوا الحدود ، وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية .

وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة » .

والواقع أن نظرة واحدة إلى هذا المحضر ، تكشف عن اضطرابه وزيفه ، إذ ليس فيه براهين ، وإنما قدح وترهات ملؤها التعصب ، بحيث لم يُخرجوا الفاطميين فقط من النسب الشريف ، بل وأنهم راحوا يخرجونهم من الإسلام قاطبة . وقد رأى المؤرخ الحصيف ابن خلدون فى مقدمته(٥٥) ، أن العباسيين طعنوا فى نسب الفاطميين ، بسبب أن الفاطميين شاركوهم دولتهم ، أما من وافقهم على ذلك فهو من باب التزلف ، وأن شهادتهم كانت على السماع ، تصديقاً لأحاديث ملفقة . ولدينا مقالة شيقة من الأمير الهولندى مامور « Mamour(٥٦) » ، يناقش فيها سبب ظهور هذا الطعن فى عهد الحاكم ، وذلك فى كتابه الممتع : « Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs » ، يلخصها فى البنود الآتية :

١ — الكراهية المتأصلة فى العباسيين .. من نسل علىّ وفاطمة .

٢ — المرارة من مقاسمة الفاطميين أملاكهم ، وذلك حينما هددوا سلطانهم .

٣ — الحقد الذى تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين ، كمركز للعلم والثقافة والفن والأدب الإسلامى .

٤ — الخوف من امتداد سلطان الفاطميين لما بقى من أيديهم .

٥ — الفرصة مؤاتية لاختلاف العلويين وتفرقهم بين فرق مختلفة .

٦ — إمكان التأثير على بعض العلويين فى بغداد ، وضمهم لجانبهم .

٧ — كذلك البويهيون لايمانعون ، لأنه قد نالهم الضعف ، فقدروا الخطر الفاطمى حق قدره .

٨ — إمكان إثارة العناصر السنية التى توجد فى البلاد التى امتلكها الفاطميون .

٩ — إعلان هذا المحضر من شأنه أن يضعف نفوذ الفواطم ، ولاضرر منه على العباسيين .

١٠ — ملاءمة الوقت لوجود خليفة متعصب هو الحاكم .

ولكنّا نلاحظ فى الطعن أيضاً ، أن العباسيين نسبوهم إلى أصل مجوسى ، وعلى الخصوص إلى شخص غامض اسمه: ديصان بن سعيد . ولدينا معلومات أخرى عن هذا الشخص ، فهو ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، كان مولى جعفر ابن محمد الصادق ، وكان من الأهواز بفارس[٥٧] ، والقداح هو كحال يقدح العين إذا نزل فيها الماء . وربما يكون الطعن بنسبتهم إلى هذا الشخص بالذات ، لأن القرامطة قبلهم — لما حاربوا الفاطميين — قد نسبوهم إليه[٥٨] . بل إن الفاطميين أنفسهم ذكروا القداح فى كتبهم ، فقد تناقلوا أن محمد بن إسماعيل اختفى مع شخص اسمه ميمون القداح ، وابنه عبد الله[٥٩] ، وربما كان ميمون بذلك أول حجة للإمام المكتوم[٦٠] . ومما زاد الاضطراب هو أن الفاطميين لم يتكلموا عن أئمتهم فى دور الستر ، حتى بعد فترة الظهور ، ربما لأنه كان فى اعتقادهم أن فترة الستر موحى بها ، فكان إذا سألهم أحد عن

هؤلاء الأئمة المستورين لم يجيبوا ، وقالوا : « هم أئمة قهروا ، فتستروا ، ولم يؤمروا باظهارهم ولا ذكرهم لأحد(٦١) ، حتى أن علماء كباراً من الشيعة مثل الرازى والنعمان لا يذكرونهم . كما أن بعضهم تحدث عن هذه الفترة بما يحلو له ، بحيث جاء حديثهم مضطرباً ، فاختلف فى أسماء الأئمة وعددهم . كذلك ذكرت بعض كتب الفاطميين أن المهدى ليس هو الجد الحقيقى للفاطميين ، وإنما هو سعيد الخير الأب الروحى لأبى القاسم ، الجد الحقيقى لهم . ويذكر ابن حمّاد السنى ، أن أبا القاسم كان فى أيام أبيه يركب بالمظلة ، وباسمه كانت تنفذ الكتب والعهود ؛ مما يؤيد ما ورد فى هذه الكتب الشيعية(٦٢) . فيبدو أن العباسيين استغلوا فترة الستر ، وروايات الشيعة خاصة بالمهدى وولىّ عهده ؛ لكى يظهروا الفاطميين بمظهر المدعين للنسب الشريف .

مهما يكن ، فقد ظهر أثر هذا الطعن الرسمى بين سكان أملاك الفاطميين . ففى مصر يقول أبو المحاسن : إن الحاكم هان فى أعين الناس لكتابة العلماء فى المحضر ، وأنه قامت قيامته . وقد يكون هذا القول صحيحاً ، بحيث أنه لما شاع عن الحاكم دعوى الألوهية ، ازداد الناس سخرية منه . فنجد الحاكم يرد على ذلك ، بأنه كان يذكر نسبه فى كل جمعة وهو على المنبر يخطب ، لا سيما وأن الناس كانوا يدسون له رقاعاً مختومة بالدعاء عليه ، والسب لأسلافه(٦٣) . وفى الوقت نفسه ، أرسل الحاكم الأموال الجزيلة إلى من فى العراق من الولاة ليجتذبهم إليه(٦٤) ؛ كما وجه جهاز الدعوة الهائل لاجتذاب ملوك البويهيين ؛ فعين فى العراق والجزيرة حميد الدين الكرمانى ، الذى وصف بحجة العراقيين(٦٥) . وقد استطاعت دعوة الحاكم اجتذاب أهل الأماكن البعيدة فى أملاك العباسيين ، فكانت دعوته فى الهند قوية جداً ؛ فقد كان الفاطميون يرسلون إليها الدعاة منذ زمن الدعوة الأولى

أيام ابن حوشب كبير دعاتهم باليمن(٦٦) ؛ بحيث كون الشيعة فى الهند دويلات أشهرها المُلتان (٦٧) ، فكان حكامها يرسلون الهدايا وأموال الدعوة إلى أئمة الفاطميين بمصر . ولكن لما قامت دولة الغزنويين السنية على حدود الهند (أفغانستان) ، ثم توسعت باستيلائها على إقليم ما وراء النهر من السامانيين(٦٨) ؛ غزت دولة الغزنويين دويلات الشيعة ، بما فيها الملتان فى ٣٩٦ / ١٠٠٥(٦٩) . فحاول الحاكم استمالة حكام الدولة الغزنوية ، فكاتب محمود الغزنوى فى ٤٠٣ / ١٠١٣ ، ولكن محموداً مزق الكتاب ، وارسله إلى القادر ليطلع عليه(٧٠) . بل إن هذه الدولة فى عهد هذا الأمير الغزنوى ، عمدت إلى قتل الشيعة ، وأصبحت غزنة عاصمة بلاده ، مصيدة لكل شيعى من الهند أو من غيرها(٧١) .

يتبين أن الحاكم بذل مجهوداً مضنياً فى سبيل وقف حملة أعدائه السنيين فى العراق ، وأنه تحمل ثقل عدائهم السافر ، الذى لم يقع لأحد من الأئمة قبله .

*

أما سياسة الحاكم نحو بلاد الجزيرة العربية ، فقد اتسمت هى الأخرى بالنشاط والنجاح ؛ لا سيما وأن أهلها كانوا فى عداء طبيعى للعباسيين ؛ بسبب أن هؤلاء عادوا العنصر العربى ، باعتمادهم على الفرس ثم الترك من دونهم .

فمنذ وقت مبكر انتشر التشيع الإسماعيلى فى اليمن حوالى سنة ٢٦٨ / ٨٨١(٧٢) ، على يد أكبر دعاته وهما ابن حوشب ، الذى نزل جنوبى صنعاء ، وعلىّ ابن

الفضل ، الذى نزل قرب البحر الأحمر ، فزحفا بالجيوش وفتحا المدن ، فاشتهر ابن حوشب بالمنصور أو منصور اليمن ربما لسيطرته فيها ؛ كما أطلق الشيعة عليه فجر الدعوة المتنفس . وقد كان بُعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية ، ووعورة طرقها من أهم الأسباب التى حالت بين الخلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش لإنقاذها من دعاة الفاطميين ، فكان هؤلاء يخرجون من اليمن إلى كل مكان فى السند والهند ومصر والمغرب(٧٣) ، فابوعبد الله الشيعى الصنعانى خرج من اليمن إلى المغرب ؛ وهذا يدل على أهمية اليمن فى الدعوة . وكان الخلفاء الفاطميون أيضاً يفكرون فى الاستقرار باليمن ، وتكوين خلافتهم فيها ؛ بدلاً من إنشائها بالمغرب(٧٤) . ولكن الدعوة الشيعية باليمن لم تستمر فى نجاحها ، فعلىّ بن الفضل خرج على ابن حوشب ودعا لنفسه ، فحاربه ابن حوشب وانتصر عليه . ومع أن ابن الفضل مات مسموماً ، ولم يلبث ابن حوشب أن مات حوالى ٣٠٣ / ٩١٥ ؛ فإن أولاد ابن حوشب هم الآخرون انقسموا على أنفسهم ، ومنهم من دعا للعباسيين ؛ بحيث أن جعفر بن منصور اليمن هرب إلى المهدى بالمغرب(٧٥) ، نتيجة لسوء سياسة أخوته ، وخروجهم على الدعوة الفاطمية(٧٦) .

ولكن لا يعنى هذا أن الدعوة الإسماعيلية زالت من اليمن ؛ وإنما خرجت من بيت المنصور ، وتحولت سرية فى مناطق الجبال . فطوال عهد الخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر ، كان كل داعية باليمن ، يحافظ على حسن العلاقة بينه وبين الإمام الفاطمى الحاضر ، ويحرص على أن يأتيه التعيين الرسمى منه ؛ كما يرسل له مال المستجيبين لدعوته . وربما قويت الدعوة الإسماعيلية عن ذى قبل فى عهد العزيز ، حيث نسمع أنه خُطب له باليمن .(٧٧)

وقد كان الحاكم مثل سابقيه من الأئمة يغذى الدعوة باليمن ، فيتبادل

مع دعاته فيها الرسائل والبعوث . ولدينا سجل أرسله الحاكم إلى هارون ابن محمد بن رحيم فى ٣٩١ / ١٠٠١[٧٨] ، الذى تولى الدعوة منذ زمن العزيز ، يبلغه الحاكم فيه بوصول مال الدعوة من ذهب وقرابين ، وينقل إليه أوامره إلى الدعاة الآخرين ، ويعلمه بارسال رسول من قبله إليه . وبعد موت هارون خلفه داعية آخر اسمه يوسف بن أحمد بن الأشج أو الأمشج ، ثم خلفه سليمان ابن عبيد الله بن عامر الزواحى[٧٩] ، . ولقد استمر هذا الأخير يدعو للحاكم وابنه الظاهر ، وعلى يده قويت دعوة الإسماعيلية ؛ مما مهد إلى عودة الدولة الإسماعيلية باليمن من جديد فى عهد المستنصر بن الظاهر .

كذلك كانت الدعوة الإسماعيلية قد نجحت فى البحرين ، وهى البلاد التى تقع بين البصرة وعُمان على الخليج الفارسى[٨٠] . وقد بلغت الدعوة غاية نجاحها على يد القرامطة الأوائل ، مثل أبى سعيد الجنابى ، وابنه أبى طاهر ، بتأسيسهما دولة إسماعيلية قوية كما ذكرنا[٨١] . ولكن كان قد ظهر بين القرامطة منذ أيام أبى طاهر فريق مناهض للفاطميين ، وقوى بعد موت أبى طاهر ، الذى لم يترك إلا عشرة أبناء صغار . فقام أحمد بن أبى سعيد الجنابى ، المسمى أبا منصور بالوصاية على سابور بن أبى طاهر ، حيث ظلت علاقة القرامطة بالفاطميين غير واضحة زمن وصايته إلى سنة ٣٥٨ / ٩٦٩ ؛ وهى السنة التى غزا فيها المعزّ مصر ؛ فقبض سابور على عمه أحمد ، غير أن أحمد توفى بتدبير شيعة سابور ، ولكن الحسن بن أحمد — المعروف بالأعصم — قتل سابور فى ٣٥٩ / ٩٧٠ ، وأوقع باتباع الفاطميين ، وخرج فى حملة على الشام ومصر ، حيث صدهم المعزّ . ومع أن هذا الأخير كتب إلى الأعصم كتاباً طويلاً يدعوه فيه للموادعة والطاعة لإمامه ، فإن الأعصم قد استمر فى عدائه[٨٢] .

ولكن لما حارب العزيز افتكين ، استنجد افتكين بالأعصم القرمطى ضد جوهر ، وهزموه . فلما خرج العزيز بنفسه وهزم افتكين والقرمطى ، الذى هرب إلى الرملة بأرض فلسطين . فأرسل العزيز — الذى صالح افتكين واستماله إليه — يعرض الصلح على القرمطى بمبلغ ثلاثين ألف دينار تحمل له ولأصحابه كل سنة ، ويعده بالصفح ، وتكون له الطاعة : فقبل القرمطى شروط العزيز ، وذهب جوهر بنفسه إليه ، واستحلفه بالطاعة للعزيز ، فعاد الأعصم إلى الأحساء بالبحرين[٨٣] . وقد كان المال يحمل إلى القرمطى كل سنة إلى وقت وفاته ، الذى ذكر بعض المؤرخين أنه عام ٣٦٦/٩٧٧[٨٤] .

وقد ترتب على هذا الصلح أن عاد القرامطة إلى الفتنة ضد العباسيين أعداء الفاطميين ، لاسيما وأنه بعد موت الأعصم ، اشترك بنو أبى طاهر من شيعة الفاطميين مع بنى أحمد بن أبى سعيد فى حكم البحرين ، وكانوا يعرفون بالسادة[٨٥] . فهاجموا فى العراق البصرة فى ٣٧٤/٩٨٤ ، والكوفة فى ٣٧٥/٩٨٥ ؛ كما لم يحج أحد من العراق خوفاً من القرامطة فى ٣٨٤/٩٩٥ ، وعادوا إلى مهاجمة البصرة فى ٣٨٥/٩٩٦[٨٦] . على العموم ، لايبدو أن الحاكم قاسى من عداء القرامطة ، كما حدث فى عهدى المعزّ والعزيز قبله ؛ بل ساعده القرامطة فى عدائه ضد العباسيين ، الذين كانوا قد قووا بضعف البويهيين ؛ وإن كان لا يظهر إطلاقاً أن القرامطة انضموا إلى دعوة الحاكم .

أما فى الحجاز وسط الجزيرة العربية ، فقد كان هم الفاطميين أن يُدعى لهم فى الحرمين ، بسبب أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من كان ملكاً للحرمين[٨٧] ، وذلك لأن الحجاز هو قبلة المسلمين جميعاً . فوجدت منافسة شديدة بين خلافتى العباسيين والفاطميين ؛ لاسيما منذ أن ظهرت هذه

الأخيرة ، تسعى كل منهما إلى أن تكون الخطبة لها ؛ لتوطيد نفوذها فى دار الإسلام .

ولا يبدو أن التشيع الإسماعيلى لقى فى الحجاز مثل النجاح الذى لقيه فى اليمن أو البحرين ؛ وإنما ظهرت فى الحجاز أسر شيعية غير إسماعيلية ، فى أثناء حركة انتشار التشيع الإسماعيلى فى أنحاء الجزيرة الأخرى . فظهر بنو حسن أو الحسنيين أو الطالبيين بمكة[٨٨] ؛ حيث كونوا فيها دولة السليمانيين نسبة إلى بنى سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علىّ ، فخطبوا لأنفسهم فى خلافة المقتدر العباسى فى ٩١٣/٣٠١ . ولكن القرامطة الإسماعيلية استولوا على مكة أثناء توسعهم فى ٩٢٩/٣١٧ ؛ إلا أن انشغالهم بالسيطرة فى أماكن أخرى ، مهد لعودة مكة إلى نفوذ العباسيين ، عن طريق ضمها إلى الاخشيديين ولاة مصر[٨٩] . ثم عاد العلويون من بنى حسن ، وأسسوا فيها دولة عرفت بالموسوية نسبة إلى موسى بن عبد الله بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، وكان هؤلاء يدعون للخلفاء العباسيين . أما فى المدينة ، فتأسست فيها دولة الحسينيين العلوية ، على يد محمد بن طاهر من نسل الحسن بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ فى ٩٧١/٣٦٠[٩٠] . وقد كانت محاولة الخلافة العباسية السيطرة فى هذه البلاد من ناحية ، والنزاع بين الحسنيين والحسينيين من ناحية أخرى ، أن جعل الحج فوضى ؛ بحيث أنه هلك ركب الشام والمغرب فى ٩٦٦/٣٥٥ ؛ ولم يحج أحد فى ٣٦٨/٣٥٧[٩١] .

مهما يكن نجد المعزّ فى نفس الوقت — الذى كان يستعد فيه لغزو مصر — يتدخل بطريق مباشر فى وقف فوضى الحج ؛ نتيجة لنزاع بنى حسن وبنى الحسين ، فأرسل إليهما الأموال الطائلة لشراء ديات المقتولين من

الطرفين فى ٩٥٩/٣٤٨[٩٢] ، مما مهد إلى عقد السلام بينهما ، والدعوة للخليفة المعز ّ فى الحرمين ، وإسقاط الدعوة للعباسيين . ولا ريب أنه كان من أسباب سير الفاطميين إلى الشرق ، هو عزم المعز ّ على تأمين الحج .

وقد جر الاعتراف بالمعز ّ الفاطمى فى الحجاز أن أصبحت الكسوة تذهب من مصر إلى الكعبة ، عندما جاء المعز ّ إلى مصر ، واستمر إرسالها إلى وقتنا الحاضر ، بعد أن كان يرسلها العباسيون من العراق . ويصف لنا المقريزى الكسوة التى أرسلها المعز ّ ، وتسمى الشمسية[٩٣] ؛ وهى من الحرير الأحمر ، ثبتت فيها الأهلة من الذهب ، وكتبت فيها آيات الحج بزمرد أخضر ، ورُصعت بالدر كبيض الحمام ، والياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وبُخرت بالمسك ، وقبل إرسالها نصبت فى أعلى مكان فى قصر المعز ّ بالقاهرة . ويذكر الرحالة ناصرِ خسرو أيضاً أن الفاطميين كانوا يقومون بالدعوة إلى الحج ، فكان إذا ما حل موسم الحج قرئت فى مساجد مصر مراسيم الحج ، وهى : « يا معشر المسلمين ، حل موسم الحج ، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد ، ومعه الأجناد والخيل والجمال والمؤن اللازمة »[٩٤] . والواقع أن خلفاء الفاطميين ، كانوا يبالغون فى تجهيز قوافل الحج ، فقد بلغ أحياناً ما ينفق عليها مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وأحياناً مائتى ألف[٩٥] . وقد كان الحجاج ينزلون قبل مسير القافلة ، فى منطقة بركة الحجاج ، فلا تسير قوافلهم إلا فى حضرة الخليفة ، الذى يودعهم بنفسه[٩٦] . ومن الطريف أن نذكر أنه لم يحج أحد من خلفاء الفاطميين ، كما لم يحج أحد من خلفاء العباسيين منذ هارون الرشيد ؛ وإن كنا نقر بأننا لا نعرف السبب فى ذلك ، بالنسبة للخلافتين[٩٧] . وعلى العكس نجد أن ما قام به الفاطميون فى سبيل تأمين

الحج ، أدى أيضاً إلى تسهيل حج العراقيين ، فكان البويهيون يعينون أميراً للحج من العراق[٩٨] .

ولكن الحجاز خرج عن السيطرة الفاطمية فى عهد الحاكم حوالى سنة ١٠٠٩/٤٠٠ ، حينما أعلن أمير مكة أبو الفتوح بن جعفر الحسنى الخطبة لنفسه[٩٩] ، وتلقب بأمير المؤمنين الراشد بالله ، ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة وضرب نقوداً باسمه ؛ كما استولى على المدينة من الحسينيين . وربما يكون سبب ذلك تحريض الوزير علىّ بن الحسين المغربى ، الذى غضب عليه الحاكم لسوء تصرفه ؛ فهرب إلى مكه واجتمع بأبى الفتوح ، فحمله على الخلاف . وكذلك نجد أبا الفتوح — تحت تحريض عرب الشام — يعمل على غزو مصر ، فلما وصل إلى الشام ، أجابته طىء ، وخلق عظيم من عرب الشام ، وخطبوا له . وقد استخدم أبو الفتوح ما كان يدفعه الحاكم من أموال لمساعدة عرب الحجاز ، فى استمالة العرب فى الشام ؛ كما أنشأ كتاباً قرىء على الناس بألا يقبّل له أحد الأرض ، وخطب فى الناس خطبة وصف فيها الحاكم بأنه فرعون علا فى الأرض ، جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم من كانوا يحذرون » .

ولكن الحاكم أسرع إلى العمل ، فاستمال العرب ؛ لاسيما وأن مال أبي الفتوح كان قد نفد ، فتفرق العرب عنه . وقد فكر حسان بن المفرج في القبض على أبي الفتوح ، والوصول به إلى الحاكم ، ولكن أباه المفرج رفض رأى ابنه . كذلك ولى الحاكم الحرمين أحد بني عم أبي الفتوح ، ويُعرف بأبي الطيب ، وأنفذ لشيوخ بني الحسن مالاً وثياباً ؛ بحيث بدأوا في الهجوم على مكة . فلما رجع أبو الفتوح إلى بلاده ؛ اجتمع بالناس ، واشهد بخلع نفسه ، وأن الإمامة للحاكم ؛ متنصلاً مما اقترف طالباً العفو . فصفح الحاكم عنه ؛ ومالبث أن جاء مصر راكباً حماراً ، فأمر له الحاكم بالكساء وأنعم عليه . أما الوزير المغربي ؛ فإنه هرب إلى العراق ، وأرسل هو الآخر قصيدة يطلب فيها الصفح ؛ فصفح الحاكم عنه ، ودعاه إلى الحضور ؛ إلا أنه مات قبل أن يحضر .

وفي آخر سني الحاكم ، الذي وجه كل همه إلى إصلاح عقائد المذهب ، كان لايهتم بما يحدث في مكة ، التي تغلبت على أحوالها العرب . ولكن الحاكم عطل قوافل الحج عدة سنوات ؛ حرصاً على سلامة الحجاج ، كما انقطع عن إرسال الكسوة ، التي جرت العادة بتجهيزها ، وإن كان أعداء الحاكم نسبوا تصرفه هذا ؛ إلى إنحرافه عن الدين كما ذكرنا(١٠٠) .

٭

كذلك واجه الحاكم خطراً مفاجئاً ، جاء هذه المرة من غرب مصر ، كاد يقتلع خلافة الفاطميين من أساسها . وكان تغلب الحاكم على هذا الخطر ، مثبتاً أنه لايقل جدارة عن جده المعزّ ، الذي قضى على خطر القرامطة من قبل .

فنعلم أن الفاطميين كان هدفهم المشرق ، وأنهم تركوا المغرب مسرعين

إلى مصر ؛ ليتخذوها قاعدة لهم فى تنفيذ خططهم فى المشرق ، إذ لم تكن بلاد المغرب إلا خطوة تمهيدية فى البرنامج الذى وضعوه لهم . وقد وجد المعزّ أن خير وسيلة للاحتفاظ بالمغرب للفاطميين — وهم فى مصر — أن يحكمه أبناء من المغرب ، مخلصين لبيته ؛ خصوصاً وأن المغرب لم تحكمه أسرة مغربية على كثرة ثوراته منذ الفتح العربى ، وإنما كانت دائماً تحكمه أسر تأتيه من الخارج من شيعة وخوارج . فأراد المعزّ أن يعبر عن جميله للمغاربة ، الذين أنشأوا دولته ، بأن يترك شئون المغرب لأحد المغاربة . ولم يولِّ المعز حاكماً من كتامة ، مع أنها أشد القبائل المغربية تعلقاً بالدولة — كما يظهر من توقيعات الخلفاء — بحيث كانوا كالخراسانيين للعباسيين ، حتى يقول المنصـــور أبو المعزّ : « يا أهل دعوتنا ، يا أنصار دولتنا ، يا كتامة[١٠١] » ، وذلك لأن المعزّ أخذ معظم كتامة معه إلى مصر . ولكن ولى المعزّ المغرب لقبيلة صُنهاجة بالذات[١٠٢] ؛ لأنها كانت من أعظم القبائل ، ولم تكن مجرد قبيلة ، وإنما كانت شعباً عظيماً ، يتألف من بطون بلغت السبعين ، وهى قوة هائلة تملك المغرب حتى أواسطه ، وتنقسم قسمين عظيمين ، أحدهما قريب من الساحل ، والآخر يسيطر على جنوب المغرب ، حتى السودان . يضاف إلى ذلك ، أن صُنهاجة أظهرت إخلاصاً أيام نشأة دولة الفاطميين ، إذ كان معظمها من الحضر أو ما يعرف بالبرانس — ربما لتميزهم بزى البرنس — فى عداء طبيعى ضد البـــدو أو البتر ، لاسيما قبيلة زناتة ، أنصار الأمويين بالأندلس ، أعداء الفاطميين .

وقد وقع اختيار المعزّ على أبى الفتوح يوسف بن زيرى بن مَناد الصنهاجى[١٠٣] ، الذى كان أبوه زيرى قد أظهر إخلاصه أثناء ثورات البتر عليهم[١٠٤] . وقد عرف يوسف أيضاً باسم بُلُكّين أو بُلُقّين ، كما منحه المعزّ لقب

أمير إفريقية فى ٣٦١/٩٧٢ ، فكان يوسف مؤسساً للدولة الزيرية . وقبل أن يترك المعزّ المغرب ، وضع شروطاً عليه[١٠٥] ، تكفل بقاءه وخلفه من بعده خاضعين للخلافة الفاطمية . فجعل القضاء والخراج تابعين له ، بحيث أن سجلات القضاة بمصر ، كانت تشمل المغرب ؛ كما أن تكون العملة باسم خلفاء الفاطميين . وفى الوقت نفسه ، فصل طرابلس وأعمالها ، وجعل عليها أحد الكتاميين . وكذلك رسم السياسة التى يجب أن يسير عليها يوسف ، وهو عدم رفع السيف أو الجباية عن البتر من أهل البادية ، ومعاملة البرانس « أهل الحاضرة » معاملة خاصة ، وكافه بأن يقوم بحمله ضد البتر لإرهابهم ، حتى لا ينتهزوا فرصة خروجه إلى مصر للاستيلاء على المغرب . واخيراً أمره ألا يولى أحداً من اخوته و بنى عمه ؛ فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منه .

وقد أبقى بُلكين على سياسة الود للمعزّ ، بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، واستمر على إخلاصه للعزيز بن المعزّ ، فأعلن بلكّين للعزيز الطاعة ، وأرسل إليه هدايا صحبها بنفسه إلى مسافة طويلة فى ٣٦٥/٩٧٦ . وقد كان بُلكّين يجمع المال ويرسله إلى العزيز ، الذى كان يرده إلى أصحابه ، زيادة فى استمالته[١٠٦] . وفوق ذلك ، نفذ بُلكّين سياسة المعزّ ، فكان يغزو البتر ، وكانت سجلات العزيز تشجعه على ذلك ، وتصله بالبريد[١٠٧] ؛ بحيث بقى يجاهد فى بلاد المغرب حتى استولى على أغلبه ؛ كما أخاف دولة الأمويين — عدوة الفاطميين — بالأندلس .

كذلك استمرت العلاقة ودية بين خلف بُلكّين وخلفاء الفاطميين . فبعد موت بلكّين ، وافق العزيز على تولية المنصور بن بلكين فى ٣٧٤/٩٨٤[١٠٨] ؛ كما أنه وصل سجل بولاية العهد لأبى مناد باديس فى ٣٨٢/٩٩٢ ،

وأرسل العزيز للمنصور هدية قيمة ، ومعها فيل عظيم ، وبعض رءوس القتلى من الروم ، لتعرض فى بلاده . ولما توفى المنصور فى ٣٨٦/٩٩٦ — وهى نفس السنة التى توفى فيها العزيز — وصل سجل التولية من الحاكم بولاية أبى مناد باديس[١٠٩] ، ولقبه الحاكم بنصير الدولة ، وسجل آخر يخبره فيه بوفاة أبيه العزيز ، ، وثالث لأخذ البيعة للحاكم . فجلس أبو مناد ، ودعا صنهاجه ، وأخذ عليهم الطاعة للحاكم .

ولكن بوادر الفتور بدأت تظهر بالمغرب ، وهى لم تظهر من الأملاك التى كانت تحت نفوذ الزيريين ، وإنما من أملاك مصر فى برقة (أنطابلس) وطرابلس (أطرابلس[١١٠]) ؛ وهى المنطقة التى كانت تمتد من حدود مصر حتى إفريقية (تونس) . فهذه البلاد كانت خاضعة لحكام مصر منذ الفتح العربى ، وسكنتها قبائل بربرية — مغاربة — معظمها من السنة ، مثل مزاته وزناته ومغراوة ، ولا سيما لواته التى سكنت برقة منذ الفتح العربى ، وتفرقت منها فى المغرب ، وبلغت أقصاه[١١١] . ولما جاء الفاطميون فى إفريقيه ، ضموا طرابلس ؛ وملكها المهدى بسبب إهمال ولاة مصر من قبل العباسيين ؛ فأرسل إليها ولى عهده أبا القاسم فى ٣٠٣/٩١٥ ؛ وأبقى والياً عليها من قبله ؛ ثم ضم برقة أيضاً[١١٢] . فكان والى برقة فى أيام المعز أفلح بن ناشب ، ووالى طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى[١١٣] .

ولكن بلكين طلب من العزيز أن يضيف إليه ولاية طرابلس فى ٣٦٧/٩٧٧[١١٤] ؛ فأجابه العزيز إلى ملتمسه ، فكان بلكين يعين فيها نائباً عنه . فلما توفى بلكين وخلفه المنصور ، أقر العزيز المنصور على ولايتها . ولكن تعصب برجوان — وصى الحاكم — ضد المغاربة كما ذكرنا ، آثار اضطراباً

فى هذه الولاية . وقد جاءت المناسبة لبرجوان ، حينما أراد حاكم طرابلس من قبل باديس واسمه عصولة بن بكار ، تسليم طرابلس بدون علم باديس إلى الحاكم ، فإذن الحاكم لعصولة بالإلتجاء إلى مصر ، وأرسل يانساً العزيزى — وهو صقلبى — فاستولى على طرابلس . فحارب باديس يانساً وهزمه فى ٣٩٠ / ١٠٠٠ ؛ فأرسل الحاكم جيشاً لتأييد يانس . ويبدو أن الأحوال أصبحت فوضى فى هذا الإقليم ؛ بدليل أن الحاكم أرسل جيشاً من مصر إلى طرابلس فى ٣٩٢ / ١٠٠٢ ، ولكن الجيش رجع ؛ وأن قبيلة مغراوة أرادت أن تسترد طرابلس لباديس، ولكنها لم تنجح(١١٥) . وعلى العكس ، يبدو أن برقة استمرت دائماً خاضعة للفاطميين ، فولّيها فى عهد الحاكم صندل الأسود فى ٣٩٤ / ١٠٠٤(١١٦) .

هذه الحالة القلقة شجعت أحد الثوار من أعداء الفاطميين على الثورة فى برقة ، وهى محاولة الوليد بن هشام (هاشم)(١١٧) ، الذى انتسب إلى بنى أمية من بنى مروان ، فهو الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل . فلما قبض الوزير المستبد المنصور بن أبى عامر على السلطة فى عهد المؤيد الخليفة الأموى بالأندلس ، أخذ يتعصب ضد أهل المؤيد ، فكان أبو ركوة ممن هربوا من الأندلس . فجاء الوليد إلى مصر ، وسمع الحديث بها ، ثم أقام بمكة ، وسار إلى اليمن ، وعاد إلى مصر قبل أن ينتقل إلى القيروان ، ومنها إلى برقة . وقد عرف الوليد بأبى ركوة ، لأنه كان يُظهر النسك ويحتفظ بركوة معه على عادة الصوفية ؛ وربما كانت هذه التسمية من تلقيب أهل مصر له ، إذ جروا على عادة السخرية من أعدائهم(١١٨) .

واستطاع أبو ركوة أن يجمع عناصر غاضبة على الفاطميين بين البربر السنيين القاطنين بها ؛ وبين قبائل عربية كانت ببرقة . يُضاف إلى ذلك أن قبائل

زناتة من البتر ، عدوة الفاطميين وأنصار الأمويين بالأندلس ، كانت قد تسربت إلى طرابلس أثناء النزاع بين يانس وباديس . وساعد على ذلك أن أبا ركوة قد عمل معلماً لأولادهم ، فأخذ يحرضهم على الحاكم ، وأظهر أن غرضه ليس إلا نصرة الإسلام ، والثأر لأصحاب الشريعة ، الذين يسبهم الحاكم ؛ بحيث أن أهالى برقة انضموا معه فى حرب عسكر والى الحاكم ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ / مارس — ابريل ١٠٠٥ .

وقد بدأ أبو ركوة حركته فى برقة ، بالاستيلاء على عدة بلاد فيها مثل مقة من أعمال برقة ، التى قتل من فيها . ثم ذهب إلى قرنة — لعلها قيريني — مدينة عامرة ، فحاول أهلها الدفاع عنها ، ولكن القبائل البربرية الجائعة اقتحمتها ، وقتلوا من فيها ، وهدمها أبو ركوة . ثم سار نحو برقة نفسها ، فقاتله عسكرها قتالاً شديداً ، ودفعوه أول الأمر . وفى أثناء ذلك ، جاء عسكر من البربر اللواتيين ، فأسرع أبو ركوة بمقابلتهم ، ووقع قتال شديد بينهما ، واضطرها إلى التفرق فى الشعاب . ثم عاد بنفسه لحصار برقة بشدة ، وكان أهلها قد بنوا السور والخندق ، وقاتلوه قتالاً شديداً ، مع أنه فرق العسكر على السور ، ونصب عليه المنجنيقات والعرادات لذلك السور . وقد ضيق على أهلها ، واشتد بهم الجهد ، وماتت الخيل ، وبقيت برقة عدة شهور محاصرة .

وحاول الحاكم أن يستدرجه ، فأمر بعض المغاربة بالكتابة إليه[١١٩] ، ولكن دون جدوى ؛ فجهز الحاكم لحربه جيشاً من المشارقة والمغاربة بقيادة ينال أحد قواد الأتراك . فلما سمع أبو ركوة بأخبار وصول ينال ومن معه ، أضرم النيران فى المنجنيقات والعرادات ، ونادى بالرحيل رافعاً الحصار عن برقة ، قاصداً ينال . ولم يكن ينال على معرفة بطبوغرافية

الأرض التى يحارب عليها ، فضلله أتباع أبى ركوة ، وساروا به بين التلال العالية ، حيث هاجمه أبو ركوة فى موضع يعرف بعيون النظر ، بإلقاء الصخور من على التلال . ثم إن حماس المغاربة للقتال تحت راية أحد قواد الأتراك المشارقة كان ضعيفاً ، بخاصة وأن الفاطميين منذ العزيز بدأوا يتحولون عن المغاربة وأحلوا المشارقة مكانهم ؛ فضلاً عن أن جيش أبى ركوة معظمه من المغاربة ، فتخاذل مغاربة ينال وفروا . فوقع ينال أسيراً فى يد أبى ركوة ، الذى أمره بلعن الحاكم ، فلما رفض بأن بصق فى وجه أبى ركوة ، أمر به أبو ركوة فقطع إرباً إرباً .

وقد ترتب على هزيمة ينال أن سلم أهل برقة المحاصرون ، إلى أبى ركوة فى ذى الحجة من سنة ٣٩٥ / يوليو ١٠٠٥ ، كما خرج منها رجال الحاكم وواليه صندل عن طريق البحر ؛ فتوجه بعضهم إلى مصر ، وبعضهم إلى المغرب . فلما دخل أبو ركوة برقة انتقم من الشيعة فيها ؛ فتتبعهم بالفتك ، كما نهب كل ما فى البلدة : بحيث أصبح أهل البادية الذين معه بعد فقرهم من أصحاب الجوارى والكساء والخيل . وقد أعلن أبو ركوة فى برقة مذهب السنة ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر للدين ، ونقش ذلك على سكته (العملة) . كذلك استخلف على برقة رجلاً بربرياً اسمه ابن ما واس ، الذى أساء الحكم ، بحيث أكل الناس بعضهم بعضاً فيها ، واضطر معظم أهلها إلى الخروج منها بنسائهم وأولادهم إلى الاسكندرية . فأرسل الحاكم إلى أبى ركوة جيشاً معظمه من المشارقة بقيادة فاتك ؛ فلما سمع به أبو ركوة أرسل إليه جيشاً قاتله وهزمه فى جهة اسمها الحمام .

وبعد ذلك ، نهض أبو ركوة إلى مصر فى رمضان ٣٩٦ / يونية ١٠٠٦ ، ومعه عساكر كثيرة من كل البقاع ، وقبائل جائعة يجتذبها غنى مصر ، لا سيما

وأن أبا ركوة اعتبر أرض مصر دار حزب للكفار ، ومنح جنده حق النهب واستباحة الحرمات فيها . فتوجه أبو ركوة لحصار الإسكندرية ، فخرج إليه عسكر الحاكم فيها وهزموه ، فانتشر بجنده فى قرى مصر ينهبونها ويهتكون حريمها . ولكن استفحل أمر أبي ركوة ، حينما انضمت إليه قبائل من العرب عديدة من ريف مصر ، مثل بنى قرّة فى نواحى الاسكندرية بالبحيرة(١٢٠) ، الذين كان الحاكم قد حاربهم بعساكره ، وحبس منهم جماعة من أعيانهم ، وقتل بعضهم فى ٣٩٥ / ١٠٠٤ — ١٠٠٥ . كما انضم إلى أبى ركوة عرب كانوا قد جاءوا مع القرامطة مثل سليم وبنى هلال(١٢١) ، الذين نقلهم العزيز إلى الصعيد . وقد كان أبو ركوة يقطع من اجتمع إليه من الأعراب الضياع ، ويكتب لهم السجلات . ويبدو أن العرب جميعهم اتفقوا ضد الحاكم ، بحيث اقتسموا ملكه ، فيأخذ أبو ركوة والمغاربة مصر ، والعرب يأخذون الشام(١٢٢) .

فجهز الحاكم من جديد جيشاً كبيراً من عرب الشام أعداء البربر ، وفيه كثير من الترك والديلم والسودان ، بقيادة الفضل بن الحسن بن صالح (أو الفضل بن عبد الله) . وقد ذكر المؤرخون أن الحاكم تنازل وقتئذ عن شدته مع المصريين فى شئون الحسبة(١٢٣) . كذلك أقبل المصريون على الانضمام إلى جيشه ، لما رأوا من تخريب جيش أبي ركوة ، الذى ذكرهم بتخريب القرامطة ، كما وضعوا أموالهم كلها تحت تصرفه(١٢٤) . ونجد من معاونة المصريين للحاكم لصد هذا الخطر ، أن الأسعار توقفت عن الزيادة(١٢٥) ؛ مما يدل على أنهم لم يزيدوا الحالة سوءاً للحاكم . ولدينا روايات مغرضة تذكر ان الحاكم وقتئذ عزم على الفرار إلى الشام ، ونقل خزائنه إلى بلبيس إلا أنه أشير عليه بالعودة فعاد(١٢٦) . وعلى النقيض تذكر روايات أخرى أن

الحاكم كان يتميز بالثبات والشجاعة ، فكان يدعو الناس للجهاد ، ويخطب على المنابر . ولا ريب فالحاكم كان هو الخليفة الوحيد الذى كان يسير وحده فى القرى والفلوات ، مما يدل على شجاعته(١٢٧) .

على العموم ، هزم جيش الحاكم أبا ركوة فى الفيوم ، فانسحب أبو ركوة إلى الجـيّزة بقصد أخذها ، بحكم أن جنود الحاكم فى الفيوم . فجاء إلى أبى ركوة عامل الجيزة بما فيها فهزمه ، فاضطر أبو ركوة العودة إلى الصعيد ، منتظراً أن يأتيه المدد من كل مكان ، لا سيما من عرب الصعيد . فرجع أبو ركوة بأكثر من سبعين ألفاً بين فارس وراجل لمقاتلة الفضل بن الحسن ، الذى كان قد رجع إلى القاهرة ، فحدثت موقعة فاصلة فى مكان يعرف برأس البركة ، حيث منع أبو الفضل العرب من الاشتراك فيها ، فانهزم أبو ركوة ومن معه من العرب ، وقتل أكثر البربر ، وتفرقت الطوائف التى انضمت إلى ابى ركوة وجاءت إلى الحاكم تائبة ، ولم يفلت إلا نفر قليل من النساء والصبيان حُملوا أسرى إلى القاهرة ، وأطلق سبيلهم ، لا سيما وأنه كان قد تفشى فيهم الجدرى والوباء .

ولكن أبا ركوة هرب إلى النوبة ، وكان ملكها قد توفى ، فسلمه ابنه واسمه روفائيل إلى الفضل(١٢٨) ، وذلك بناء على هدنة البقط التى كانت قد عقدت منذ أيام عمرو بن العاص ، ونصت على تسليم الهاربين ، وربما حارب روفائيل أبا ركوة وهزمه لما قصد بلاده . وقد كان الفضل يريد تقديم أبا ركوة حياً إلى الحاكم ، فتركه يكتب إلى الحاكم يطلب منه العفو ، كما أحسن معاملته . فلما وصل به أبو الفضل إلى القاهرة ، احتفل الحاكم بهذا النصر المشهود من مكان مرتفع : فشهر بأبى ركوة على جمل ، وقد ألبس طرطوراً طويلاً ، وخلفه قرد وبيده درة . فتمكن حماس المنتصر فى أمم

الإسلام فى العصور الوسطى ، يُغريه أحيـــاناً بمسلك غير إنسانى . ولـكن حينما أُنزل أبو ركوة من على جمله كان ميتاً قد فقد روحه ؛ وإن كانت رواية أخرى تذكر أن أبا ركوة ضربت عنقه ، ثم رفع على الأعواد وصُلب ، وأشعل العود الذى صلب عليه . وبسبب هذا النصر جاءت الوفود إلى الحاكم مهنئة ، كما أرسلت البشائر إلى سائر الأعمال بقتل أبى ركوة(١٢٩) ، وذلك فى شهر جمادى الأخرى من سنة ٣٩٧ / فبراير — مارس ١٠٠٧ .

وبذلك تخلص الحاكم من خطر أبى ركوة ، ولعل السبب فى نجاحه هو ثباته ، ومساعدة المصريين له كما فعلوا أيام غزو القرامطة ، ولأن الخلافة الأموية فى الأندلس ، التى ربما كانت تؤيد أبا ركوة أصبحت على وشك السقوط ، وتغلب عليها ملوك الطوائف(١٣٠) ، فضلاً عن أن قبائل بنى قرّة العربية ، كانت قد اتفقت سراً مع قبائل عربية فى جيش الحاكم .

فى أثناء هذه الهجمات ، نجد موقف الزيريين غامضاً ، فلا نسمع عن مجيئهم لنصرة الحاكم ، كأنهم يرغبون فى ضياعه . وهذا ولا ريب يدل على أن دولتهم كانت تسعى للاستقلال ، ومن قبل أبدى ابن الأثير الملاحظة بأن بلـكّين هو أول أمير مستقل(١٣١) . كذلك قد يكون عدم وقوفهم بجانب الحاكم ، لأن الحاكم أساء معاملة المغاربة ، فضلاً عن أن جيش أبى ركوة كان معظمه من المغاربة .

وينقل إلينا المؤرخون أن باديس وصل إلى القاهرة فى طريقه للحج أثناء قيام ثورة أبى ركوة فى ٣٩٦ / ١٠٠٥ ، كأنه أراد أن يتخلص من الموقف الحرج . فسأل الحاكم باديس عن أبى ركوة ، فعظّم باديس حاله ، وذكر قوته وكثرة جموعه ، والحاكم صامت . فلما رجع باديس إلى مصر ،

واستأذن الحاكم فى المسير ، أخره الحاكم الذى كان قد انتصر على أبى ركوة ؛ ليشهده احتفالات النصر . ولعل الحاكم قصد بتأخير باديس إرهابه بطريق غير مباشر ؛ أو على الأقل عتابه(١٣٢) .

ومع ذلك بقى المغرب مرتبطاً برباط الود التقليدى بالحاكم . ففى سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ ، ذهب باديس إلى طرابلس واستولى عليها ، وأخرج منها زناتة عدوة الفاطميين(١٣٣) . وفى سنة ٤٠١ / ١٠١٠ ، أرسل الحاكم هدية إلى باديس وابنه المعز ، الذى تلقاها بالبنود والطبول . وفى سنة ٤٠٤ /١٠١٣ وصلت سجلات من الحاكم ، بإضافة برقة وأعمالها إلى باديس ، وتبادل معه خطاباً يبين له فيه أنه عين فى ولاية عهده ابن عمه عبد الرحيم . وفى سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ ، أخرج باديس بدوره هدية للحاكم ، كما وجهت أخت باديس هدية إلى أخت الحاكم(١٣٤) .

ونجد باديس ذهب لمحاربة بنى عمه الحمّاديين ؛ بسبب استقلالهم ودعوتهم للعباسيين . فقد كان باديس تناسى نصيحة المعزّ لجده بلّكين ، حينما كفل الدفاع عن المغرب الأوسط لعمه حمّاد بن بلّكين ضد البترزناته فى ٣٨٦ / ٩٩٦ . ولكن هذا الأخير — الذى كان يبنى القلاع — خرج عن طاعة ابن أخيه فى ٤٠٥ / ١٠١٤(١٣٥) ، وكون دولة مستقلة ، وكان يشجع زناته بطرابلس ضد باديس ، ولاسيما وأن حمّاداً كان متوحشاً يقتل الأطفال والنساء والأسرى . فذهب باديس ليعاقبه وهزمه ، إلا أنه توفى فى عام ٤٠٦ / ١٠١٥ ، فلما خلفه ابنه المعزّ ، عقد صلحاً ، على أن يقتصر حمّاد على ما فى يديه(١٣٦) .

ولكن فى ولاية المعزّ بن باديس ظهرت عوامل الفتور من الزيريين نحو الفاطميين ، مما مهد إلى رجوع الزيريين ورعيتهم إلى المذهب السنى .

ولكى نستقصى التحول عن مذهب الفاطميين، يجب أن نجده فى عقيدة أهل إفريقية (تونس)، على الخصوص قبل مجىء الفاطميين. فقد كان اعتقاد أهل إفريقية القديم على مذهب أبى حنيفة، ولكن سحنون بن سعيد[١٣٧]، الذى قدم القيروان فى ١٩١ / ٨٠٧، وألف كتاباً فى المذهب المالكى اسمه المدونة، أصبح يضارع كتاب الموطأ، عمل على زرع المذهب المالكى، الذى أصبح يتفق مع طبائع أهل إفريقية. والواقع أن أهل إفريقية أيدوا الفاطميين، لرغبتهم فى التخلص من حكم ولاة الخلافة العباسية، ومن الفوضى الضاربة فى بلادهم. ولكن بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، أصبح الزيريون ولاة الفاطميين يمثلون وحدهم المذهب الشيعى فى عاصمتهم المنصورية، أما فى القيروان وغيرها من مدن إفريقية، فقد عادت السنة ممثلة فى المذهب المالكى إلى قوتها. ولا ريب، فإن ضعف مذهب الفاطميين بإفريقيه، راجع إلى ما حدث من ضعف الفاطميين بغزوة أبى ركوة، وإلى انقسام صنهاجة بين زيريين وحماديين. وقد شد من أزر السنة، حتى فى المنصورية عاصمة الزيريين، أن المعزّ بن باديس كان صغيراً، فعمره حوالى ثمانى سنوات ونصف، فسيطر عليه فقيه سنى اسمه الحسن بن علىّ بن أبى الزجال، وأن الفاطميين لم يكن يعلمون ذلك عنه[١٣٨].

وقد كان مظهر الفتور حدوث مصادمات بين الشيعة والسنة، بحيث أن ابن عذارى يذكر أن الدم جرى غزيراً فى القيروان، فكانت السنة تهاجم الشيعة فى الأسواق[١٣٩]. وقد قلدت أغلب مدن إفريقية القيروان، مثل المهدية عاصمة الفاطميين السابقة، فانبسطت أيدى العامة فى الشيعة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأحرقوهم بالنار، ونهبوا ديارهم، بحيث حاول الشيعة الهروب إلى صقلية، وكانوا يسمونهم المشارقة، نسبة

إلى أبى عبد الله الشيعى الذى كان من المشرق . وربما كان المعزّ بن باديس نفسه حمل شعبه على مذهب مالك ، ويؤيد ذلك أن العملة التى صدرت بالمهدية ، مكتوب عليها : « محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق » ، ولا يظهر عليها عقيدة الفاطميين : « علىّ ولىّ الله(١٤٠) » .

ومع ذلك ، لم يصل الفتور إلى حد القطيعة ، بسبب أن الزيريين ، كانوا يعتمدون على تأييد الفاطميين ضد بنى عمومتهم الحمّاديين ، الذين اعتمدوا على تأييد العباسيين . ويبين ذلك أنه حينما أرسل الحاكم إلى المعزّ ، يستعلم عن سبب سفك دماء الشيعة ، أرسل المعزّ إلى الحاكم يعتذر عما حدث ، ويلقى اللوم على العامة ، الذين لم يستطع أن يكبح جماحهم(١٤١) . وكذلك لما طلب المعزّ من الحاكم أن يعدل عن اضطهاد المالكية — ربما للمقابلة بالمثل — عدل الحاكم عن ذلك مباشرة(١٤٢) . ونجد أن الحاكم وكان قد ألغى الألقاب ، إلا لقب المعزّ(١٤٣) ، كما نجد أن المعزّ يعلن للحاكم نهاية الخلافة الأموية بالأندلس ، وأن الحاكم يرسل إليه سيفاً مكللاً بنفيس الجوهر ، وخلعة من لباسه ، فلقى المعزّ هدية الحاكم فى أجلّ زى وأكمل هيئة ، فقرئ على المعزّ سجل التشريف ، ورد المعزّ على الحاكم رداً هائلاً(١٤٤) .

مما سبق ، يظهر أن عوامل الإنفصال ، أو ما سماه أحد المؤرخين الحديثين بالطلاق بين المغرب والمشرق ، قد بانت بوادرها فى عهد الحاكم ، إلا أن دبلوماسية الحاكم الرشيدة ، هى التى أخرت وقوعها ، بحيث أن خلفه لم يستطيعوا وقفها كما فعل هو ، مما يدل على تميّزه .

وإذا تكلمنا عن سياسة الحاكم فى المغرب ، يجب أن نذكر صِقّلّيّة ، وهى جزيرة مثلثة الشكل مقابلة لساحل المغرب . وقد سعى المسلمون إلى السيطرة عليها منذ أن فتحوا المغرب ، وقدروا أهمية موقعها الجغرافى ؛ لقربها منه ، لا سيما وأن الروم كانوا قد اتخذوا من موانيها قواعد للقرصنة ، وأنشأوا فيها مخابىء لمراكبهم .

ولكن دولة الأغالبة — قبل مجىء الفاطميين — التى كانت استقلت بإفريقية (تونس) ، عمدت إلى الاستيلاء على صقلية . فقد انتهزت وجود ثورة فى صقلّيّة ، فقامت بغزوها فى ٢١٢/٨٢٧[١٤٥] ، كما استولت على مالطة فى سنة ٢٢١/٨٣٥ — ٦ أو فى ٢٥٦/٨٦٩ — ٨٧٠[١٤٦] ، فضلاً عن أنها استولت على جنوب ايطاليا ، وهى كالبريا التى سماها العرب قلَّوْرية ؛ فاستولوا عليها فى غارات متعددة ، ووصلوا إلى رومية (رومة) فى الأرض الكبيرة (أوربا) فى سنة ٢٣١/٨٤٦[١٤٧] ، وبها يسكن البابا الذى هو رئيس النصرانية الغربية أى الفرنج ؛ فدخلوا نهر التيبر ، وأحرقوا المدينة ، ونهبوا كنائس القديسين بطرس «Pietro» وبولص «Paolo» ، وأضطر البابا ليون الرابع « Leo IV » أن يختبىء[١٤٨] . وبفضل هذا التوسع ، أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية ، فكانت لا تسبح للنصرانية فيه سفن[١٤٩] .

ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى إفريقية بعد قضائهم على الأغالبة ؛ استولوا على صقلية ومالطة وقلورية ، عن طريق مؤيديهم من البربر[١٥٠] . وقد كان الفاطميون متشوقين لجهاد الروم ، الذين كانوا قد هددوا المسلمين فى ذلك الوقت بسبب ضعفهم ؛ فاستولوا على أكثر جزائر البحر الأبيض ، التى فتحها المسلمون فى أوائل عهد الفتوح ، مثل : قبرس وأقريطش « كريت » ورودس[١٥١] . وكذلك ترددت أحاديث نبوية عن أخذ

رومية قاعدة الفرنجة ، وهى غير الأحاديث النبوية التى ترددت عن أخذ القسطنطينية ، وأن ذلك يكون على يد المهدى ، ويقصد به مهدى الفاطميين[١٥٢] . فهاجموا السواحل الشمالية ، التى عرفت لهم بالبر الكبير من العدوة الشمالية ، وفتحوا جنوة فى ٣٣٣/٩٤٥ ، وغزوا سردانية[١٥٣] ، كما غزوا سواحل بلاد الروم[١٥٤] . والواقع كانت صقلية الميدان ، الذى استطاع الفاطميون بحق أن يؤدوا فيه الجهاد أداء لم يتهيأ لهم مثله طول أيام دولتهم . بل أرسل المعزّ الفاطمى من صقلية اسطوله إلى المرية بالأندلس ، للانتقام من خلافة الأمويين فيها فى ٣٤٤/٩٥٥[١٥٥] .

ولما انتقل المعزّ الفاطمى إلى مصر ، لم يرض بالتنازل عن حكم صقلية للمغاربة ، وإنما فصلها عن حكم المغرب ، وجعلها خاضعة له مباشرة ، خصوصاً وأنها قاعدة قد تهدد المغرب نفسه إذا حاول الانفصال . فجعل صقلية لأسرة الحسن بن علىّ الكلبى الكتامى[١٥٦] ، الذى تولاها منذ ٣٣٦/٩٤٨ ، فلما توفى خلفه ابنه أبو القاسم علىّ بن الحسن بن علىّ ، الذى قتل أثناء جهاده ضد الفرنج فى ٣٧٢/٩٨٣ ، بعد أن بقى فى ولايتها اثنتى عشرة سنة[١٥٧] . ثم وليها من قبل العزيز يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبى الحسن ، فلما أصابه فالج استناب ابنه جعفراً فى ٣٨٨/٩٩٨[١٥٨] .

وقد بقيت صقلية خاضعة للحاكم بعد العزيز ، بالأخص بفضل أساليب الحاكم الماهرة . فلكى يبقى على ولاء يوسف وابنه جعفر ، منح يوسف لقب ثقة الدولة وولده جعفراً تاج الدولة[١٥٩] . ولما اسقط الحاكم الألقاب جميعها ، لم يسقط لقب صاحب صقلية وولده ، كما لم

يسقط لقب صاحب إفريقية . وقد كانت صقلية تذكر فى سجل قاضى القضاة ؛ فقد ذكرت فى سجل ابن أبى العوّام سنة ١٠١٤/٤٠٥[١٦٠] ؛ كما لدينا من صقلية عملة مسكوكة باسم الحاكم[١٦١] .

وقد بقى جعفر — نيابة عن أبيه — ضابطاً للبلاد تخضع للخلافة الفاطمية ، وذلك على الرغم من ثورات المغاربة ، الذين كانوا قد قلبوا للفاطميين ظهر المجن فى كل مكان . فلما قام المغاربة بفتنة كبرى فى ١٠١٤/٤٠٥ ، تغلب عليهم جعفر ، ونفاهم إلى إفريقية . ولكن المغاربة ما لبثوا أن أجبروا يوسف على نفى ابنه جعفراً إلى مصر فى ١٠١٩/٤١٠ ، فأرسله يوسف إلى الحاكم ومعه أموال كثيرة ، وولى بدله إبنا آخر هو أحمد المعروف بالأكحل ، الذى بقى على ولائه للفاطميين ؛ على الرغم من استمرار ثورات المغاربة ضده ؛ مما مهد إلى ضعف سيطرة الفاطميين على صقلية .

*

ومعنى هذا أن الحاكم احتفظ بأملاك دولته ، مثل بقية الخلفاء الكبار السابقين قبله .

الفصل السادس

نهايتـــه

من العجب العجاب أن نهاية الحاكم مأساة مؤثرة مثل نهاية العمَرين ؛ اللذين مات أحدهما مقتولاً بخنجر ، والآخر مدسوساً له السم . ولكن اختلاف المؤرخين فى نهاية الحاكم ، جعلها لغزاً إلى الأبد ، على الرغم من جميع وسائل تمحيص الحقيقة لدى المؤرخ الحديث .

*

ولدينا روايات كثيرة ترجح أن نهايته كانت نتيجة لجريمة مدبرة من أعدائه الكثيرين . فقد كان له أعداء من رجال الدولة المحترفين الذين قتل أغلبهم ، ومن السنة الحاقدين على أهل بيته الذين كانوا يسبونه وأهل بيته حتى فى المساجد[1] ، ومن القبط الذين كرهوه لما اتخذه نحوهم من شروط مشددة ، ومن أتباع المذهب الشيعى نفسه الذين رفضوا دعوته إلى المذهب الجديد ، ومن شعوب مملكته من العرب والبربر والفرس والترك والمصريين ، وحتى من أهل بيته لطموحهم أو أنه لم تعجبهم تصرفاته .

ولكنهم اختلفوا فى قاتله ، وإن نسبت معظم الروايات السنية والقبطية قتله إلى أخته السيدة الشريفة ست الملك (أو الملوك) ، المسماة أيضاً ست النصر[2] . وقد أبرزت أغلب الروايات دوافع الجريمة ، بسبب أنه كان يقول لها كلاماً قبيحاً ، وأوقع بها الفواحش ، وأنها تمكن الرجال من

نفسها ، مما جعل أهل مصر يشنعون بها ، فأحرق الحاكم مصر فى سورة غضبه . وينقلون أيضاً أنه قبل تولية الحاكم ، كانت ست الملك قد حدثت نفسها بالوثوب على الحاكم ، وإجلاس ابن عمها عبد الله ، الذى كانت له تميل ؛ ولكن برجوان منعها ، ودعا إلى بيعة الحاكم[٢] . ويضيفون إلى ذلك ، أن الحاكم كان يشتهى أخته ، بحيث منعها من الزواج ، ليبقى عليها لنفسه . وعلى خلاف ذلك ، نقلت روايات أخرى أن ست الملك أعقل النساء وأحزمهن ، وأنها كانت تمنع الحاكم من تصرفاته وتنهاه ، وتقول له : « يا أخى ، أحذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك » . فكان لهذا السبب أو ذاك ، أن سعت ست الملك إلى قتل أخيها .

ولكى تقتله ؛ ادعوا أنها استعانت بأحد قواد الجيش الفاطمى ، واسمه سيف الدولة حسين بن دواس ، من شيوخ كتامة ، الذى كان مثل بقية رجال الدولة يخاف نقمة الحاكم . فذهبت ست الملك ليلاً وهى متنكرة إلى دار ابن دواس ، ولم تصحب معها أحداً ؛ فلما دخلت عليه ، قبل الأرض بين يديها ، وأخلى المكان . فاستحلفته واستوثقت منه ، وقالت له : « أنت تعلم ما يقصده أخى منك ، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك ، وكذا أنا ؛ وقد ادعى الإلوهية ، وهتك ناموس الشريعة ، وناموس آبائه ، وزاد جنونه ، وأنها تخاف أن يؤدى ذلك إلى أن تنقضى هذه الدولة أقبح إنقضاء » . ووعدت ابن دواس لقاء مساعدتها فى قتل أخيها ، بأن تجعله رئيس الجيش بكل طوائفه ، كما وعدته بالاقطاعات والأموال ، أما هى فليس لها قصد إلا أن تعيش فى سلام . فأعلن ابن دواس قبول قتل الحاكم ؛ ووعدها بإرسال عبدين من عبيده ؛ لقتله .

وقد تم قتل الحاكم بسهولة ، بسبب أنه كان يحب الخروج إلى جبل المقطم ، وكان له قوم ينتظرونه كل ليلة على باب القصر ؛ فإذا ركب ركبوا معه ، ولما يصل إلى الجبل يرد جميع من معه ، ماعدا الركابى ، أى حارسه . فتعمدت ست الملك مراقبة أخيها من قصرها ، الذى كان أمام قصره ، فلما خرج أرسلت وراءه العبدين ، بعد أن زودتهما بخنجرين حادين جداً كمبضع الجراحة[٤] ، فاجهزا العبدان على الحاكم وهو فى الجبل ، بأن قطعا ذراعيه إلى الكتفين ، وشقا جوفه وأخرجا أمعاءه ، كما قتلوا الركابى والحمار ، ثم حملا جثة الحاكم إلى ابن دواس ، فحمله ابن دواس مع العبدين إلى ست الملك ، التى دفنته عندها . وأكثر من ذلك ، أن الحاكم نفسه أحس بنهايته ، وأن أمه ألحت عليه بألا يخرج ، ولكنه كان يشعر بأنه إذا لم يخرج ، خرجت روحه على كل حال . ولم تقف المؤامرة عند ذلك ، بل عملت ست الملك على قتل ابن دواس أيضاً ، بأن أشارت إلى عبيد الحاكم بأن ابن دواس هو قاتل الحاكم ، فقتلوه .

ولكن مؤرخاً حصيفاً وهو المقريزى ينفى عن ست الملك قتل أخيها الحاكم[٥] ، ويرى أن هذا الخبر جاء من اختراع مؤرخى المشارقة ، أى مؤرخى العراق . ونحن نؤيد المقريزى فى حدسه ، بسبب أن ست الملك كانت تعيش فى رغد وسلام أيام خلافة أخيها : فقد كانت تسكن القصر الغربى الذى بناه أبوها العزيز ، يخدمها فيه أربعة آلاف جارية بين بيض وسود ومولدات ، غير مال عظيم وجوهر وقماش وتحف لا تحصى[٦] ، كما كانت لها طائفة خاصة من الجند تقوم بحراستها ، تعرف بالعطوفية ، تنسب إلى عطوف أحد خدام القصر السود ، وإن كان الحاكم قتله فى سنة ٤٠١/١١٠[٧] . وفوق ذلك ، لم تكن ست الملك فى مرحلة الشباب ، حتى تكون

مهيأة للغواية ، مثلماً شنع بها مؤرخو السنة والقبط ؛ فكان عمرها وقت اختفاء الحاكم اثنتين وخمسين سنة ، وتوفيت فى الخامسة والخمسين عام ٤١٥ / ١٠٢٤[٨] . كما أننا نرى مظاهر عطف ست الملك على أخيها وسهرها على سلامته وسلامة ملكه[٩] ؛ ونقرأها بين سطور روايات المؤرخين السنيين والقبط أنفسهم ؛ وقد وصفها بعضهم بأنها كانت أعقل النساء وأحزمهن كما ذكرنا .

وينقل المقريزى عن المؤرخ المسبّحى المعاصر للحاكم ، رواية مختلفة يرى أنها الصحيحة فى خبر قتل الحاكم . فقد قبض على رجل من بنى حسين بالصعيد الأعلى ، أقرّ بأنه قتل الحاكم فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد ، وأظهر قطعة من جلد رأس الحاكم ، وقطعة من الفوطة (العمامة) التى كانت عليه . فقيل له لم قتلته ؟ فقال غيرة لله وللإسلام ، فقيل كيف قتلته ؟ فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده ، وقتل نفسه .

ولدينا رواية معاصرة أخرى ، تنفى عن ست الملك قتلها لأخيها ، وترجع قتله إلى أسباب شخصية ، على يد ابن دواس بالذات[١٠] . فقد رام الحاكم قتل ابن دواس عدة مرات ، وأن ابن دواس نفسه صرح للحاكم بأنه لا يحضر للقصر خوفاً منه[١١] . فدبر ابن دواس قتل الحاكم ، مع جماعة من أهل البوادى بمصر ، وبعد ذلك قدر سوء فعله ؛ فاحتمى فى بيته . ولكن ست الملك تحايلت على ابن دواس إلى أن جاءت به إلى القصر ، فقبضت على جميع ما كان له ، ووجد فى بعض صناديقه السكين التى كانت للحاكم فى كمه ، وتحقق لدى الجميع أن ابن دواس هو قاتله ، والمواطىء لأهل البوادى فى ذلك . وفى رأينا أن هذه الرواية قد تبدو صحيحة مثل رواية المقريزى ، وإن كنا نرجع جريمة ابن دواس إلى عوامل سياسية لا شخصية ؛ فنعرف

أن ابن دواس ، كان من شيوخ كتامة ، أخذ مكان ابن عمّار ، وسيطر على المغاربة ، وكيف أن الحاكم قد تحول عن المغاربة ، بل حاربهم حرباً شديدة أيام ثورة المغامر أبي ركوة .

وأخيراً لدينا روايات أخرى عن مقتل الحاكم ، لا نعلم مدى صحتها للاختلاف بشأنها مؤداها أن قتلته هم جماعة من المصامدة — وهم مغاربة — بايعاز من حكام الأندلس(١٢) ، أو هم جماعة من عربان مصر من بنى قرّة ، أو من العرب السُّوَيْديِّين المنتسبين إلى زعيم اسمه سويد بن الحارث ، وإن اختلف فى عددهم ، فقيل سبعة أو تسعة ، وأنهم لقوا الحاكم وهو فى طريقه إلى جبل المقطم ، وطالبوه بالمال ، فلما ذكر لهم أنه ليس معه مال ، وأن المال فى القصر ، تركوا معه بعضهم ، وذهب البعض الآخر مع ركابى (أو ركابيين) لقبض المال ، فلما عادوا لم يجدوا أثراً للحاكم ؛ مما لا يترك شكاً فى قتله ؛ لا سيما وقد بُحث عن الحاكم فوجد حماره الأشهب المعروف بالقمر ، فى الجبل قرب حلوان وقد ضُربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه ، كما وجدت جبّات الحاكم وهى مزررة بحالها ، وعددها سبع جبات صوف ، وفيها أثر السكاكين(١٣) .

*

ولكن طائفة من الشيعة ترى أن الحاكم لم يُقتل ، وإنما ذهب فى غيبة أبدية ، وأنه يرجع فى آخر الزمان . حقاً إنه تنوقل أن بعض أئمة الشيعة الإسماعيلية قد غابوا وقتاً ما ، مثل : محمد بن اسماعيل ، الذى اختفى لما جاء رجال الرشيد إلى المدينة ، ثم عاد وظهر ، ثم اختفى من جديد لتكتمه ، ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك(١٤) ، كما أن المعزّ — جد الحاكم — اختفى فى السرداب عاماً كاملا(١٥) ؛ إلا أن الحاكم هو الإمام الإسماعيلى الأول ، الذى ذهب

فى غيبة أبدية . فكانت غيبة الحاكم تشبه غيبة إمام الشيعة الاثنى عشرية ، وهو المهدى المنتظر محمد بن الحسن العسكرى ، الذى اختفى فى السرداب خوفاً من العباسيين ، وقال أتباعه إنه لا يزال حياً إلى الآن ، وأنه سيخرج من سردابه يوم القيامة ، ليملأ الدنيا عدلاً . ولا يبدو أن غيبة الامام ورجعته تناقض الدين ; فهى برأى الشيعة من قبل الايمان بنزول عيسى من السماء ، والإيمان ببعض ما ذكره القرآن من الجنة والنار[١٦] ; بقصد إظهار قدرة الله .

وقد ترك لنا حمزة داعية الحاكم ، نسخة سجل بخط يده ، بتاريخ ذى القعدة سنة ٤١١ / ١٠٢١ ، يعرف بالسجل المعلق على المشاهد فى غيبة مولانا الحاكم[١٧] . ويبدأ السجل الطويل : ببسم الله الرحمن الرحيم ، وفيه ذكر لله ، ومحمد رسول الله ، واليوم الآخر . وتذكير للناس بأفعال الحاكم ، مثل : منعه تقبيل التراب أمامه ، أو الترجل له ، وزهده بلبس الصوف ، وركوبه الحمير ، ورده المظالم ، وتدميره الكنائس ، وبنائه الجوامع ، وإقامته الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة فى حقها ، وتسهيله الحج بحفر الآبار وتعميره السقايات ، وإقامته دار العلم ، وحمله الكتب إليها ; لتكون فى قدرة من يريد . ولكن الناس غلبهم الجهل ; وشربوا الخمر ، وأساءوا التصرف ، فغضب الإمام عليهم ; فغلق دونهم باب دعوته ، ونقل الدواوين من قصره ، وامتنع من الصلاة بهم فى الأعياد فى شهر رمضان . وأخيراً ينهى السجل الناس عن البحث فى اختفاء الحاكم ، ولكن عليهم بالصلاة والاستقامة ، ليرضى الله عنهم . ولا يزال الدروز وهم أتباع مذهب التوحيد ، تعتقد فى رجعة الحاكم ، وأنه المهدى الذى يعود فى آخر الزمان لإقامة العدل ، ويحلفون بغيبته[١٨] . ويبدو أن رجال الدولة الفاطمية والناس فى وقته كانوا يعتقدون برجعته ، فكانوا يخرجون يتلمسون رجوعه ، ويخرجون فرساً

مسرجاً يسمى بفرس النوبة ليعـــود به[١٩] .

وكذلك لدينا رواية أخرى غريبة عن اختفاء الحاكم مصدرها قبطى ، ترى هى الأخرى أن الحاكم لم يُقتل ، ولكنه اختفى ؛ وتعلل اختفاءه إلى أنه تنصر ودخل أحد الأديرة . وأنه حينما اشتد فى مطاردة النصارى ، ظهر له يسوع المسيح ، كما ظهر لبولس ، فآمن الحاكم به ، وتوارى سراً فى الصحراء ، حتى توفى[٢٠] . ويؤيد هذه الرواية روايات غير صريحة ، تلمّح بعطف الحاكم على النصارى فى آخر حكمه ؛ مثل أنه فى أخريات أيامه كان يكثر من زيارة الأديرة فى الصحارى ، لا سيما دير القصير بقرب حلوان الذى أعيد بناؤه ، وأنه قرّب النصارى ولبس الصوف ليقلدهم[٢١] ، وربما كان الحاكم يكتب بالقبطية[٢٢] .

ورواية ثالثة عن اختفاء الحاكم ، لاتقول بتنصره ، وإنما تروى أنه توجه ناحية حلوان ، فنزل عن حماره الذى كان راكبه ، وتقدم إلى الركابى الذى معه بأن يعرقب الحمار ، ودخل الحاكم البرية وحده ، ولم يرجع ، ولا يعرف إلى أين توجه إلى يومنا هذا[٢٣] . وتؤيدها روايات متفرقة غير صُريحة ، تصف لنا حالته النفسية فى أواخر أيامه ؛ فقد ربى شعره وتدلى على أكتافه ، وأطلق أظافره ؛ فكان شكله كشكل أسد له ذؤابه[٢٤] ، وكان يكثر الخروج إلى الفيافى ، ويقيم فيها اليوم واليومين[٢٥] .

وقد كانت إشاعة غيبة الحاكم ورجعته ، سبباً فى أن بعض المغامرين جعلوا يستغلونها لحسابهم الخاص ، وجعلوها وسيلة لابتزاز الأموال . فكان أناس يتسمون بالحاكم ، ويتزيون بزيه ، ويظهرون فى أنحاء البلاد ، ويأخذون الدنانير . فمثلاً ظهر قبطى اسمه شروط بجبال الصعيد ، تسمى بالحاكم ، وأخذ فى ابتزاز مال الناس ، ولم تتمكن الدولة من القبض عليه[٢٦] .

وكذا فى ١٠٤٣/٤٣٤ ، خرج انسان اسمه سكين ، ادعى أنه الحاكم وقد رجع بعد موته ، ودخل هو وأتباعه القصر الفاطمى ، ولكن قُبض على سكين وأصحابه ، وقد رموا بالنشّاب حتى ماتوا ، وصلبوا[٢٧] .

وفى أيام الحاكم نفسها ، كان ورد من الشام إلى مصر إنسان من أهل عكاء ، يتزيى بزى الأمراء ، وجلس فى جوار قصر الحاكم ، يبيع المداد والأقلام ، وكان شبيهاً بالحاكم ، فوقف به الحاكم ، وسأله عن أمره ، فذكر له إنه أخوه من جارية أُخرجت من القصر حبلى من العزيز وولدته ، ثم تعمد الحاكم الوقوف معه فى بعض الأحيان ومحادثته ، فلقبه المصريون الشبيه . فلما اختفى الحاكم قبض عليه ، واعتقل مدة ، وأحضره الظاهر بن الحاكم ليشاهده ، فشكا إليه حاله ، وأخذ يخاطبه بابن أخى ، فتنكر الظاهر له ، وأعاده إلى الاعتقال ، ومات بعد أيام[٢٨] .

*

ومع ذلك يجب أن نشير إلى تصرف ست الملك بعد اختفاء الحاكم ، فهى التى قامت بتولية أبى الحسن علىّ بن الحاكم الخلافة . وقد كان للحاكم ثلاثة أولادهم : أبو الحسن علىّ ، الذى تولى الخلافة بعد الحاكم ، وعرف بالظاهر ، ولد فى سنة ١٠٠٤/٣٩٥ — ٥[٢٩] ، وآخر اسمه الحارث توفى فى حياة الحاكم سنة ١٠٠٩/٤٠٠ ،[٣٠] وابنة اسمها ست مصر . ولكن الحاكم فى صفر ٤٠٤/ أغسطس — سبتمبر ١٠١٣[٣١] ، بدلاً من تولية عهده ابنه أبى الحسن علىّ ، ولى ابن عمه أبا القاسم (أبا القسم) عبد الرحيم (عبد الرحمن) بن الياس بن أحمد (علىّ) المهدى بالله[٣٢] . وربما أراد الحاكم أن يفعل مثل عمر بن الخطاب ، الذى رفض أن يولى عهده لابنه عبد الله ، أو عمر بن عبد العزيز الذى أراد جعلها شورى ورفض أن يعين أحداً من أبنائه[٣٣] ، أو أن الحاكم أراد تولية عهده رجلاً ناضجاً بسبب

أن أبا الحسن كان صغير السن ، لا سيما وأن الحاكم لم يكن يهمه شخصه أو أسرته ، بقدر ما تهمه المصلحة العامة . وفوق ذلك ، فإن تولية الحاكم لولىّ عهده ، أمر لا يهم أحداً غيره ، فليس للأئمة ولا لأى فرد أن يطلب سبب هذه التولية ، وإنما هو يقوم بها بمعرفته الخاصة ، التى جاءته من علمه اللدنى ، الذى توارثه عن آبائه(٣٤) .

ومع ذلك ، فيبدو أن تولية الحاكم عهده لعبد الرحيم غير نهائية ، فهو لم ينص عليه فى الخلافة بعده ، وإنما أشار بالنص إلى ابنه أبى الحسن علىّ . ويؤيد ذلك ، أنه لقّب عبد الرحيم بولىّ عهد المسلمين ، وليس بولىّ عهد المؤمنين ، حيثُ يبرز الفاطميون المعنى الذى تدل عليه كلمة مؤمن ، فهذه الكلمة تدل على الايمان ، بينما كلمة مسلم لا تدل إلا على الاسلام ، وأن الايمان هو الذى يهم فى العقيدة الفاطمية ، لما فيها من اقرار بحق الأئمة الفاطميين ، بالإضافة إلى الإقرار بعقيدة الإسلام(٣٥) . وأكثر من ذلك أن الحاكم جعل لعبد الرحيم كل شىء إلا المظلة ، التى اعتبرت شعار من يتولى الخلافة الفاطمية ، إذا كانت تحمل على رءوسهم اينما وجدوا(٣٦) ، فقد كان القاسم ولىّ عهد المهدى له المظلة ، وهو الذى تولى الخلافة باسم القائم بعده(٣٧) . ولكن الحاكم كان أول من اتخذ لقب ولىّ عهد المسلمين ، بحيث أن الخليفة المستنصر — الخليفة الخامس بمصر — قبل أن ينص على ولىّ عهده المستعلى ، أشار هو الآخر إلى ابنيه : نزار الابن الأكبر والأمير أبى القاسم محمد — أبو الحافظ الخليفة الثامن — بولىّ عهد المسلمين ، وكلاهما لم يتول الخلافة(٣٨) ، كما لم يتولها عبد الرحيم .

على العموم رفع الحاكم ولىّ عهده عبد الرحيم إلى أعلى الدرجات ، فأخذ له البيعة على جميع رجال الدولة ، وألبسه شدة الوقار ، وقرأ سجل تعيينه

على منابر مملكته ، ودعا له بمكة ، وأمر الناس بالسلام عليه ، وأن يقولوا فى سلامهم عليه : « السلام على ابن عم أمير المؤمنين ، وولىّ عهد المسلمين » .(٣٩) كذلك نقش اسمه معه على السكة (العملة) ، فقد ورد فيها : عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين ، وعبد الرحيم ولىّ عهد المسلمين(٤٠) . كما نقش اسم عبد الرحيم على البنود والطراز(٤١) . وقد أشرك الحاكم ولىّ عهده فى الحكم معه . فجعله يشرف على أمور الدولة كلها ، بما فيها الإدارة ، وسائر وسطائه . أو النظر فى المظالم ، أو النيابة عنه فى الخطبة والصلاة والنحر فى الأعياد(٤٢) ، مما يدل على أن قصد الحاكم من توليته ، هو أن يساعده فى أعباء الخلافة .

ولكن الحاكم عمل على التخلص من عبد الرحيم فى أواخر أيامه ، فعينه بعيداً عنه فى ولاية دمشق ، فى جمادى الآخرى . سنة ٤٠٩ / أكتوبر — نوفمبر ١٠١٨ . فلعل الحاكم قد غضب على عبد الرحيم ، بسبب معارضته لمذهبه الجديد ، بحيث أن حمزة داعية الحاكم ، كتب إلى عبد الرحيم يدعوه إلى اعتناق مبدأ التوحيد ، وأنه لامه على موقفه المخالف(٤٣) . ولعل عبد الرحيم نفسه كان مكروهاً ، بسبب أنه لم تكن له صفات الحاكم فى البساطة ، بحيث أنه فى المواكب كان يلبس الملابس الموشاة المذهبة ، وهو راكب على حصان ، بينما كان الحاكم يلبس الصوف ، ويركب الحمير(٤٤) . وأكثر من ذلك ، أن الحاكم سمع بعصيان عبد الرحيم وهو فى دمشق فعمل على تأديبه ، فدخل عليه فى دمشق جماعة وردوا من مصر ، وضربوه على وجهه ، كما ثار به الجند ، ولم ينقذه غير الدمشقيين . وبعد ذلك هجم على عبد الرحيم قوم ملثمون ، فقتلوا جماعة من غلمانه ، ثم أخذوه فى صندوق وحملوه إلى مصر ، ثم أعيد إلى دمشق(٤٥) . ولدينا فى رسائل حمزة نقد لشخص عبد الرحيم ورفضه مذهب التوحيد وخطفه ، ورد فيه : « رأينا عبد مولانا ومملوكه

عبد الرحيم بن الياس ولىّ عهد المسلمين ، رأيناه ذامال وملك ورجال وضبنة ورهط وعبيد ومماليك ، وكان خالياً من توحيد باريه ، جاحداً للمنعم عليه أياديه ، فلم يمنع منه سلطانه ولا ماله ولا رجاله ، وأخذه من وسط ملكه المعار ، وسلطانه وقوّته وعزّته وقدرته ، بالعبد الضعيف الذليل ، فأخذه بقدرة أمر مولاه للطاغى المتجبر ، والدعىّ المنكر ، لم يمنع منه سلطانه ، ولا كثرة ماله ولا رجاله(٤٦) » . وأخيراً ربما يكون الحاكم قد عدل عن تولية عبد الرحيم عهده نهائيا ، فقد أطلق لقب ولىّ عهد أمير المؤمنين على ابن عمه الأمير ابراهيم أبى هاشم(٤٧) .

ولما كانت ست الملك على علم بحقيقة نص الحاكم ، وغضب الحاكم على ولىّ عهده ، عملت على تولية ابن الحاكم أبى الحسن علىّ(٤٨) ، وكان عمره يومئذ سبع عشرة سنة . فقد كان رجال الدولة سألوا عن الحاكم ، كما كانوا يخرجون للبحث عنه كل يوم دون جدوى ؛ بينما كانت ست الملك تستحلف الجند لأبى الحسن على ، وتوزع الأموال ؛ وربما استخدمت ابن دواس فى سبيل ذلك ، قبل قتله . وأخيراً أحضرت الناس والجند ورجال الدولة ، بعد سبعة أيام من اختفاء الحاكم — وقيل إحدى وأربعين يوما — وأخرجت أبا الحسن والوزير خطير الملك عمّار بن محمد بين يديه ، وأعلنت خلافة أبى الحسن علىّ ، الذى تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله . فاقبل الجميع على مبايعة الظاهر ، وأقاموا العزاء على الحاكم ثلاثة أيام ، واستمر البكاء على الحاكم طول الليل(٤٩) .

وفى الوقت نفسه ، أرسلت ست الملك إلى الأمراء بدمشق بكتب تطلب منهم القبض على ولىّ عهد المسلمين(٥٠) . فحمل عبد الرحيم إلى مصر مقيداً ، ودخل به إلى الفرما — مدينة على ساحل البحر — ثم حملوه إلى جزيرة

تنيس واعتقل مدة ، ثم دخل به إلى القاهرة مكرماً ، وانزل فى القصر .
وقيل إن الظاهر هو الذى سمه ليموت ، بأن أرسل إليه شيئاً من الفاكهة
المسمومة ، فأكل منه ومات ، وأظهر للناس أن عبد الرحيم قتل نفسه ؛
أما ولده أحمد بن الياس ؛ فهرب إلى المرداسيين ، ثم إلى بلاد الروم ،
أعداء المسلمين .

*

وقد كان اختفاء الحاكم لليلتين بقيتا من شوال سنة ٤١١ / الثلاثاء
١٣ فبراير ١٠٢١ ، وعمره يومئذ سبع وثلاثون سنة ، بعد أن أمضى
فى خلافته خمساً وعشرين سنة ، وستة وعشرين يوما(٥١) .

الخاتمـــة

لم يكن عملنا سهلاً ، فى البحث عن حقيقة سيرة الخليفة الحاكم بأمر الله ، بسبب ما أضافه أعداؤه عليها من تزييف وتحيز ظاهرين ، وتشويه لم يعرف له مثيل من قبل . ولكنّا رتبنا وقائع سيرته وسبرنا غورها ، فوجدناها صورة تختلف كل الإختلاف عن الصورة التى علقت بأذهاننا ، جديرة بالتأمل والتعجب . فهو شخصية صوفية مثالية نادرة ، لا تهتم إلا بالعمل والواجب ، مما لم يعرف لها شبيه إلا فى سيرة العمرين .

ويبدو أن هذه الحقيقة عن شخصية الحاكم ، كانت ملموسة لمعاصريه . فأحبه المصريون لصفاته القوية ، ولا يصدقون ما يشاع عنه من سوء ، ويؤولون تصرفاته بالأسرار الخفية ، التى له وحده حق معرفتها ، بحكم أنه إمام يسمو على البشر[1] . ثم هو لرجال جيشه وقواده ، جدير بأن يقدموا حياتهم قرباناً لشخصه : مثلما فعل قائده ينال . ثم هو لشيخ فلاسفة عصره الكرمانى ، إمام مؤمن بالله ورسوله ، قد ذكرت صفاته فى الكتب المقدسة . ثم هو لمؤرخ عصره الأمير المسبّحى ، صاحب فضل ؛ وأنه كان سعيداً فى حكمه[2] .

ولعلنا بما عرضناه فى سيرة الحاكم ، قد قضينا على الكذب الذى استمر يحيط باسمه إلى وقتنا . ويجب أن نقرر أننا وجدنا لذة كبرى فى الوصول إلى أم الحقيقة ، لا تعدلها لذة أخرى .

الجداول

ا ـ الحواشى

الفصل الأول

(١) لسان العرب ، ١٠ ص ٥٤ فما بعدها ؛ أنظر .
Ency. de l'Isl, (art Shi' â) t4, p. 362 Sqq.

(٢) انظر . فرق الشيعة ، ص ٢ ؛ ١٧ — ١٨ . يعدد أسماء الشيعة الأوائل ، وهم : المقداد بن الأسود الكندى (م ٣٣/٦٥٣) ، وسلمان الفارسى (م ٣٦ أو ٣٧/٦٥٦ـ٧) ، وأبو ذر الغفارى (م ٣١ أو ٣٢ / ٦٥١ — ٦٥٢) ، وعمار بن ياسر (م ٨٧/٧٠٦) .

(٣) انظر . الفهرست ، ١ ص ١٧٥ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٢١٢ فما بعدها ؛ انظر . ما أوردناه فى كتابنا : التاريخ السياسى ، ٢ ص ٦٨ فما بعدها .

(٥) المقريزى ، النزاع والتخاصم ، ص ١١ .

(٦) الأصفهانى ، كتاب الأغانى ، ١٣ ص ١٦٨ س ٢٢ ؛ ١٦ ص ٦ — ٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl (art Abû Turâb) tl, p. 114 ؛ التاريخ السياسى ، ٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٧) الأصفهانى ، مقاتل الطالبيين ، النجف ١٣٥٣ هـ ؛ انظر .

(٨) عن ذلك بالتفصيل ، انظر . كتابنا التاريخ السياسى ، ٢ ص ٣٢٣ فما بعدها .

(٩) النوبختى ، ص ٤٨ ؛ الخطط ، ٤ ص ١٧٣ س ١٠ — ١١ ؛

(١٠) انظر . كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ص ٨٨ . يرد كاشف الغطاء على ذلك ؛ بالاستشهاد بشعر أبى طالب فى قوله :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

(١١) عيون الأخبار (مخطوطة بمكتبة الهمدانى الخاصة) ، ٤ ورقة ٢٢٩ ؛ انظر . الهمدانى ، بحث فى تاريخ رسائل إخوان الصفا ، ص ١٥ فما بعدها .

(١٢) النزاع والتخاصم ، ص ٦٤ ؛ الخطط ، ٤ ص ١٥٤ . حكم الخليفة محمد المنتصر بين ٢٤٧ — ٢٤٨ / ٨٦١ — ٢ .

(١٣) الخطط ، ٤ ص ١٧٣ س ١٣ . يقول إن المشهور منها عشرون فرقة .

(١٤) مثلا : رسائل إخوان الصفا ؛ اعتبرت من تأليف أئمة الشيعة الإسلامية ، وهى تحتوى على عقائد كثيرة . عيون الأخبار ، ٤ ورقة ٢٢٩ ؛ انظر . الهمدانى ، رسائل اخوان الصفا ، ص ٢١ فما بعدها .

(١٥) الملل ، ص ١٠٩ .

(١٦) النوبختي ، ص ٧٣ .

(١٧) النعمان ، شرح الأخبار ، مخطوطة بدار الكتب برقم ٧٠٦٢٣ ح ، ورقات ٣ — ٥ . في أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدير خم ، قام محمد خطيبا في الحجاج ، فقال : « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، قالوا : « بلى يا رسول الله » ، قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » . كذلك وردت رواية أخرى مؤداها أن محمداً ، في أثناء غزوة تبوك ، قال لعلي : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » . عن ذلك ، انظر . دعائم الإسلام ، ١ ص ٢٥ . وما أوردناه بالتفصيل ، بفصل الإمامة من كتابنا : نظم الفاطميين ، الجزء الأول .

(١٨) دعائم ، ١ ص ٤٤ ؛ الداعي إدريس ، زهر المعاني (الباب السابع عشر) ، نشر Ivanow في كتابه Rise (المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية) ، ص ٥٢ .

(١٩) المقريزي ، أنظر الخطط ، ٢ ص ٢٤٨ .

(٢٠) الملل ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ زهر المعاني (من المنتخب) الباب السابع عشر ، ص ٥ ؛ الخطاب ، غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٥ — ٣٦ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢١) الملل ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ، وكتابنا : نظم ، ١ ص ٩ ؛ و Ency de l'Isl. (art Ismâ'ilîya) t2 p. 58? sqq

(٢٢) انظر في هذا الصدد ما قاله الآمر عن أبيه :

« وأطلعني من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلي من الحكمة بالغامض المصون » . حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٥ ؛ وما أوردناه في نظم ، ١ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢٣) المؤيد ، سيرة ، تحقيق كامل حسين ، ص ١٧ ؛ تاج العقائد ، ص ٤٧ . ويسميهم أعداؤهم بالباطنية ؛ وإن لم نعرف أن الشيعة سموا أنفسهم بذلك ؛ لا سيما وأن أعداءهم كانوا يصفونها أيضا على فرق من الزنادقة مثل الخرامية والمزدكية . انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٩ س ٩ (يقول ابن خلدون نسبة إلى الامام الباطن) : انظر .

Ency. de l'Isl, (art Bâtinîya) tl p. 697.

(٢٤) دعائم ، ١ ص ٦١ .

(٢٥) الملل ، ص ١٠٩ .

(٢٦) دعائم ، ١ ص ٣١ .

(٢٧) النوبختي ، ص ٦٤ — ٦٥ ؛ جعفر بن منصور ، كتاب الفرائض وحدود الدين ، تحقيق الهمداني ، ص ٩ ؛ انظر .

Ency de l'Isl (art Takiya) t4, P. 659 sqq.

يقول جعفر الصادق : « التقية دينى ودين آبائى ، ومن لا تقية له ، فلا دين له » .

(٢٨) المقدمة ، ص ١٨ س ١ — ٢ .

(٢٩) زهر المعانى (المنتخب) ، ص ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٣ . .

(٣٠) نفسه، ص ٥٩ ؛ انظر . Ivanow :

Alleged Founder of Ismâ'îlism. Bombay. 1946 p. 7 - 8.

(٣١) انظر. كتاب الفرائض ، ص ٩ — ١٠ . الأربعة ، هم : موسى وإسماعيل ومحمد وعبدالله

(٣٢) زهر المعانى (المنتخب) ص ٤٧ ، ٤٩ ؛ الفرائض ، ص ٦٠ ، ٦٣ .

(٣٣) الفرائض ، ص ٩ — ١٠ .

(٣٤) زهر المعانى (من المنتخب) ، ص ٥٤ . يكفى أن نطالع مختلف ما قيل فى نسب عبيدالله إلى على ، أول الأئمة الظاهرين بعد دور الستر . فهو عبيد الله بن الحسين ، وقيل عبيد الله بن محمد ، وقيل هو على بن الحسين ، وقيل هو عبيد الله بن التقى .. وفيات ، ١ ص ٤٨٧ .

(٣٥) انظر . DeSacy : Recherches sur l'initiation à la secte; Ismaelienne J. A. 1824, p. 202.

(٣٦) النعمان ، افتتاح الدعوة (بمكتبة الهمدانى) ، ورقات ١٨ — ١٩ .

(٣٧) أخبار مجموعة ، ص ٢٨ ؛ وانظر . التاريخ السياسى ، ٢ ص ٢٨٨ فما بعدها .

(٣٨) المقدمة ، ص ١٨ ؛ ٢٣١ (آخر الصفحة) . مؤسسها إدريس بن إدريس ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . انظر .

Ency de l'Isl (art Idrîs) ; (Idrîsides) t2, p. 478 sqq.

(٣٩) البيان ، ١ ص ١٢٤ فما بعدها ؛ اتعاظ ، ص ٧٤ فما بعدها ؛ ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٦ فما بعدها ؛ افتتاح ، ورقة ٣٢ وفما بعدها .

(٤٠) معجم البلدان ، ١ ص ٣٧٠ .

(٤١) اتعاظ ، ص ٦٧ وهامش (٣) .

(٤٢) نفسه ، ص ٦٧ س ٤ . عن أبى عبد الله ، انظر . الخطط ، ٣ ص ١٥ فما بعدها ؛

Ency de l'Isl (art Abû 'Abd Allâh) tI, p 76.

(٤٣) ابن حماد ، ص ٧ .

(٤٤) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٤٥) اتعاظ ، ص ٨١ فما بعدها ؛ ابن حماد ، ص ٦ فما بعدها ؛ اليمانى ، سيرة جعفر الحاجب ، تحقيق Ivanow ، مجلة كلية الآداب ١٩٣٦ ؛ زهر المعانى (الجزء السابع عشر) (المنتخب) ص ٦٧ فما بعدها ؛ حسن إبراهيم ، عبيد الله ، ص ١٢٤ فما بعدها .

(٤٦) عنها ، انظر ، معجم البلدان ، ٥ ص ١١٢ — ١١٣ . اختلف فى مقر سكنه ، فيذكر المقريزى أنه كان يسكن عسكر مُكرم ، بلده فى نواحى خوزستان ، ثم انتقل الى الشام. اتعاظ ، ص ٦٩ . عن هذه البلدة ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٤٧) سيرة جعفر ، ص ١١٣ .

(٤٨) نفسه ، ص ١١٠ ؛ انظر الهمدانى ، الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، ص ٣٩ — ٤٩ .

(٤٩) الخطط ، ٣ ص ١٧ س ٧ .

(٥٠) النيسابورى ، استتار الإمام ، تحقيق Ivanow ، مجلة كلية الآداب ، ص ١٠٦ .

(٥١) سيرة جعفر ، ص ١١٥ .

(٥٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٤١ .

(٥٣) اتعاظ ، ص ٩١ — ٩٢ .

(٥٤) أُنظر . مثلا سيرة جوذر ؛

Ency. de l'Isl, (art Fatimites) t2, p. 93 sqq,

(٥٥) أُنظر . مثلا كتاب ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد .

(٥٦) غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٦ — ٣٧ ؛ زهر المعانى (من المنتخب) ص ٦٧ ؛ انظر أيضا : الفرائض ، ص ١١ — ١٢ ؛ حسن إبراهيم ، عبيد الله ، ص ٨٠ فما بعدها .

(٥٧) ابن حماد ، ص ١٤ .

(٥٨) اتعاظ ص ٨٠ ؛ الفرائض ، ص ١٢ — ١٣ ؛ انظر . Guyard : (نص عربى) Fragments, p. 24 sqq.

(٥٩) عن ذلك ؛ انظر . لسان ، ٢٠ ص ٢٢٨ فما بعدها ؛ عبد النعيم ، المهدى ، المجلد ١٩ ، صفر ١٣٧٤ هـ ، ص ١٠ فما بعدها ؛

Ency. (art al-Mahdi) ؛ Rise, p. 50 — 51 ; 103 : Ivanow ؛ t3, p. 116 sqq

(٦٠) لسان ، ٢٠ ص ٢٣٢ ؛ انظر . Ivanow : Rise, p. 103 . تعتبر جزءاً من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة .

(٦١) الكامل ، ٣ ص ٣٤١ س ١٧ — ١٨ ؛ النوبختى ، ص ٢٧ .

(٦٢) ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٥ س ٥ .

(٦٣) الخليفة العباسى المهدى .

(٦٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٧ — ٢٩ .

(٦٥) الكامل ، ٦ ص ٣٦٠ س ٣ .

(٦٦) الملل ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .
(٦٧) الكامل ، ٦ ص ٣٦٠ .
(٦٨) الأحكام ، ص ٦ .
(٦٩) ابن النعمان ، المجالس والمسايرات ، (مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة) ٢ ورقة ٤٧٨ ؛ انظر . Canard :

L'impérialisme des Fatimides, Annales de l'Inst. d'Et. Or, 6, 1942 - 7, p. 158.

يقول كنار عن هذا الاعتقاد إنه أقوى من الدين ، الذى أدى إلى الفتوح الأولى ، ومن مطامع الأمويين الشخصية ، ومن استغلال العباسيين الاستياء ضد الأمويين » الخ .
(٧٠) دعائم ، ١ ص ٣ ؛ نظم ، ١ ص ٦١ فما بعدها .
(٧١) الاصطخرى ، مسالك ، ص ١٢ .
(٧٢) البيان ، ٢ ص ١٦٩ .
(٧٣) انظر ٠ بعده .

(٧٤) سيرة جعفر ، ص ١١٢ . وكذلك يقول أبو القاسم محمد : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه — إن قدرت — » وإلا أهلك دونه » ، يقصد بذلك الخلافة العباسية وأملاكها . انظر . اتعاظ ، ص ٩٩ .
(٧٥) نفسه ، ص ٩٨ — ١٠٤ .
(٧٦) ابن حماد ، ص ١٢ .
(٧٧) ابن العميد ، ص ٢١٩ .
(٧٨) اتعاظ ، ص ١٠٨ .
(٧٩) هى فتنة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى فى سنة ٣٣٢ / ٩٤٣ — ٤ . عنها ، انظر . اتعاظ ، ص ١٠٩ فما بعدها ؛ ابن حماد ، ص ١٨ فما بعدها ؛ سيرة جوذر ، ص ٤٤ فما بعدها .

انظر عن المهدية . اتعاظ ، ص ١٠١ — ١٠٣ ؛ معجم البلدان ، ٨ ص ٢٠٥ فما بعدها .
(٨٠) عنه ، انظر . وفيات ، ١ ص ٢٠٩ فما بعدها ؛ انظر .

Ency. de l'Isl (art Djawhar) tI, p. 1058.

(٨١) انظر على الخصوص : النجوم ، ٤ ص ٤٨ فما بعدها ؛ اتعاظ ، ص ١٣٤ فما بعدها .
(٨٢) اغاثة الأمة ، الطبعة الثانية ، ص ١٣ .
(٨٣) النجوم ، ٤ ص ٧٢ س ١٥ — ١٧ ؛ اتعاظ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .
(٨٤) اتعاظ ، ص ١٤٧ فما بعدها .

(٨٥) وفيات ، ١ ص ٢١١ .

(٨٦) اتعاظ ، ص ١٥٦ .

(٨٧) ابن حماد ، ص ٤١ .

(٨٨) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١١ .

(٨٩) النجوم ، ٤ ص ٢٥ س ٤ — ٥ .

(٩٠) نفسه ، ٤ ص ٣٤ وما بعدها ؛ اتعاظ ، ص ١٠٨ وما بعدها ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٠٤ ؛ انظر . كرزويل ، تأسيس القاهرة ، الترجمة السيد محمد رجب ، المقتطف ١٩٣٤ (نوفبر وديسمبر ؛ Ency. (art Caire) tI, p. 841 sqq

(٩١) ينفي المعز بشدة في حديث له فائدة التنجيم إلا في العلم ؛ مما يدل على بطلان هذا الرأي . انظر . بعده .

(٩٢) انظر . Casanova : La Citadelle du Caire. M. M. A. F. tVI, Fasc 4 ; 5. Paris 1894, p. 524.

(٩٣) اتعاظ ، ص ٢٠٤ فما بعدها . عرف بهذا الإسم لقصر قامته ورجليه ، أو لأنه في سيره يقرمط أي يقارب بين خطواته ؛ أو لأن بحمرة وجهه كانت حمراء تشبه القرمد ، وهو الطوب الأحمر (الآجر) ، أو على اسم شخص اسمه كرمينه ، فخفف الى قرمط ، أو حق بمعنى الفلاح . انظر أيضا : نفسه ، ص ٣٠ وهامش (١) ؛ الكامل ٦ ص ٧٠ ؛ Ency. (art Karmates) t2, p. 813 sqq.

(٩٤) اتعاظ ، س ٢١٤ وهامش . عن جنابة ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٩٥) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ . يقول إن الذي جعلها عاصمة ، هو أبو طاهر .

(٩٦) عنها ، انظر . نفسه ، ٨ ص ٤٤٥ — ٤٤٦ .

(٩٧) الكامل ، ٦ ص ١٠٠ ، ١٠٤ ؛ انظر .
Rise, p. 75 sqq.

(٩٨) اتعاظ ، ص ٢٣٩ فما بعدها ؛ العبر ، ٤ ص ٨٨ — ٨٩ ؛ انظر حسن إبراهيم عبيد الله ، ص ٢١٧ فما بعدها ؛ de Goeje : Carmathes, t2, p. 69.

(٩٩) اتعاظ ، ص ٢٤٨ — ٢٥٠ ؛ ابن حماد ، ص ٤٦ .

(١٠٠) اتعاظ ، ص ١٨١ ؛ العبر ، ٦ ص ١٣ ؛ ٧٢ ؛ ٧٣ ؛ انظر .
Ency. (art Soulaim) t4 p. 542; (art Hilâl) t2 p.325-6.

(١٠١) عنه ، انظر . وفيات ، ١ ص ٢٠٠ .

(١٠٢) اتعاظ ، ص ٨٠ . يقول المغاربة والمصريين .

(١٠٣) نفسه ، ص ٢٥١ فما بعدها .

(١٠٤) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢ ؛ النجوم ، ٤ ص ٧٤ — ٧٥ .

(١٠٥) النجوم ، ٤ ص ١٢٨ .

الفصل الثانى

(١) عن سيرته مثلا ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٦٨ فما بعدها ؛ ادريس عماد الدين ، عيون الأخبار ، ٦/٧ ورقة ٢٢١ فما بعدها (مكتبة الهمدانى) ، وفيات ، ٣ ص ٤ فما بعدها ؛ انظر. عنان ، الحاكم بأمر الله ؛ De Sacy :

Exposé de la Religion des Druzeset Précédé d'une introduction et de la vie du khalife Hakem Biamr Allah Paris 1838 tI, ; Ency de l'Isl (art al-Hakim Bi Amr'alláh t2, p. 238—9.

(٢) يقول إدريس : الثالث أو الرابع من شهر ربيع الأول . عيون ، ٦/٧ ، ورقة ٢٢١ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٢٠٧ س ٢٥ — ٢٦ .

(٤) انظر ملحق لكتاب سير الآباء لسويرس بن المقفع ، مخطوطة مصورة بدار الكتب برقم ٦٤٣٤ ح ، ٣ ورقة ٥٠ .

(٥) تاريخ المسلمين ، ص ٢٤٧ .

(٦) يحيى ، ص ٢٤٤ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ٤٢ ؛ ١٣٦ . توفيت سنة ٤١٥/ ١٠٢٣ — ١٠٢٤ ، عن خمسة وخمسين عاما. وعلى العكس يقول المقريزى إنها ولدت عام ٣٠٥/٩١٧ ، وتوفيت عام ٤٢٥ / ١٠٣٤ ؛ فربما هذا التاريخ الأخير مبالغ فيه !! : الخطط، ٢ ص ٣٣٣ . أما ابن إياس فيسميها ست النصر . تاريخ مصر، بولاق ١٣١١ هـ، ١ ص ٥٧ س ٤ .

(٧) يحيى ، ص ٢٣٧ ؛ ابن العميد ، ص ٢٤٧ .

(٨) انظر . عنان ، الحاكم بأمر الله ، ص ٤٢ .

(٩) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢١ .

(١٠) الكامل ، ٧ ص ١٧٧ س ٦ .

(١١) انظر . كتابنا: نظم الفاطميين (فصل الإمامة) ، الجزء الأول .

(١٢) الخطط ، ٢ ص ٢٩٥ س ١٤ — ١٥ . يقول إدريس: أطلعه الله على علم آبائه عيون ٦/٧، ورقة ٢٢٢ .

(١٣) عيون ، ٦/٧ ، ورقة ٢٢١ .

(١٤) نهاية الأرب (مخطوط بدار الكتب) ٢٦ ورقة ٥٠ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ٤٢ وهامش (٣) .

(١٥) اختلف فى التاريخ فمثلا المقريزى يقول عشرى شهر رمضان . انظر . وفيات ، ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(١٦) عن الايوان ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٢٢ فا بعدها ؛ نظم ، ٢ ص ١١١ — ١١٢ . بناه العزيز فى سنة ٣٦٩/٩٧٩ — ٩٨٠ .

(١٧) اتعاظ ، ص ١٨٨ . عن هذا السرير ، انظر . نظم ، ٢ ص ١١٢ — ١١٣ .

(١٨) عنها بالتفصيل ، انظر . صبح ، ٣ ص ٤٧٢ — ٣ ؛ نظم ، ٢ ص ٦٥ — ٦٧ .

(١٩) النعمان ، كتاب الهمة ، ص ١٠٥ .

(٢٠) الخطط ، ٤ ص ٦٨ . عن هذا اللقب بالتفصيل ، انظر . نظم ، ١ ص ٧٢ — ٧٣ .

(٢١) انظر . بعده .

(٢٢) دعائم ، ١ ص ٥ ؛ عنه بالتفصيل ، انظر . نظم ، ١ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢٣) الخطط ، ٤ ص ٦٨ .

(٢٤) ابن اياس ، ١ ص ٦٧ ؛ انظر . نظم ، ١ ص ٧٥ .

(٢٥) انظر . Siasset Nameh. trad Schefer, p. 135

(٢٦) الخطط ، ٣ ص ٥ ، ١٥ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٣٢ — ٣٣ .

(٢٧) ناصر خسرو ، سفرنامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٥٢ ؛ ٥٧ .

(٢٨) الخطط ، ٣ ص ١٥ ؛ ١٧ .

(٢٩) نفسه ، ٢ ص ٣٠٩ — ٣١١ ؛ ٣ ص ١٨ س ٤ ؛ انظر . نظم ، ١ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٣٠) سفرنامة ، ص ٥٢ — ٥٣ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٧٨ س ٩ ؛ انظر . نظم ، ١ ص ١٩٦ .

(٣١) الخطط ، ٣ ص ١٧ س ٢٧ — ٢٨ ؛ ٤ ص ٦٧ س ٢٣ — ٢٤ .

(٣٢) نفسه ، ٣ ص ١٢ ؛ ١٥ .

(٣٣) نفسه ، ٣ ص ١٧ س ٢٨ .

(٣٤) سفرنامة ، ص ٥٣ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٣ ؛ انظر . نظم ، ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٣٥) على الخصوص مراجع الصليبيين .

(٣٦) الخطط ، ٣ ص ٥٧ — ٥٨ ؛ يحيى ، ص ١٨٠ — ١٨١ ؛ ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٤ و ٤٥ ؛ حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثانية ، ص ٦٢٣ .

(٣٧) الخطط ، ٣ ص ١٧ — ١٨ . عنها بالتفصيل ، انظر . نظم ، ١ ص ٧٨ فما بعدها.

(٣٨) انظر ملاحظة de Sacy : Druzes I, P. CCLXXXIV-CCLXXX V.

(٣٩) انظر . Répertoire, 6, p. 20.

(٤٠) اتعاظ ، ص ١٩٥ ؛ ١٩٧ ؛ ٢٠٣

(٤١) الكامل ، ٧ ص ١٧٨ .

(٤٢) عنه ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٤ فما بعدها ؛ وفيات ، ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٧٧ — ١٧٨ ؛ الروذراورى ، ذيل كتاب تجارب الأمم ، تحقيق Amedroz ، مصر ١٣٣٤/١٩١٦ ، ص ٢٢١ فما بعدها . برجوان بفتح الباء ، وسكون الراء ، وفتح الجيم . انظر . وفيات .

(٤٣) انظر . وفيات ، ١ ص ١٥٦ .

(٤٤) هى كلمة فارسية ، معناها السيد أو الكبير . صبح ، ٥ ص ٤٥٧ . ونلاحظ أن عنان (ص ٤٥) أخطأ بقوله ، إن أستاذ هو لقب من ألقاب الوزارة فى الدولة الفاطمية ؛ وإنما هو لقب لرجال القصر الفاطمى . عن هذه المنصب بالتفصيل ، انظر . نظم ، ٢ ١٠ — ١٢ وهامش

(٤٥) الكامل ، ٧ ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٤٦) الروذراورى ، ص ٢٣٠ فما بعدها .

(٤٧) الخطط ، ٣ ص ١٨ س ٢ .

(٤٨) ذيل ، ص ٤٥ فما بعدها .

(٤٩) الروذراورى ، ص ٢٢٥ .

(٥٠) الخطط ، ٣ ص ٤ ؛ شرح اللمعة (مخطوط بجامعة القاهرة ، برقم ٢٤٠٢٢) ورقة ٥ .

(٥١) الخطط ، ٣ ص ٤ س ١ ؛ ص ١٨ س ٤ .

(٥٢) يحيى ، ص ١٨١ س ١٥ .

(٥٣) الخطط ، ٣ ص ٥ .

(٥٤) ابن اياس ، ١ ص ٥١ — ٥٢ حواصل ، جمع حاصل ، انظر . صبح ، ٣ ص ٤٧٨ — ٤٧٩ ؛ نظم ، ٢ ص ٢٥ .

(٥٥) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٣ . يقول ابن القلانسى إن الذى سماه بالوزغة هو ابن عمار . ذيل ، ص ٤٥ س ٦ .

(٥٦) الرذراورى ، ص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

(٥٧) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٢٦ فما بعدها ؛ ذيل ، ص ٥٥ فما بعدها .

(٥٨) عن هذا البستان ، الذى ينسب إلى أبى المسك كافور الأخشيدى . انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٥٩) انظر نفسه ، ٢ ص ٣٤٨ فما بعدها . اختلف فيمن بناه ، وربما بنى فى عهد العزيز ، وهدم عدة مرات ، وأقيمت به الاصلاحات . فيذكر إدريس أن الحاكم قصد عمارة بستان اللؤلؤة عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٦٠) اختلف فى تاريخ قتله ، فيقول ابن خلكان : ١٥ جمادى الأولى ٣٩٠/٢٥ ابريل ١٠٠٠ . أما ابن الأثير فيقول إن قتله فى سنة ٣٨٩/٩٩٩ . انظر . الكامل ، ٧ ص ١٨٠ ، ويؤيده الروذراورى ، ص ٢٣٢ ؛ انظر أيضا وفيات .

(٦١) انظر . مخطوطة اتعاظ طوب قبوسراى ١٥٤ ا — ب ؛ انظر . الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، ١ ص ١٣١ — ١٣٥ ؛ ٣٠٩ — ٣١١ .

(٦٢) أورد المقريزى التاريخ ؛ الخطط ، ٣ ص ٥٨ .

(٦٣) يحيى ، ص ١٧٨ س ٢١ .

(٦٤) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٦٥) يقول الحاكم إن برجوان : «استصغرنى واستصبأنى» عيون ٦/٧ ورقة ٢٢٦ .

(٦٦) نقلا عن de Sacy :

Druzes , Introd. tI, p. CCXCIV—CCXCV.

الفصل الثالث

(١) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٢٢ — ٢٢٣ . انظر ما أورده الداعية حميد الدين الكرمانى ، عن التبشير به فى التوراة .

(٢) نفسه ، ورقة ٢٢٤ س ٣ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ١٦٤ .

(٤) عن هذه القصور بالتفصيل ، انظر . نفسه ، ٢ ص ٢١٤ فما بعدها ، ٢٣٢ فما بعدها ؛ انظر . Ravaisse :

Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire ;(M.M.A.F.) ; Ency de l'Ist (art Caire) tI, p. 842. tI, ; p. 428-9.

(٥) الخطط ، ٣ ص ٤٤ ؛ انظر . Ravaisse : Essai, I, I, p. 429.

(٦) نفسه ، ٢ ص ٢٥٣ فما بعدها . عن الخزائن بالتفصيل ، انظر . نظم ، ٢ ص ١٢ فما بعدها .

(٧) نفسه ، ٢ ص ٢٦٣ س ١٩ .

(٨) انظر مثلا ما أورده المقريزى عن ثروة كل من السيدتين رشيدة وعبدة ، ابنتى المعز . الخطط ، ٢ ص ٢٦٤ ؛ نظم ، ٢ ص ١٧ — ١٨ وهامش .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٨ س ٢٥ — ٢٦ ° كانت خزائنه متعددة ، منها : الكسوة والمال والكتب والأشربة وغيرها .

(١٠) ابن اياس ، ١ ص ٥١ .

(١١) الخطط ، ٣ ص ٥٨ س ١٠ .

(١٢) صبح الأعشى ، ٣ ص ٤٨١ ؛ انظر . نظم ، ٢ ص ١١ — ١٢ .

(١٣) يحيى ، ص ٢٠٧ س ١ . لعل كل ما أوردناه هنا ينفى ما أورده حسن ابراهيم عن أن الحاكم كان مشهوراً بحب العظمة ، وجمع الثروة ؛ وذلك دون أن يشير الى مرجع يؤيد كلامه . انظر . قوله فى كتاب : تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثانية ، ص ٥٥٢ .

(١٤) يحيى ، ص ٢٠٦ س ٢١ — ٢٣ .

(١٥) نفسه ، ص ٢٠٩ .

(١٦) الكامل ، ٤ ص ١٥٤ ؛ انظر . التاريخ السياسى ، ٢ ص ٢٥٩ .

(١٧) يحيى ، ص ٢٠٠ س ٢١ .

(١٨) عنها ؛ انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٥٥ فما بعدها ؛ نظم ، ٢ ص ١٤ — ١٧ .

(١٩) عنها ؛ انظر . نفسه ، ٢ ص ٣٥٢ ؛ نفسه ، ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٠) شذرات ، ٣ ص ١٩٤ .

(٢١) يحيى ، ص ٢٠٨ س ٦

(٢٢) نفسه ، ص ٢٠٥ ؛ ٢١٨ .

(٢٣) عن هذه الكلمة ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٧٨ س ٩ — ١٠ ؛ نظم ، ٢ ص ٣٩ .

(٢٤) النجوم ، ٤ ص ٧٩ س ٦ .

(٢٥) الخطط ، ٤ ص ٦٧ (آخر الصفحة) .

(٢٦) عنها بالتفصيل ، انظر . النجوم ، ٤ ص ٧٩ فما بعدها ؛ صبح ، ٣ ص ٣٠٥ فما بعدها ؛ الخطط ، ٢ ص ٣١٣ فما بعدها ؛ نظم ، ٢ ص ٤٥ فما بعدها .

(٢٨) الخطط ، ٤ ص ٧٣ س ٦ فما بعدها .

(٢٩) وفيات ، ٣ ص ٧ . يظهر من رسائل الدروز أنه بدأ فى ذلك ، سبع سنوات قبل فقده . انظر ملاحظة De Sacy : Druzes, p. CCCCLXVI - VII, et n.

(٣٠) يحيى ، ص ٢٠٥ ؛ ٢٢٢ .

(٣١) عنها ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ ؛ نظم ، ٢ ص ٩٩ .

(٣٢) مثلا . صبح ، ٣ ص ٥١٤ — ٥١٥ ؛ انظر . نظم ، ٢ ص ١٠٠ — ١٠٢ .

(٣٣) يحيى ، ص ٢٠٠ س ١٦ — ١٨ .

(٣٤) نفسه ، ص ٢٢٢ س ٥ — ٦ .

(٣٥) الخطط ، ٤ ص ١٧٣ س ١٠ . عنها بالتفصيل ، انظر . نظم ، ٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣٦) يحيى ، ص ٢٢٤ س ١٤ — ١٥ .

(٣٧) أورد ذكر هذه الجوامع المقريزى فى اتعاظ ، ورقات ٦٦ أ — ٦٩ أ ، انظر مجموعة الوثائق ، ١ ص ٥٨ وهامش . يدل هذا على أن الحاكم كان يخرج إلى الصلاة فى كل جمعة من شهر رمضان ، كما كان الحال حينما كانت دولتهم بالمغرب (انظر . سيرة ، جوذر ، ص ١١٣) . وعلى العكس تذكر كتب الرسوم ، أن الركوب يكون أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، ولا تخرج عن جوامع الأزهر والحاكم وعمرو . انظر . مثلا صبح ، ٣ ص ٥٠٣ — ٥١٢ ؛ نظم ، ٢ ص ٩٥ فما بعدها . وربما يكون الحاكم صلى فى جامع راشدة — كما يذكر المقريزى — فلأنه هو بانيه . الخطط ، ٤ ص ٦٣ ؛ انظر .

(٣٨) ولاة ، ص ٦٠٥ .

(٣٩) الخطط ، ٢ ص ٣٥٣ فما بعدها ؛ ٣ ص ٢٢٧ ؛ نظم ، ٢ ص ١٠٧ فما بعدها . يقال إنه احتفره ؛ وربما بعد أن طم .

(٤٠) الخطط ، ٤ ص ٧٢ س ١ ؛ ٣ ص ٢٢٣ .

(٤١) عنه بالتفصيل : انظر . صبح ، ٣ ص ٤٩٨ فما بعدها ؛ نظم ، ٢ ص ١١٠ فما بعدها .

(٤٢) الخطط ، ٣ ص ٢٢ — ٢٣ . يذكر المقريزى وظيفة صاحب السر .

(٤٣) الخطط ، ٤ ص ٧٢ ؛ يحيى ، ص ٢٠٥ . يقول العماد إنه نهى عن تقبيل الأرض له . انظر . شذارات ، ٣ ص ١٩٣ .

(٤٤) الخطط ، ٤ ص ٧٢ — ٧٣ ؛ سفرنامة ، ص ٤٨ ؛ نظم ، ٢ ص ٣٠ .

(٤٥) الخطط ، ٤ ص ٧٢ ؛ انظر . نظم ، ١ ص ٧٦ .

(٤٦) انظر ما سبق فى مكاتباته ؛ وبعده .

(٤٧) رسائل الدروز ، برقم ٦٧٥١ (المكتبة الأهلية بباريس) ورقة ٦ .

(٤٨) الخطط ، ٤ ص ٧٢ . وعلى خلاف ذلك ، أورد السيوطى وغيره من المؤرخين السنة المتعصبين ، أنه أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم خضوعاً وإعظاما لذكره ، واحتراما لاسمه . انظر . حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣ .

(٤٩) الخطط ، ٤ ص ٦٨ (آخر الصفحة) . وذلك فى سنة ٣٨٩ ، وهى سنة قتل برجوان ، على حسب قول المقريزى .

(٥٠) سير الآباء ، ٣ ورقات ٥٣ — ٥٤ .

(٥١) نفسه ، ورقة ٥٣ .

(٥٢) شذرات ، ٣ ص ١٩٤ .

(٥٣) سير الآباء ، ٣ورقة ٥٣ .

(٥٤) نفسه ، ٣ ورقة ٥٥ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٢ .

(٥٥) النجوم ، ٤ ص ١٧٧ س ٣ — ٤ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ٦٠ .

(٥٦) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٣٢ — ٢٢٣ .

(٥٧) يحيى ، ص ٢٠٥ س ١٤ — ١٥ .

(٥٨) نفسه ، ص ١٨٥ س ١٥ .

(٥٩) الخطط ، ٣ ص ٣٢ — ٣٣ ؛ ٤ ص ٧٠ .

(٦٠) عن هذا بالتفصيل ، انظر مثلا : النجوم ، ٤ ص ١٨١ — ١٨٢ ؛ يحيى ، ص ٢٢٤ ؛ ابن العميد ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ فما بعدها ؛ عنان ، الحاكم ، ص ١١٩ .

(٦١) يحيى ، ص ٢٢٤ .

(٦٢) أورد يحيى هذا التاريخ .

(٦٣) نفسه ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٦٤) الخطط ، ٤ ص ٧٣ س ١ — ٦ .

(٦٥) نفسه ، ٤ ص ٨٨ .

(٦٦) يحيى ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ . وذلك فى سنة ١٠١٧/٤٠٨ .

(٦٧) ابن اياس ، ١ ص ٥٢ (الأسطر الأخيرة) .

(٦٨) الخطط ، ٢ ص ٣٠٤ فما بعدها ؛ ٤ ص ٧٤ س٢ ؛ ابن الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق عبدالله مخلص ، ١٩٢٥ ، ص٢٩ ؛ ٣٠ ؛ انظر . نظم ، ١ ص٧٨ — ٧٩ وهامش .

(٦٩) ابن حماد ، ص ٥٥ . يقول De Sacy : ظهرت الوساطة فى عهد شيركوه ، لما حكم فى مصر أيام العاضد ، وأعطيت لابن الجليس ، وذلك بالاعتماد على المقريزى

انظر . Druzes tI, (Introd) p. CCLXXXIII.

(٧٠) يحيى ، ص ٢٠٩ س ١٧ — ٢٠ ؛ ٢٢٠ س ٣ .

(٧١) ابن إياس ، ١ ص ٥٦ س ١٣ — ١٤ .

(٧٢) الكامل ؛ ٧ ص ١٨٠ س ٥ . ومم ؛ انظر . Zambaur :

Manuel de genéalogie et de Chronologie pour l'histoire de l'Islam, p. 94—96.

(٧٣) ابن غلبون ، كتاب التذكار ، فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار نشره وعلق عليه طاهر أحمد الزاوى ، عام ١٣٤٩ هـ .

(٧٤) الخطط ٣ ، ٤٨ — ٤٩ ؛ ٤ ص ٦٨ ٦٩ ؛ يحيى ، ص ١٨٥ ، ذيل ، ص ٥٦ ؛ ٥٩ ؛ ٦٠ ؛ أبو صالح (٤٠ ا) ص ٥١ ؛ انظر حسن إبراهيم ، الدولة الفاطمية ، ص ١٦٥ .

(٧٥) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٤ .

(٧٦) ذيل ، ص ٦٠ .

(٧٧) أبو صالح ٤٠ ا (ص ٥١) ؛ الخطط ، ٣ ص ٤٨ — ٤٩ ، ٤ ص ٦٩ ؛ ذيل ، ص ٦٠ .

(٧٨) الخطط ، ٣ ص ٢٢ — ٢٤ ؛ ٤ ص ٦٨ ؛ ٧٠ — ٧١ ؛ يحيى ، ص ١٩٨ فما بعدها ؛ عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٤٧ فما بعدها ؛ ابن منجب ، الإشارة ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٧٩) الكامل ، ٧ ص ٢٣٥ س ١٨ .

(٨٠) يحيى ، ص ١٩٤ س ١٤ — ٢٥ ؛ ١٩٦ س ٧ — ١٠ . روذبار هى أماكن تقع فى جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة ، وتطلق على قرى من بغداد . انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٨١) يحيى ، ص ١٩٦ — ١٩٨ ؛ الخطط ، ٣ ص ٢٣ ؛ ذيل ، ص ٦١ .

(٨٢) يسميه إدريس أبو الفرج القسورى . انظر . عيون ٦/٧ ، ورقة ٢٥١ . وهو منسوب على ما يبدو — بحسب ملاحظة حسن إبراهيم — الى بنى قشير ، قبيلة كانت تقيم فى البصرة (انظر . دولة الفاطميين . ص ٢٠٧) ، ولكننا نرى أن النسبة الصحيحة إذا كانت الى قشير تكون قشيرى .

(٨٣) انظر نص الكتاب بالملحق ؛ نقلا عن عيون الأخبار ، ٦/٧ ، ورقات ٢٤٨ فما بعدها .

(٨٤) عيون ، ٦ / ٧ ورقات ٢٤٥ — ٢٤٧ ؛ انظر . Druzes : De Sacy tI, p. CCCLI . يبدو أنه لم يكن مغربيا ، وإنما أحد أجداده كان يتولى ديوان المغرب ببغداد ؛ فنسب به الى المغرب . انظر . وفيات ، ١ ص ٢٧٦ فما بعدها ؛ الخطط ، ٣ ص ٢٥٤ فما بعدها.

(٨٥) يحيى ، ص ١٩٨ ؛ ٢٠٢ ؛ الخطط ، ٤ ص ٧١ — ٧٢ .

(٨٦) نفسه ، ص ٢٠٢ ؛ نفسه ، ٤ ص ٧٢ — ٧٣ ؛ ابن منجب ، الإشارة ، ٢٩ .

(٨٧) يحيى ، ص ٢٠٩ ؛ الخطط ، ٤ ص ٧٤ .

(٨٨) نفسه ؛ نفسه ؛ ابن منجب ، ص ٣٠ .

(٨٩) يحيى ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ ؛ ابن منجب ، ص ٣٠ — ٣٢ . يقول المقريزى ان الحاكم استوزر الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد ، فى آخر عهده . الخطط ، ٢ ص ١٦٧ .

(٩٠) يحيى ، ص ١٩٤ س ١٥ — ٢١ ؛ الخطط ، ٤ ص ٧١ .

(٩١) الروذراورى ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٩٢) ابن ميسر ، ص ٢ ؛ انظر . The, Jews in Egypt, I, p. 16 : Mann ؛ نظم ، ١ ص ٩٨ . وصف الشاعر وصول اليهود الى أعلى المناصب ، فقال :

«يهود هذا الزمان قد بلغوا ‏ ‏ ‏ غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم ، والمال عندهم ، ‏ ‏ ‏ ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر انى نصحت لكم ‏ ‏ ‏ تهودوا ، قد تهود الفلك

يبدو أن هذا الشعر قيل فى عهد المستنصر حفيد الحاكم . حسن المحاضرة ، ٢ ص ١١٦ .

(٩٣) بلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية ، كتب فيها للعزيز « بالذى أعز جميع النصارى بنسطورس ، وأعز جميع اليهود بمنشا ، وأذل جميع المسلمين بك إلا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم » . ابن اياس ، ١ ص ٤٨ — ٤٩ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٧٦ .

(٩٤) الروذراورى ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٩٥) يحيى ، ص ٢٠٣ س ١ — ٣ .

(٩٦) عن هذا ، انظر . الأحكام السلطانية ، ص ٦٤ فما بعدها ؛ نظم ، ١ ص ١٩٥ — ١٥٦ .

(٩٧) اتعاظ ، ص ١٦٥ .

(٩٨) الخطط ، ٢ ص ٢٤٨ — ٢٥٠ ؛ نظم ، ١ ص ١٥٨ .

(٩٩) الخطط ، ٤ ص ٦٣ س ٢٦ — ٢٧ .

(١٠٠) ابن اياس ، ١ ص ٥٦ س ٢٤ — ٢٥ .

(١٠١) وفيات ، ٣ ص ٧ .

(١٠٢) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٦ .

(١٠٣) يحيى ، ١ ص ٢١٧ س ١٦ — ١٧ .

(١٠٤) ابن إياس ، ١ ص ٥٢ س ١٧ .

(١٠٥) نفسه ، ص ٢١٧ — ٢٢٨ .

(١٠٦) ولاة، ص ٥٨٠ ؛ ٥٨٧ ؛ ٥٩١ س ١٩ ؛ انظر . بعده ؛ نظم ، ١ ص ١٥٥ فما بعدها .

(١٠٧) اتعاظ الحنفا ، ورقات ١٦٦ ا — ١٦٩ ا ؛ انظر . الشيال ، مجموعة الوثائق ، ١ ص ٥٩ وهامش .

(١٠٨) ابن اياس ، ١ ص ٥٦ ؛ سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٤ .

(١٠٩) الخطط ، ٤ ص ٧٢ س ٢٠ — ٢١ .

(١١٠) اتعاظ ، ورقات ٦٦ — ٦٩ .

(١١١) الخطط ، ٤ ص ٨٨ ؛ وفيات ، ٢ ص ٧٠ ؛ اشارة ، ص ٣٥ — ٣٧ . هو من جرجرايا قرية في العراق .

(١١٢) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٦ .

(١١٣) انظر Répertoire 6, p. 48.

(١١٤) النجوم ، ٤ ص ١٢٥ .

(١١٥) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٦ .

(١١٦) يحيى ، ص ٢٠٦ .

(١١٧) الخطط ، ٣ ص ٢٣ س ٢٢ — ٢٤ ؛ ٤ ص ٧١ س ١٩ — ٢٠ ؛ ابن منجب ، ص ٣٢ .

(١١٨) ابن حماد ، ص ٥٥ .

(١١٩) يحيى ، ص ٢٠٦ .

(١٢٠) الخطط ، ٤ ص ٦٩ .

(١٢١) انظر . ابن اياس ، ١ ص ٥٤ ؛ انظر . حسن ابراهيم ، دولة الفاطميين ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢ .

(١٢٢) عنها بالتفصيل ، انظر . الخطط ، ٣ ص ١٩٦ فما بعدها ؛ نظم ، ١ ص ١١٧ — ١١٨ . نسبة إلى مكان اسمه المقس ، وهو الأزبكية الحالية ، كان يجلس عنده جابي هذه الضريبة ، فحرف الإسم ، وعرفت الضريبة بالمكس .

(١٢٣) صبح ، ٣ ص ٤٤٦ .

(١٢٤) إغاثة الأمة ، ص ١٤ فما بعدها ؛ يحيى ، ١٩٤ — ١٩٥ .

(١٢٥) صبح ، ٣ ص ٥١٦ ؛ انظر . نظم ، ٢ ص ١٠٥ .

(١٢٦) الخطط ، ٢ ص ١٦٨ س ١٤ — ١٥ ؛ ٤ ص ٦٩ .

(١٢٧) ابن الصيرفى ، ص ٣١٦ فما بعدها .

(١٢٨) ولاة ، ص ٥٨٩ — ٥٩١ ، ٥٩٢ — ٥٩٥ . عن ذلك بالتفصيل ؛ انظر . نظم ، ١ ص ١٤٠ فما بعدها .

(١٢٩) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢٢ .

(١٣٠) يحيى ، ص ٢٠٦ س ٢ .

(١٣١) ولاة ، ص ٥٩٤ — ٥٩٥ .

(١٣٢) نفسه ، ص ٥٩٦ — ٥٩٩ ؛ الخطط ، ٤ ص ٦٩ .

(١٣٣) صبح ، ١٠ ص ٣٨٥ — ٣٨٨ .

(١٣٤) يحيى ، ص ٢٠٥ (آخر الصفحة) .

(١٣٥) ولاة ، ص ٥٩٩ — ٦٠٣ .

(١٣٦) نفسه ، ص ٦٠٣ — ٦٠٨ ؛ الخطط ، ٤ ص ٧٣ .

(١٣٧) ولاة ، ص ٦٠٨ فما بعدها ؛ رفع الأصر ، ورقة ٤٣ ب وما يليها ؛ انظر . حسن إبراهيم ، دولة الفاطميين ، ص ٣١٠ — ٣١١ .

(١٣٨) ابن اياس ، ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

(١٣٩) الخطط ، ٤ ص ٧٣ س ٣ — ٤ .

الفصل الرابع

(١) عيون ، ٢/٦ ورقة ٢٢٤ ص ٦ — ٧ .

(٢) أنظر ما أورده الخشاب نقلا عن ناصرخسرو فى كتابه : **Nâçiri Khusrau, Le Caire 1946, p. 145** ؛ نظم ، ١ ص ٢٠٧ ؛ انظر . بعده .

(٣) ابن سعد ، طبقات ، ٥ ص ٢٨٣ س ١٥ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) حسن المحاضرة ، ١ ص ١١٨ فما بعدها .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٨٩ فما بعدها ؛ الخطط ، ٤ ص ١٤٥ س ١٦ فما بعده . عنه ؛ انظر . وفيات ، ٢ ص ٢٠٠ فما بعدها .

(٦) نفسه ، ١ ص ١٢١ فما بعدها ؛ نفسه ، ٤ ص ١٤٥ — ١٤٦ . عنه ؛ انظر . وفيات ، ٢ ص ٢١٤ فما بعدها .

(٧) عن ذلك بالتفصيل ، انظر . الخطط ، ٤ ص ١٤٦ فما بعدها .

(٨) عنه على الخصوص ، انظر .

Ency de l'Isl (art ʿAbd Allâh B. S.ba) t I, p. 30.

(٩) فضائل مصر ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٤٧٢٧ ، ورقة ١٩٣ .

(١٠) هي السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسين بن على ، توفيت بمصر فى ٢٠٨/ ٨٢٤ ؛ وكان زوجها يريد دفنها بالمدينة ، فسأله أهل مصر أن يدفنها عندهم لأجل البركة . عنها ، انظر . وفيات ، ٣ ص ٨٦ ؛ الخطط ، ٤ ص ٣١٣ فما بعدها ؛

Ency. de l'Isl (art al-Saiyida, Nafîsa) t3. p. 883.

(١١) هى السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن على بن الحسين بن على . عنها ، انظر . ابن جبير ، ص ١٦ ؛ على مبارك ، الخطط ، ٥ ص ١٠ .

(١٢) هى السيدة كلثوم (كلثم) بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق . عنها ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٣١٦ . ابن جبير ، ص ١٦ .

(١٣) يحتوى قبره على رأس زيد بن على بن الحسين ، وقد دفن بمصر أيام هشام ابن عبد الملك . الخطط ، ٤ ص ٣٠٦ فما بعدها ؛

Ency de l'Isl (art Zaïd b. ʿAlî) t4 p. 1260.

(١٤) الخطط ، ٤ ص ١٥٥ س ٨ — ٩ .

(١٥) انظر . قبله .

(١٦) البيان ، ١ ص ١٨٢ .

(١٧) انظر . قبله .

(١٨) اتعاظ ، ص ١٤٨ فما بعدها ، وبخاصة ص ١٥١ .

(١٩) الخطط ، ٤ ص ١٤٦ س ١٠ .

(٢٠) نفسه ، ٤ ص ١٥٦ س ١٦ — ٢١ .

(٢١) ولاة ، ص ٥٩٤ . وذلك فى سنة ٩٩٢/٣٨٢ .

(٢٢) عن هذه الخصائص الشيعية ، انظر . الخطط ، ٤ ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢٣) دعائم ، تحقيق آصف فيضى ، ١ ص ١٧٢ .

(٢٤) الخطط ، ٤ ص ١٤٥ — ١٤٦ . كان المصريون يجهرون بها قبلا فى أيام إسلامهم أيام تشيعهم ، وقطعت فى عهد العباسيين منذ ٨٦٧/٢٥٣ .

(٢٥) اتعاظ ، ص ١٦٨ س ٥ — ٦ .

(٢٦) الخطط ، ٢ ص ٣٨٨ ؛ انظر . كاشف الغطاء ، ص ١٥٤ . يعرض وجهة نظر الشيعة بصفة عامة .

(٢٧) الخطط ، ٢ ص ٢٢٢ فما بعدها ؛ انظر . نظم ، ٢ ص ١٢٦ — ١٢٨ اختلف فى تاريخ وصاية النبى لعلى ، فقيل عام ٧ هـ (٦٢٨ م) ، فى أثناء عودة النبى من الحديبية ؛

وقيل فى سنة ١٠ هـ (٦٣٢ م) ، فى آخر حجة النبى ؛ وذلك فى غدير خم وهو مكان بين مكة والمدينة .

(٢٨) نفسه ، ٢ ص ٢٨٩ فما بعدها ؛ انظر ، نفسه ، ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ . عن مقتل الحسين بالتفصيل ، انظر ، الدولة العربية ، ٢ ص ٦٧ فما بعدها .

(٢٩) النجوم ، ٤ ص ١٢٦ س ١ — ٣ .

(٣٠) نفسه ، ٤ ص ٧٧ . لما استقر المعز بالقصر جمع الناس ، فسل سيفه ، وقال : «هذا نسبى» ، ونثر عليهم ذهبا كبيرا ، وقال : « هذا حسبى » !

(٣٠) نفسه ، ٤ ص ١١٦ . فمثلا قيل له :

إنا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر فى الجامع

إن كنت فيما تدعى صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع

(٣٢) انظر مثلا صبح الأعشى ، ١٠ ص ٤٢٤ — ٤٣٩ .

(٣٣) عنه ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٤٩ فما بعدها ؛

Ency. de l'Isl (art Azhar) tI, p. 541 sqq.

(٣٤) الخطط ، ٤ ص ١٥٦ — ١٥٧ ، ٢ ص ٢٢٦ ؛ ابن منجب ، إشارة ، ص ٣٢ .

(٣٥) الخطط ، ٤ ص ٦٩ س ٣١.

(٣٦) الباب السابع عشر من كتاب زهر المعانى (المنتخب) ، ص ٥٤ .

(٣٧) عن ذلك بتفصيل ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٢٦ س ٣ فما بعدها ؛ نظم ، ١ ص ١٨١ فما بعدها .

(٣٨) أنظر . المجالس المستنصرية ، ص ٣٥ ؛ Frag, p. 30 : Guyard (نص عربى) ؛ نظم ، ١ ص ١٨٤ هامش (٤) ؛ عارف تامر ، أربع رسائل اسماعيلية ، ص ١٢ فما بعدها .

(٣٩) الخطط ، ١ ص ٣٤٤ س ٢ .

(٤٠) أنظر Rise, p. 20—22; n (I) : Ivanow . يعتمد على رسالة أحد الدعاة ، واسمه على الحسن أحمد بن الوليد (أواخر القرن السادس / ١٢ م) ؛ انظر . أيضا من نفس مقالة Ivanow :

The organization of the fatimid Propaganda, J. B. B. R. A. S. 15. 1939, p. 10.

(٤١) الخطط ، ٢ ص ٢٢٧ س ١ — ٢

(٤٢) نفسه ، ٢ ص ٢٦٢ س ٢٤ — ٢٧ .

(٤٣) عن ذلك ؛ انظر . Rise, p. 21 .

(٤٤) الخطط ، ٤ ص ٧٠ س ٢ ؛ ١٥٨ س ١٦ .

(٤٥) نفسه ، ٢ ص ٢٢٦ .

(٤٦) نفسه ، ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٧ ؛ يحيى ، ص ١٨٨ س ٤ — ٧ .

(٤٧) عنها بالتفصيل ؛ انظر . نفسه ، ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٥ .

(٤٨) نفسه ، ٤ ص ٥٥ فما بعدها . لا يذكر القلقشندى أن جامع الأنور هو جامع الحاكم (صبح ، ٣ ص ٤٠٩) ؛ ونحن نثق فى رواية المقريزى ، ذلك لأن كتاب الخطط عبارة عن وصف دقيق لطبوغرافية عاصمة الفاطميين . انظر . نظم ، ٢ ص ٩٦ هامش (١) .

(٤٩) الخطط ، ٤ ص ٦٣ — ٦٥ ؛ وفيات ، ٣ ص ٦ — ٧ . عن هذا الفلكى ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٨٥ ؛ انظر بعده .

(٥٠) عنها ؛ أنظر . النجوم ، ٤ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٥١) الخطط ، ٤ ص ٦٥ — ٦٦ . عن أم دنين ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٣٣ .

(٥٢) نفسه ، ٤ ص ٢٦٤ س ٧ .

(٥٣) النجوم ، ٤ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ؛ انظر . ملاحظة De Sacy :
Druzes, p. CCCLXVI et nI .

(٥٤) الخطط ، ٤ ص ٤٩ — ٥٢ .

(٥٥) نفسه ، ٢ ص ٢٣٨ س ٢٥ — ٢٦ .

(٥٦) انظر . صبح الأعشى ، ١٠ ص ٣٨٥ — ٣٨٨ .

(٥٧) الخطط ، ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ نظم ، ١ ص ١٨٨ .

(٥٨) الحمادى ، كشف أسرار الباطنية ، ١٩٣٩ ، ص ١٢ ؛ تاج العقائد ، ص ٤٧ ؛
Frag. p. 32—33—36.: Guyard

(٥٩) سيرة المؤيد فى الدين ، تحقيق محمد كامل حسين ؛ القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٧ .

(٦٠) المجالس المؤيدية ، مخطوطة برقم ٨٤ (٢ ورقة ٢٦) ملحق بالمجالس المستنصرية ، ص ١٤٩ .

(٦١) النعمان ، المجالس والمسايرات ، ١ ورقة ١٧٨ ؛ نظم ، ١ ص ٦٠ .

(٦٢) فى رأى البغدادى — وهو سنى — أن الفاطميين تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا ، يورث تضليلا ؛ بقصد عبادة الإمام ؛ فهم يعنون بالصلاة — دون القيام بها — موالاة الإمام ، والحج زيارته وادمان خدمته ، والصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام ، دون الإمساك عن الطعام ... عن ذلك ، انظر . الفرق ، ص ٢٨٠ . عن مثل هذه الأقوال ؛ انظر أيضا ما أورده الحماد اليمانى فى كتابه كشف أسرار الباطنيه ؛ انظر .

(٦٣) انظر . الكتب الشيعة نفسها ؛ انظر . Rise, p. 124

(٦٤) الخطط ، ٢ ص ٢٢٦ س ١٠ — ١٢ .

(٦٥) الملل ، ص ١٤٧ .

(٦٦) عن هؤلاء ، انظر .cf. Ency. de l'Isl. t2

(٦٧) تحقيق كامل حسين وغيره ، انظر .

(٦٨) الهمداني ، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الاسماعيلية فيها ، بومباي ١٩٣٥ . انظر الرسائل نفسها ، طبعة زنزبار ١٣٠٦هـ .

(٦٩) الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٧ ؛ انظر : Ivonow

Studies in Early Persian Ismaelism. p, 115—120.

بعض كتب هؤلاء الفلاسفة ، لا تزال توجد خطية في المكتبات الخاصة . انظر . الهمداني الصليحيون ، ص ٢٥١ فما بعدها .

(٧٠) الرسالة الواعظة ، ص ٤ ؛ Guide, p.46

(٧١) الخطط ، ٢ ص ١٥٨ س ١٤ ؛ ٢٢٧ — ٢٣٣ ، انظر . Casanova ؛ نظم ، ١ ص ١٨١ .

Doctrine Sècrète des Fatimides. cf.

(٧٢) الخطط ، ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٢٨٨ — ٢٩٠ .

(٧٣) الخطط ، ٤ ص ٧٠ س ٢ — ٣ ، ١٥٨ س ١٧ .

(٧٤) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٧٥) يحيى ، ص ١٩٥ س ٩ — ١٢ .

(٧٦) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٢ ؛ انظر بعده .

(٧٧) كان المصريون يفعلون ذلك من قبل الى سنة ٢٥٣ / ٨٦٧ . الخطط ، ٤ ص١٤٦ س ٥ ؛ انظر . De Sacy : n (4) ; Druzes, p. CCCXL III - IV

(٧٨) الخطط ، ٤ ص ١٥٨ س ٥ — ٦ ؛ انظر . حسن إبراهيم ، دولة الفاطميين ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٧٩) الخطط ، ٢ ص ٢٩٠ ، ولاة ، ص ٦٠٠ .

(٨٠) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٤ . في آخر الصفحة ؛ انظر . بعده .

(٨١) الخطط ، ٢ ص ٣٣٤ س ٢٥ — ٢٧ .

(٨٢) ولاة ، ص ٦١٠ ؛ انظر . قبله .

(٨٣) حسن المحاضرة ، ١ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٨٤) صبح ، ٣ ص ٥٢٤ .

(٨٥) الخطط ، ٤ ص ١٥٦ س ٢٥ — ٢٦ . وذلك في سنة ٩٧٣/٣٦٢ .

(٨٦) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٤ س ١٣ فما بعدها .

(٨٧) الخطط ، ٤ ص ٦٩ — ٧٠ ؛ ١٥٨، ١٦٠ (على الخصوص) .

(٨٨) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٥ . لدينا صيغة أخرى للسجل (ابن خلدون العبر ، ٤ ص ٦٠ — ٦١ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ٧٧) . ولكننا فضلنا الصيغة المذكورة لوضوحها ؛ وإن كنا قد أخذنا تاريخ صدور السجل عن ابن خلدون ، الذى يقول إنه صدر فى مناسبة تعرض بعض الشيعة للسنة ، وهم يصلون التراويح .

(٨٩) النجوم ، ٤ ص ١٧٨ س ١٥ — ١٧ .

(٩٠) نفسه ؛ شذرات ، ٣ص ١٩٣ .

(٩١) الخطط ، ٤ ص ١٥٧ .

(٩٢) نفسه . وذلك فى سنة ٣٨١/٩٩١ .

(٩٣) نفسه ، ٢ ص ١٦٩ س ٥ .

(٩٤) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ١٧٨ ؛ انظر . نظم ، ١ ص ١٦١ فما بعدها .

تبين أهمية هذا المبدأ فى حديث نبوى ورد فيه . « يا أيها الناس ، إن الله يقول لكم ؛ مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم . وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم » . انظر . ابن ماجه وابن حيان فى صحيحه .

(٩٥) انظر . Ismaili law, p. 40 : Fyzee ، تحقيق وترجمة ، وصية على للحسن مأخوذة من دعائم الإسلام

(٩٦) هذه كلمة تطلق على كل ما يكتب فى ديوان الإنشاء . صبح ، ١٠ ص ٣٠٠ .

(٩٧) يحيى ، ص ٢١٨ — ٢١٩ ؛ ابن اياس ، ١ ص ٥٢ س ٧ .

(٩٨) النجوم ، ٤ ص ١٨٤ س ١٦ .

(٩٩) وذلك عن محتسبه ورئيس شرطته غبن ؛ انظر . الخطط ، ٤ ص ٨٧ — ٨٨ ؛ انظر قبله . وذلك فى سنة ٤٠٢/١٠١١ .

(١٠٠) انظر . ولاة ، ص ٥٩٦ .

(١٠١) يبالغ بعض مؤرخى السنة عن عقوبات الحسبة للحاكم : فنهم من يقول إنه كان يضرب الأعناق ، أو أنه كان يخرج ومعه رجل أسود عريض ، يمشى فى ركابه اسمه مسعود ، يأمره بفعل الفاحشه العظمى «اللواط» فى الشخص المخالف (انظر . ابن اياس ، ١ ص ٥٢ — ٥٣ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣) . ولكن هذه المبالغات ، لم تظهر إلا من قبل المؤرخين السنيين ضده ؛ كما هو ملاحظ .

(١٠٢) الخطط ، ٤ ص ١٥٨ — ١٥٩ ؛ يحيى ، ص١٨٧ ؛ ابن اياس ، ١ص ٥٢ : يقول هذا الأخير إن الحاكم ضرب أعناق من خالف أوامره ، وأكل الملوخيا .

(١٠٣) الخطط ، ٤ ص ١٥٨ س ٧ ؛ ١٥٩ س ٣ .

(١٠٤) نفسه ، ٣ ص ١٧٥ — ١٧٦ . فسر بعض المؤرخين هذا الأمر ؛ بأن الحاكم منع من العمل بالنهار ، وساقوا قصة عن ذلك ، منها : أن الحاكم فى مرة اجتاز بشيخ يعمل

التجارة فى أثناء النهار ، فوقف عنده ، وقال : ألم ننهكم عن هذا ، فقال الشيخ : يا سيدى ، أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار ، فهذا من جملة السهر ، فتبسم الحاكم وتركه؛ ثم أعاد الناس إلى ما كانوا عليه ؛ بالعمل بالنهار . ابن اياس ، ١ ص ٥٢ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣ . ولكن لم يرد إلينا من مراجع موثوق فيها — مثل المقريزى مثلا — عن ذلك شيء .

(١٠٥) يحيى ، ص ١٨٦ س ١٠ — ١١ .

(١٠٦) الخطط ، ٤ ص ١٥٩ — ١٦٠ . يقول ابن اياس انكسر اثنا عشر ألف جرة . بدائع ، ١ ص ٥٢ .

(١٠٧) أورد ذلك De Sacy : Druzes p. CCCLVI

(١٠٨) الخطط ، ٤ ص ٧٢ س ١٢ ؛ ٨٨ س ٨ .

(١٠٩) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢٥ .

(١١٠) الخطط ، ٤ ص ١٥٨ س ٧ — ٨ . أستبعد تلك الرواية المصطنعة ، التى تقول بأنه لما هاجم الثائر أبو ركوة مصر ، استدعى الحاكم جماعة من المغنين وأصحاب الملاهى إلى مجلسه وشرب على غنائهم . (انظر . يحيى ، ص ١٩٢ س ٨ — ٩) . فقد كان الحاكم مشغولا بصد أبى ركوة ؛ فهذا أولى ولا ريب ، لا سيما وأنه نجح فى ذلك .

(١١١) يحيى ، ص ١٨٧ س ١٨ — ١٩ .

(١١٢) نفسه ، ص ١٨٦ .

(١١٣) العينى ، تاريخ ، ورقة ١٧٨ .

(١١٤) يحيى ، ص ٢٠٠ س ١١ — ٢١ .

(١١٥) الخطط ، ٣ ص ١٧٦ س ٨ ؛ ١١ ؛ ٤ ص ٦٩ .

(١١٦) نفسه ، ٤ ص ٧٢ س ٦ — ٧ ؛ س ٢١ .

(١١٧) يحيى ، ص ٢٠٧ س ١ — ٣ .

(١١٨) نفسه ، ص ٢٠٧ س ٢ — ٣ ؛ ابن اياس ، ١ ص ٥٢ .

(١١٩) الخطط ، ٤ ص ١٧٦ . وذلك فى سنة ٣٩١ / ١٠٠٠ .

(١٢٠) يحيى ، ص ١٨٦ س ١١ — ١٣ .

(١٢١) النجوم ، ٤ ص ١٧٨ — ١٧٩ ؛ حسن ، ٢ ص ١٣ س ٢١ ؛ ابن حماد ، ص ٥٥ . يقول هذا الأخير ، إن المنع استمر سبع سنين .

(١٢٢) ابن العبرى ، ص ٣١٣ .

(١٢٣) يحيى ، ص ٢٠٨ س ١٠ — ١١ .

(١٢٤) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٤ . يقول السيوطى إنه قتل خلقاً من النساء على مخالفته أمره حسن ، ٢ ص ١٣ .

(١٢٥) وفيات ، ٣ ص ٥ س ١٤ ؛ انظر . الكامل ، ٧ ص ٢٤٠ وهامش . نقل عن ابن كثير فى البداية والنهاية .
(١٢٦) انظر . Hakem, p. 110 : Betty
(١٢٧) الخطط ، ٤ ص ٣٩٨ — ٣٩٩ .
(١٢٨) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٨ .
(١٢٩) يحيى ، ص ١٩٧ ؛ انظر . بعده .
(١٣٠) يحيى ، ص ١٩٣ .
(١٣١) نفسه ، ص ١٨٦ س ٥ .
(١٣٢) نفسه ، ص ١٦٤ — ١٦٥ ؛ سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٠ ؛ ابن العميد ، ص ٢٤٧ .
(١٣٣) عن خيابر ؛ انظر . معجم المبلدان ، ٣ ص ٤٩٤ — ٤٩٧ .
(١٣٤) من مصطلحهم متعددة ؛ انظر . يحيى ، ص ١٨٧ ؛ ١٩٥ ؛ ٢٠٠ ؛ ٢٠٢ — ٢٠٣ ؛ سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٤ — ٥٥ ؛ ابن حماد ، ص ٥٢ ، الخطط ، ٤ ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(١٣٥) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٦ .
(١٣٦) عن هذا العيد بالتفصيل ؛ انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ؛ نظم ، ٢ ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(١٣٧) ابن إياس ، ١ ص ٤٦ — ٤٧ . عن النوروز بالتفصيل ؛ انظر . الخطط ، ٢ ص ٣٠ — ٣١ ؛ نظم ، ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(١٣٨) يحيى ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .
(١٣٩) انظر . Chrest. 2,p. 95. : De Sacy . مع أن اليهود فى البلاد المسيحية كانوا يتميزون ببعض العلامات من لون خاص فى لبسهم .
(١٤٠) الكامل ، ٤ ص ٢٤٠ ؛ سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٦ .
(١٤١) ذيل ، ص ٦٧ ؛ Druzes, p. CCCXXXVI - II. : De Sacy
(١٤٢) الخطط ، ٤ ص ٣٩٩ س ١ .
(١٤٣) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٤ ؛ يحيى ، ص ٢٠٠ س ١٤ — ١٦ ؛ ٢٠٣ س ١٧ — ١٨ .
(١٤٤) الخطط ، ٤ ص ٣٩٩ س ٤ — ٥ .
(١٤٥) أبو صالح ، كنائس ص ١٣٤ (١٠٦ ب) .
(١٤٦) الخطط ، ٤ ص ٣٩٩ .
(١٤٧) يحيى ، ص ٢٢٩ ؛ ٢٣٢ .

(١٤٨) أبو صالح ، ص ٥٨ ، (١٤٦) .

(١٤٩) يحيى ، ص ٢٣١ .

(١٥٠) نفسه ، ص ١٩٧ .

(١٥١) الكامل ، ٧ ص ٢٤٠ ؛ يحيى ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ سير الآباء ورقة ٥٠ — ٧٦ ؛ عنان ، الحاكم ، ص ٦٩ ؛ Lane - Poole : Egypt, p. 128

(١٥٢) الخطط ، ٢ ص ١٦٩ س ٩ .

(١٥٣) يحيى ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(١٥٤) نفسه ، ص ١٩٤ .

(١٥٥) النجوم ، ٤ ص ١٧٧ س ١٠ — ١٢ .

(١٥٦) الخطط ، ٤ ص ٣٩٩ س ٢٥ .

(١٥٧) يحيى ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ؛ ٢٢٨ .

(١٥٨) انظر ذلك في :

De Sacy : Druzes, CCCXLI et no 2 : Quut : Mém. Geog. et hist, t I, p. 462.

(١٥٩) ذيل ، ص ٦٧ .

(١٦٠) يحيى ، ص ٢٠٧ س ٤ فما بعدها .

(١٦١) نفسه ، ص ٢٢١ (آخر الصفحة) ؛ الخطط ، ٣ ص ١٢ .

(١٦٢) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٣ . كذلك يقول جاك تاجر إن الحاكم ليس بمجنون ، ولكنه ، شرس . انظر . أقباط ومسلمون ، ص ١٣٠ .

(١٦٣) كان له طبيب نصراني اسمه ابن المقشر المصري يعزه جدا . ابن العبري ، ص ٣١٦ .

(١٦٤) ابن اياس ، ١ ص ٥١ س ٤ — ٦ ، عن هذه [illegible] ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٥ — ٦ .

(١٦٥) صبح الأعشى ، ٣ ص ٣٥٧ ،

(١٦٦) يحيى ، ص ١٩٧ .

(١٦٧) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٥ ؛ الخطط ، ٤ ص ٣٩٨ (يعتمد على مصادر نصرانية) .

(١٦٨) يحيى ، ص ٢٣٢ س ٥ — ٦ .

(١٦٩) يحيى ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(١٧٠) حسن ، ٢ ص ١٣ س ١٣ .

(١٧١) الخطط، ٢ ص ١٦٩ س ٨ — ١٠ ؛ انظر . Dölger :
Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches, I, Berlin—Munich, 1924, 824. ؛ أسد رستم ، ١ ص ٦٤.

(١٧٢) العينى ، تاريخ ، ورقات ١٨٥ — ١٨٦ .

(١٧٣) يحيى ، ص ٢٣٢ س ٥ — ٦ .

(١٧٤) ابن اياس ، ١ ص ٥١ .

(١٧٥) يحيى ، ص ٢٣٢ س ٥ — ٦ .

(١٧٦) نفسه ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(١٧٧) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٠ .

(١٧٨) الخطط ، ٤ ص ٤٠٠ .

(١٧٩) أبو صالح ص ١٣٤ (١٠٦ ب) .

(١٨٠) سير الآباء ، ٣ ورقة ٥٩ .

(١٨١) يحيى ، ص ٢٣٢ س ٧ — ٨ .

(١٨٢) شذرات ، ٣ ص ١٥٠ .

(١٨٣) يحيى ، ص ٢٢٨ س ٧ — ٩ .

(١٨٤) الخطط ، ٢ ص ١٦٩ س ١٠ — ١١ .

(١٨٥) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣ س ١٤ — ١٥ .

(١٨٦) رسائل الدروز رقم ٦٧٥٢ (٠ م ٠ هـ . ب) ورقة ١٩ . أنظر مثلا محنة الخوارج فى مصنف مجهول (لعله من كتاب ، أنساب الأشراف) ص ٧٨ ؛ التاريخ السياسى ، ٢ ص ١٤٠ .

(١٨٧) أنظر ابن حزم ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٢١ هـ ، ٤ ص ١٧٩ فما بعدها (شنع الشيعة) .

(١٨٨) المجالس والمسايرات ، ١ ورقة ١١٣ .

(١٨٩) الملل والنحل ، ص ١٠٩ ؛ انظر . كاشف الغطاء ، الشيعة ط ١٠ ، ص ١٢٨ .

(١٩٠) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٩١) نفسه ، ٦/٧ ورقة ٢٥٢ س ١٣ — ١٥ .

(١٩٢) شذرات ، ٣ ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٨٣ ؛ الكرمانى ، الرسالة الواعظة ، تحقيق كامل حسين ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٤ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ ؛ النويرى ، ٢٦ ورقة ٥٩ ؛ انظر . De Sacy :
Druzes. CCCLXXXVI.

(١٩٣) يحيى ، ص ٢٢٠ — ٢٢٤ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٨٤ ؛ العيني ، تاريخ ، ورقات ١٧٥ ؛ ١٨٤ ؛ انظر . Druzes, CCCLXXIII sqq ؛ انظر بعده .

(١٩٤) يحيى ، ص ٢٢٤ س ١٢ .

(١٩٥) يحيى ، ص ٢٢٣ س ٧ .

(١٩٦) عن هذه الرواية الأخيرة ، انظر . Druzes, CCCLXXV . يعتمد على كتب الدروز .

(١٩٧) يحيى ، ص ٢٢١ س ٥ .

(١٩٨) النجوم ، ٤ ص ١٨٣ .

(١٩٩) يحيى ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢٠٠) حسن ، ٢ ص ١٣ .

(١٠١) شذرات ، ٣ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢٠٢) العيني ، ورقة ١٨٤ .

(٢٠٣) النجوم ، ٤ ص ١٨٤ .

(٢٠٤) يحيى ، ص ٢٢٣ س ٨ .

(٢٠٥) ابن اياس ، ١ ص ٥٣ — ٥٤ ؛ انظر . قبله .

(٢٠٦) النجوم ، ٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢٠٧) الرسالة الواعظة ، مقدمة ، ص ١٠ .

(٢٠٨) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢٦ س ٢ — ٣ .

(٢٠٩) نفسه ، ورقة ٢٥٢ س ١٥ .

(٢١٠) انظر مثلا النجوم ، ٤ ص ١٧٦ س ١٩ .

(٢١١) يحيى ، ص ٢٠٩ س ٢١ .

(٢١٢) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦١ فما بعدها .

(٢١٣) ابن اياس ، ١ ص ٥٦ س ١١ — ١٢ .

(٢١٤) يحيى ، ص ٢٠٦ س ١٨ — ٢٠ .

(٢١٥) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٦ — ٢٦٨ ؛ وفيات ، ٣ ص ٥ — ٦ .

(٢١٦) يحيى ، ص ٢٢٣ س ١٦ — ١٧ .

(٢١٧) رسائل الدعاة ، مخطوط برقم ٦٧٥١ (م .هـ .ب) ورقة ٦ .

(٢١٨) الخطط ، ٢ ص ٢٢٣ س ٥ ؛ ٤ ص ٧١ س ٢٢ ، ٢٢٧ س ٢ — ٣ .

(٢١٩) مثلا يحيى ، ص ٢٣١ .

(٢٢٠) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٥٤ .

(٢٢١) شذرات ، ٣ ص ١٥٨ .
(٢٢٢) رقم ٦٧٥١ (م . هـ . ب) ورقة ٤ ؛ انظر . Druzes. CCCXXXIX
(٢٢٣) العبر ، ٤ ص ٦٠ س ٤ .
(٢٢٤) النجوم ، ٤ ص ١٧٦ س ١٧ — ١٨ .
(٢٢٥) يحيى ، ص ٢١٨ .
(٢٢٦) النجوم، ٤ ص ٧٠ — ٧١ ؛ ابن حماد ، ص ٤٦ .
(٢٢٧) يحيى ، ص ٢١٨ .
(٢٢٨) يحيى ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ؛ ذيل ، ص ٥٧ ؛ ٦٥ .
(٢٢٩) يحيى ، ص ٢٢٣ س ١٦ — ١٧ .
(٢٣٠) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ النجوم ، ٤ ص ٢٢٢ س ٥ — ٩ .
(٢٣١) الكرمانى ، الرسالة الدرية ورقة ١٣ (مكتبة كامل حسين الخاصة) ؛ ومقدمة راحة العقل ، تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمى ، ٢ م .
(٢٣٢) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٥٢ — ٢٥٣ ؛ Guide, p. 43; 134 ؛ الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٢٥٨ — ٢٦٠ .
(٢٣٣) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٥٩ س ٩ .
(٢٣٤) نفسه ، ٦/٧ ورقات ٢٥٣ — ٢٥٤ .
(٢٣٥) انظر . الرسالة الواعظة ، ص ٢٧ — ٢٨ .
(٢٣٦) يحيى ، ص ٢٢٣ فما بعدها ؛ العينى ، تاريخ ، ورقة ١٨٤ ؛ انظر . Druzes, CCCLXXXVII sqq ; CCCxC. عن زوزن ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٤١٦ .
(٢٣٧) يحيى ، ص ٢٢٣ .
(٢٣٨) عن هذا المسجد ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٢٧١
(٢٣٩) يحيى ، ص ٢٢٤ س ١٨ .
(٢٤٠) رقم ٦٧٥٢ (م . هـ . ب) ورقة ٤٣ .
(٢٤١) نفسه ، ورقات ٦٨ — ٦٩ ؛ ٧١ ؛ يحيى ، ص ٢٢٢ س ١٦ — ١٧ .
(٢٤٢) نفسه ، ورقة ٤٢ .
(٢٤٣) العينى ، تاريخ ، ، ورقة ١٨٤ .
(٢٤٤) رقم ٦٧٥٢ (م. هـ. ب) ورقة ٦٦ .
(٢٤٥) نفسه، ورقة ٤٣ ؛ انظر . زهر المعانى (المنتخب) ص ٥٥ ، وذلك فى أيام محمد بن اسماعيل .
(٢٤٦) يحيى ، ص ٢٢٣ .
(٢٤٧) رقم ٦١٢١ (م . هـ . ب) ورقة ٢ — ٣ .

(٢٤٨) نفسه ، ورقة ١٣ ؛ العينى ، تاريخ ، ورقة ١٨٤ .

(٢٤٩) رقم ٦١٢١ (م . هـ . ب) ورقة ٣ ، ٨ ؛ عقائد نحل (د . ك) برقم ١٣٨ .

(٢٥٠) المؤيد ، جامع الحقائق ، نسخة فتوغرافية بجامعة القاهرة ، ١ ص ١٣ ؛ ٤٥ ؛ رسالة واعظة ، ص ٢٥ وهامش ؛ ديوان المؤيد فى الدين ، تحقيق محمد كامل حسين ، ص ٨٩ فما بعدها .

(٢٥١) رقم ٦١٢١ (م . هـ . ب) ؛ انظر .

(٢٥٢) عن هذه الفرقة ، انظر ، النجوم ، ٤ ص ٢٤٩ س ٦ — ٩ ؛
Histoire : Dussaud ؛ Ency. de l'Isl (art Nusairî) t3, p. 1030—1033 ؛ كردعلى ، خطط الشام ، ١٩٢٨ ، et religion des Nosairis. Paris 1900.
٦ ص ٢٥٨ — ٢٦٨ .

(٢٥٣) رقم ٦٧٤٦ (م . هـ . ب) ورقة ٧ ، ٦٧٤٧ (م . هـ . ب) ؛ ورقم ٦٧٥٢ (م . هـ . ب) .

(٢٥٤) انظر . Guyard : Frag, p, 3 nI. .

(٢٥٥) النجوم ، ٤ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢٥٦) رقم ٦٧٥٢ ورقة ٣٢ ؛ رقم ١٣٣ (د. ك) ورقات ١٣٥ — ١٣٨ ؛ الحاكم ، عنان ، ص ٢٠٦ .

(٢٥٧) رقم ٦٧٥٢ ورقة ٣٥ .

(٢٥٨) أوردها De Sacy : Druzes, CCCXCI et (n) .

(٢٥٩) Ibid, I, p. 24 — 25.

(٢٦٠) العينى ، تاريخ ، ورقة ١٧٥ .

(٢٦١) رقم ٦٧٤٦ ورقة ٥ ، رقم ٣٧ (عقائد نحل) ؛ رقم ٦٧٥١ (م. هـ. ب) ، ورقة ١ فما بعدها ؛ عنان ، الحاكم ، ص ٢٥٩ فما بعدها .

(٢٦٢) رقم ٦٧٥٢ ورقة ١٩ .

(٢٦٣) نفسه ، ورقة ٤٣ .

(٢٦٤) نفسه ، ورقة ٢ ؛ ١٣ ، ٦٧٤٦ ورقة ٧ ؛ رقم ٦٧٥١ ورقة ٦ .

(٢٦٥) رقم ١٣٩ (د. ك) ورقات ٦٢ — ٦٨ ، عنان ، الحاكم ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢٦٦) يحيى ، ص ٢٢٤ س ١ — ٢ .

(٢٦٧) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢٦٨) يحيى ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢٦٩) العينى ، تاريخ ، ورقة ١٨٦ .

(٢٧٠) الكامل ، ٦ ص ٧٠ ؛ ١٠٠ .

(٢٧١) الفرق بين الفرق ، ص ٢٨١ .

(٢٧٢) انظر اعتراف بعض المؤرخين ، مثل De Sacy : Druzes, I, p.24—25; Betty : Hakim, p. 189. ؛ عنان ، الحاكم ، ص ١٩٩ . انظر ، مثلا : عقائد نحل ، برقم ٢٠ .

(٢٧٣) انظر . Druzes, CCCCLV sqq.

(٢٧٤) انظر Ibid, CCCCLXV .

(٢٧٥) انظر . Ibid, CCCCLVIII.

(٢٧٦) انظر . Ibid, I, p. 8; n (1) .

(٢٧٧) انظر . Ibid, CCCCLXIV .

(٢٧٨) رقم ٦٧٥٢ (م. هـ. ب.) ، ورقة ١٧ ؛ شرح الأخبار ، مخطوط (د. ك.) برقم ٢٠٦٢ ح ، ورقة ٢ ؛ نظم ، ١ ص ٧٢ .

(٢٧٩) انظر . Rise, p. 146—7; 152 .

(٢٨٠) عنهم ، انظر على الخصوص : عنان ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ (ينقل عن صديق) . انظر . Ency. de l'Isl (art Druzes) t I, p. 1108 sqq ; Betty, chap. V...

(٢٨١) انظر . Betty, p. 198 . عن كورة حوران : معجم البلدان ، ٣ ص ٣٦٠—٣٦١ .

(٢٨٢) انظر Betty, p. 197 .

(٢٨٣) ابن اياس ، ١ ص ٥٨ .

(٢٨٤) كاشف الغطاء ، ص ٩٩ فما بعدها .

(٢٨٥) انظر مثلا : تاريخ جبل لبنان ، مخطوط (د . ك) ، برقم ١٦م ، ألف سنة ١٢٧٥ هـ .

(٢٨٦) النعمان ، المجالس والمسايرات ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٦٠٦٠ ، ورقات ، ٣٥٨ — ٣٧٢ ؛ نظم ، ١ ص ٧١ب .

(٢٨٧) يحيى ، ص ٢٣٦ ؛ انظر أيضاً ما ورد في النجوم ، ٤ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

الفصل الخامس

(١) يحيى ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) انظر . قبله ، ص ٢٢—٢٣ .

(٣) عنهم ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٦٦ — ٧٠ ؛ انظر . Canard :

Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie

el. cf.

(٤) ابن الشحنة، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، تحقيق سركيس ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ٩٠ . عن نهر قويق ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٨٨ .

(٥) النجوم ، ٤ ص ١٦ س ١٠ — ١٢ .

(٦) اتعاظ ، ص ١٤١ — ١٤٢ ؛ الخطط ، ٢ ص ١٦٥ ؛ انظر . Quat :

Vie de Moezz, 2, Paris 1836, p. 50—51.

(٧) اتعاظ ، ص ١٧٨ س ١٠ .

(٨) معجم البلدان ، ٤ ص ٢٢٨ ؛ انظر . بعده .

(٩) انظر . Guerdron :

Vie, Grandeurs et Misères de Byzance. Paris 1954, p. 3 sqq.

(١٠) عنه ، انظر . الكامل ، ٧ ص ٣٨ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٨ — ١٩ ؛ ٥٥ — ٥٧ ؛ Cedrenus :

Synopsis Historiae Corpus scriptorum historiae byzantinae Léon Diacre(ed. Hase) ؛ (CSHB). 1838—9, éd Becker p. 507 sqq. : Schlumberger ؛ CSHB. 1828, p. 204.

Un empreur byzantin au X Siècle, Nicephore Phocas, Paris 1890.

؛ أسد رستم ، الروم فى سياستهم ، ٢ ص ٣٦ فما بعدها .

(١١) عن أنطاكية ، انظر . معجم البلدان، ١ ص ٣٥٣ فما بعدها .

(١٢) ذيل ، ص ١٢ — ١٤ ؛ انظر .

R. H. C. Doc Arm, (Paris 1869) rI p. 5 sqq.

؛ انظر . أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٤٥ فما بعدها ؛ Shlumberger :

L'épopée byzantine à la fin du Xe Siècle 1909 II (I Jecan Tzimiscès).

(١٣) انظر . ذيل ، ص ١٤ س ١٤ ؛ Cedrenus, p. 535 .

(١٤) ذيل ، ص ١٥ — ٢١ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٢٨ .

(١٥) ذيل ، ص ٤١ ؛ يحيى ، ص ١٦١ ؛ ابن العميد ، ص ٢٤٨ ؛ الروذراورى ، ص ٣٣ .

(١٦) ذيل ، ص ٤١ فما بعدها ؛ النجوم ، ٤ ص ١١٧ فما بعدها ؛ Canard : Epopée byz, II, p. 58 sqq ; : Schlumberger ؛ H'amdanides, t I p.856 sq

(١٧) الروذراورى ، ص ١١٦ — ١٧ ؛ ابن العميد ، ص ٢٥١ .

(١٨) Runciman : La Civil, Byz. 50.

(١٩) عنها ؛ انظر . عبادة ، سفن الأسطول ، ص ٥ — ٦ ؛ نظم ، ١ ص ٢٢٣ ؛ Dozy : Suppl, I, 783.

(٢٠) انظر . الخطط ، ٣ ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢١) النجوم ، ٤ ص ١٢١ س ٥ .

(٢٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٦٢ .

(٢٣) يحيى ، ١ ص ١٨١ — ١٨٢ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ ؛ العبر ، ٤ ص ٥٧ . عن صور ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣٩٧ — ٨ .

(٢٤) الروذراورى ، ص ١٨٥ .

(٢٥) النجوم ، ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٢٦) يحيى ، ص ١٨٤ .

(٢٧) اتعاظ ، ورقات ٩٦ ب — ٩٩ أ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٩٢ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ١ ص ٥٩ هامش .

(٢٨) يحيى ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ .

(٢٩) نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٣٠) الخطط ، ٤ ص ٦٨ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٧٨ .

(٣١) الروذراورى ، ص ١٨٥ .

(٣٢) يحيى ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ ؛ ٢٠٧ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٨٠ ؛ الروذراورى ، ص ٢٢٥ .

(٣٣) يحيى ، ص ٢١٠ فما بعدها ؛ ابن العميد ، ص ٢٥٦ ؛ المبى ، تاريخ ، ورقات ١٨٤ — ١٨٥ ؛ الكامل ، ٧ ص ٢٦١ — ٢٦٢ ؛ النجوم ، ٤ ص ٢٢٢ ؛ ٢٣٥ ؛ الروذراورى ، ص ٢٣٦ فما بعدها .

(٣٤) رسائل أبى بكر الخوارزمى ، طبعة القسطنطينية ، عام ١٢٩٧ هـ ، ص ٤٩ ؛ متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ط ٢ ، ١ ص ٧٧ .

(٣٥) عنهم ، انظر . الكامل ، ٦ ص ٢٣٠ فما بعدها ؛ وفيات ، ١ ص ٩٧ — ٩٩ ؛ ٢ ص ٦٥ ؛ المقريزى ، السلوك (الطبعة الثانية) ١/١ ص ٢٣ فما بعدها ؛ Ency de l'Isl, (art Bûyides) t I, p. 827—828.

(٣٦) النجوم ، ٤ ص ١٤٢ ؛ مسكويه ، تجارب ، تحقيق Caetani ، طبعة Leyden ، ٦ ص ٤٩٩ .

(٣٧) النوبختي ، ص ٥٣ ؛ انظر . Aubin :

Le Chiisme et la Nationalité persanne. R. M. M. Vol 4., Mars, 1908, n, 3, p.457 sqq. Defrémery : Essai sur l'Histoire, des Ismaeléens de la Perse. p. 12.

(٣٨) النوبختي ، ص ٥٧ .

(٣٩) السلوك ، ١/١ ص ٢٧ ص ١٧ — ١٨ .

(٤٠) النجوم ، ٤ ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٤١) الكامل ، ٧ ص ٢٣ — ٢٤ ؛ ٩٥ — ٩٩ .

(٤٢) ابن العميد ، ص ٢٤٤ — ٢٥٢ ؛ انظر . Canard :

Deux documents arabes, sur Bardas Skléros, Studi Bizantini e Neoellenci, Vol. V/I Rome, 1939.

(٤٣) الروذ رواري ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٤٤) مثل الأكراد . الكامل ، ٧ ص ١٩٢ .

(٤٥) شذرات ، ٣ ص ١٣٠ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٧٣ ؛ متز ، الحضارة ، ١ ص ٩١ .

(٤٦) الكامل ، ٧ ص ١٤٨ .

(٤٧) النجوم ، ٤ ص ١٦٢ ص ٩ — ١١ .

(٤٨) انظر . متز ، الحضارة ، ١ ص ٩١ — ٩٢ . (ينقل عن مخطوطة) .

(٤٩) النجوم ، ٤ ص ١٦٣ .

(٥٠) عنهم ، انظر . نفسه ، ٤ ص ١٢١ — ١٢٢ ؛ الكامل ، ٧ ص ١٨١ — ١٨٢ ؛ شذرات ، ٣ ص ١٦٠ ؛ ابن العميد ، ص ٢٥٧ ؛ العبر ، ٤ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ الروذراوري ، ص ٢٣٩ فما بعدها .

(٥١) عن الخطبة كلها ، انظر . النجوم ، ٤ ص ٢٢٤ — ٢٢٧ .

(٥٢) النجوم ، ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ؛ شذرات ، ٣ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٥٣) كذلك كتب الحاكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، إلى العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجوه ، ورد فيه : « أما بعد ، فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ؛ ولو عرفناك لأجبناك والسلام » أنظر . وفيات ، ٣ ص ٥٣ .

(٥٤) عن المرتضى ، انظر . وفيات ، ٢ ص ١٤ فما بعدها ؛ الكامل ، ٧ ص ٢٢٩ . عن الأسفرائيني ، انظر . وفيات ١ ص ٣٣ .

(٥٥) مقدمة ، ص ١٦ ـ ١٨ .

(٥٦) انظر . Polemics. London 1934. p. 16 sq.

(٥٧) الفرق بين الفرق ، ص٢٦٦ ؛ كشف ، ص ١٦ — ١٨ ؛ الفهرست ، ص١٨٨ ؛
Rise, p. 127 sqq ؛ Polemics, P. 43 sqq.

(٥٨) النجوم ، ٤ ص ٧٤ س ١٨ .

(٥٩) زهر المعاني (المنتخب) ، ص ٤٧ ؛ ٤٩ ؛ ؛ انظر . قبله .

(٦٠) انظر Lewis :
The Origins of Ismâ'ilism , p. 63 - 4.

(٦١) انظر كشف ، ص ١٩ ، انظر . Ivanow :
Alleged Founder of Ismâ'îlism. pp. 7—8.
كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٥ .

(٦٢) غاية المواليد (المنتخب) ص ١٦ ؛ في نسب الفاطميين ، ص ١١ ؛ ابن حماد ، ص ١٤ ، حسن إبراهيم ؛ عبيد الله ، ص ٧٩ فما بعدها ؛ انظر. قبله .

(٦٣) ابن اياس ، ١ ص ٥٦ .

(٦٤) يحيى ، ص ٢٠٦ .

(٦٥) انظر . قبله .

(٦٦) افتتاح ، ورقة ١٨ـ١٩ ؛ عيون ٦ ورقات ٣٨ ؛ ١١٤ـ١١٧ ؛ انظر . Stern :
Ismâ'îli Propaganda, and the Fatimid Rule in Sind I.C, Oct. 1949, PP. 298— 307.
Abbâs al-Hamdani ؛ The beginnings, :
of the Ismâ'îlî da ' wa in Northern India, Cairo 1956.

(٦٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، طبعة Leiden ، ص ٤٨١ ؛ انظر .
Ency. (art Multân) t3 p. 771.

(٦٨) الكامل ، ٧ ص ١٩٧ .

(٦٩) الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٧ .

(٧٠) النجوم ، ٤ ص ٢٣٢ .

(٧١) الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ؛ شذرات ، ٣ ص ١٨٦ .

(٧٢) كشف ، ص ٢١ فما بعدها ؛ افتتاح الدعوة ، ورقة ٣ فما بعدها ؛ انظر . الهمداني ، الصليحيون ، والحركة الفاطمية في اليمن ، ص ٢٩ فما بعدها .

(٧٣) افتتاح ، ورقه ١٩ ، انظر . قبله .

(٧٤) سيرة جعفر الحاجب ، ص ١١٠ ؛ انظر . الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٣٩ ؛ انظر . قبله .

(٧٥) كشف ، ص ٣٢ فما بعدها ؛ الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٤١ فما بعدها .

(٧٦) سلوك (تاريخ اليمن) ، مختصر كاى ، ص ١٥١ ؛ الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٥٢ .

(٧٧) النجوم ، ٤ ص ١٢٢ س ١ — ٢ .

(٧٨) عبوث ، ٦ ورقات ٢٧١ — ٢٧٢ ؛ الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٥٦ ؛ ٣٠١ ملحق رقم (١) .

(٧٩) كشف ، ص ٤٢ ؛ انظر . الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٥٧ — ٥٨ وهامش (٢) .

(٨٠) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٧٣ فما بعدها .

(٨١) العبر ، ٤ ص ٨٨ فما بعدها ؛ انظر .

Ency. de l'Isl (art Karmates) t2, p. 813 sq.

(٨٢) اتعاظ ، ص ٢٥١ فما بعدها .

(٨٣) ذيل ، ص ٢٠ — ٢١ .

(٨٤) النجوم ، ٤ ص ٣٦٧ .

(٨٥) العبر ، ٤ ص ١٠١ ؛ الروذراورى ، ص ١٠٩ س ٣ — ٤ .

(٨٦) النجوم ، ٤ ص ١٤٥ ؛ ١٦٧ ؛ ١٦٩ ؛ الروذراورى ، ص ١٠٩ .

(٨٧) للمسعودى ، مروج ، ١ ص ٣٦٢ ؛ انظر . متز ، الحضارة الإسلامية ، ترجمة أبى ريدة ، ١ ص ٤ .

(٨٨) العبر ، ٤ ص ١١ ؛ ٩٩ ؛ صبح ، ٤ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ؛ Wust : Chron. Mekka II, 24 ؛ سرور ، النفوذ الفاطمى ، ط ١ ، ص ١١ ؛

Ency. de l'Isl (Mekka) t3, p. 512 sq.

(٨٩) صبح ، ٧ س ١٣ — ١٤ ؛ العبر ، ٤ ص ١٠٠ ؛ الخطط ، ٤ ص ١٥٥ .

(٩٠) العبر ، ٤ ص ١٢ ؛ سرور ، النفوذ ، ص ١٤ .

(٩١) النجوم ، ٤ ص ١١ ؛ ١٨ .

(٩٢) اتعاظ ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ البيان ، ١ ص ٢٢١ .

(٩٣) اتعاظ ، ص ١٩٣ ؛ انظر . نظم ، ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ ؛ Quat : Vie de calife Moezz, p. 172-3. Snouck Hurgronje : Mekka, p. 53 sq.

(٩٤) سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص ٦٥ .

(٩٥) الخطط ، ٢ ص ٣٨٨ .

(٩٦) نفسه ، ٣ ص ٢٦٥ . هذه البركة عرفت أولا « بجب عميرة » ؛ لأنها كانت معسكرا لعشيرة عميرة ، ثم قيل لها « أرض الجب » ، ثم عرفت فى العصر الفاطمى « بركة الحجاج » .

(٩٧) المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٢ — ١٤ (مقدمة) ؛ ٥٨ .

(٩٨) الروذراورى ، ص ٥٧ .

(٩٩) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٤٥ فا بعدها ؛ الروذراورى ، ص ٢٣٦ فا بعدها ؛ الخطط ، ٣ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ؛ ٤ ص ٧٢ ؛ انظر . Wust : Chron. Mekka II, 207.

(١٠٠) يحيى ، ص ٢٤٤ ؛ انظر . قبله .

(١٠١) سيرة جوذر ، ص ٥٩ . عنهم ، انظر . العبر ، ٦ ص ١٤٨ فا بعدها .

(١٠٢) عنها ؛ انظر العبر ، ٦ ص ١٥٢ فا بعدها .

(١٠٣) العبر ، ٦ ص ١٥٥ . عنه بالتفصيل ، انظر وفيات ، ١ ص ١٦٤ .

(١٠٤) عنه ، انظر . وفيات ، ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

(١٠٥) العبر ، ٦ ص ١٥٥ — ١٥٦ ؛ اتعاظ ، ص ١٤٢ ؛ ١٤٤ ؛ ١٤٥ .

(١٠٦) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق Colin و Levi - Provençal ، ١ ص ٢٣٠ .

(١٠٧) نفسه ، ١ ص ٢٣٧ .

(١٠٨) نفسه ، ١ ص ٢٣٩ ؛ ٢٤٦ — ٢٤٧ ؛ العبر ، ٦ ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(١٠٩) نفسه ، ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ؛ نفسه ، ٦ ص ١٥٧ — ١٥٨ . عنه بالتفصيل : وفيات ، ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(١١٠) عنهما ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ١٣٣ فا بعدها ؛ ٦ ص ٣٤ فا بعدها ؛ ص [illegible] فا بعدها .

(١١١) الخطط ، ٤ ص ٧٠ ؛ التذكار فيه ملك طرابلس ، ص ١٢ ؛ انظر . Brémond : Berbères et Arabes Paris. 1942. p. 124.

(١١٢) التذكار ، ص ١٦ فا بعدها ؛ ابن عذارى ، ١ ص ٢٠٨ .

(١١٣) وفيات ، ١ ص ٢١٠ ؛ العبر ، ٦ ص ١٥٥ .

(١١٤) العبر ، ٦ ص ١٥٦ ؛ انظر . الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(١١٥) ابن عذارى ، ١ ص ٢٥٦ ؛ العبر ، ٤ ص ٥٩ .

(١١٦) الخطط ، ٤ ص ٦٩ س ٣ ١٩ .

(١١٧) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٣١ فما بعدها ؛ العبر ، ٤ ص ٥٨ — ٥٩ ؛ يحيى ، ص ١٨٨ فما بعدها ؛ ابن حماد ، ص ٤٩ ؛ الكامل ، ٧ ص ٢٣٤ — ٢٣٧ ؛ النجوم ، ٤ ص ٢١٥ — ٢١٧ ؛ العينى ، ورقات ١٧٦ — ١٧٧ ؛ انظر . De Sacy : Druzes, CCCXVI sqq.

(١١٨) يحيى ، ص ١٨٩ س ٢٥ .

(١١٩) البيان ، ١ ص ٢٥٨ .

(١٢٠) الخطط ، ٤ ص ٦٩ ؛ عيون ٦/٧ ورقة ٢٣٧ .

(١٢١) العبر ، ٦ ص ١٣ ؛

Ency. t2, p. 325—6; 4, p. 542—3.

(١٢٢) الكامل ، ٧ ص ٢٣٦ .

(١٢٣) يحيى ، ص ١٩٢ س ١ فما بعدها .

(١٢٤) عيون ، ٦/٧ ورقه ٢٣٩ .

(١٢٥) يحيى ، ص ١٩١ س ٦ — ٧ .

(١٢٦) النجوم ، ٤ ص ٢١٢ س ٥ — ٦ .

(١٢٧) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٦٦ ؛ انظر . قبله .

(١٢٨) أبو صالح ، ص ١٢١ (٩٥ ب) . أماعن معاهدة البقط ، انظر . الخطط ، ١ ص ٣٢٢ فما بعدها .

(١٢٩) الخطط ، ٤ ص ٧٠ س ٢٠ .

(١٣٠) الكامل ، ٧ ص ٢٩٠ .

(١٣١) نفسه ، ٧ ص ١٢٦ .

(١٣٢) عيون ، ٦/٧ ورقات ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(١٣٣) الكامل ، ٧ ص ٢١٨ .

(١٣٤) ابن عذارى ، ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(١٣٥) الكامل ، ٧ ص ، ١٨٢ ؛ ١٩٨ — ١٩٩ ؛ ٢٧٦ — ٢٧٩ ؛ أبو الفدا ، ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ Marçais : La Berbérie Musulmane, p. 163 sqq.

(١٣٦) عن المعز ، انظر . ابن عذارى ، ١ ص ٢٦٧ فما بعدها ؛ الكامل ، ٧ ص ٢٧٧ — ٢٧٩ .

(١٣٧) عنه ، انظر . الخطط ، ٤ ص ١٤٤ س ٢٢ — ٢٥ ؛ انظر O'Leary : Hist. of the Fatimids, p. 200.

(١٣٨) ابن عذارى ، ١ ص ٢٧٩ .

(١٣٩) ابن عذارى ، ١ ص ٢٨٥ ؛ الكامل ، ٧ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ؛ انظر . أحمد محمود ، محنة الشيعة بافريقية فى القرن الخامس الهجرى ، فصلة من مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، مجلد ١/٢ — ديسمبر ١٩٥٠ ، ص ٩٥ .

(١٤٠) انظر . Lavoix : Cotalogue, tI, p. 78—79 (92).

(١٤١) الاستقصا ، ص ١٦٧ ؛ انظر . محنة الشيعة ، ص ٩٨ .

(١٤٢) النجوم ، ٤ ص ١٧٨ ؛ انظر . قبله .

(١٤٣) يحيى ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٤٤) ابن عذارى ، ١ ص ٢٦٩ .

(١٤٥) الكامل ، ٥ ص١٨٦ فما بعدها ؛ انظر .

Ency. de l'Isl (art Sicile) t4, p. 414 Sqqq.

عنها ؛ انظر ، معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٣ فما بعدها .

(١٤٦) الكامل ، ٨ ص ١٥٨ ؛ انظر .

Ency de l'Isl (art Malte) t3, p 227 Sq.

(١٤٧) الكامل ، ٥ ص ٢٥٢ ؛ ٢٦٧ . عنها ؛ انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(١٤٨) لم يرد عن ذلك شيئا فى المصادر العربية القديمة ، انظر . Lauer :
Le poème de la destruction de Rome, Mélange de l'École de Rome xlV, 1899, pp. 307—91 ؛ نقولا زيادة ، صور من التاريخ العربى ، ص ٤٨ .

(١٤٩) المقدمة ، ١ ص ٢٠١ .

(١٥٠) أنظر ابن عذارى ، ص ١٧٥ ؛ أمارى ، المكتبة الصقلية (Biblioteca Arabo - Sicula) ، ١ ص ٤٣٤ ؛ عبيد الله ، ص ١٩٩ .

(١٥١) معجم البلدان ، ١ ص ٣١١ — ٣١٢ ، ٤ ص — ٣٠٠ ، ٧ ص ٢٦ .

(١٥٢) مخطوطة من مؤلف مجهول ، بعنوان : شموس الغيوب من حناديس القلوب (م.هـ.ب) برقم ٢٦٦٩ ؛ انظر . Abel :
Un Hadît sur la prise de Rome dans la tradition eschatologique de l'Islam. Arabica tv, Janv. 1958. Fasc I, p. I sqq.
عن رومية ؛ انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٣١ فما بعدها .

(١٥٣) ابن خلدون،المقدمة ، ص ٢٠١ ؛ العبر ، ٤ ص٢٠٨ ؛ انظر . Reinaud :
Invasions des Sarrazins en France. Paris 1836, p. 63.

(١٥٤) ابن عذارى ، ١ ص ١٩٣ .

(١٥٥) النبهان ، المجالس والمسايرات ، ١ ورقة ٢٦٦ .
(١٥٦) اتعاظ ، ص ١٤٤ وهامشها (٤) .
(١٥٧) ابن عذارى ، ١ ص ٢٣٨ .
(١٥٨) الكامل ، ٨ ص ١٥٧ ؛ انظر . Amari :
Storia dei Muselmani di Sicila. Firenze 1858, 2, p. 360 Sqq.
(١٥٩) يحيى ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(١٦٠) ولاة ، ص ٦١١ .
(١٦١) أنظر . Lavoix : Catalogue p. 65 : 67 (156 -160).

الفصل السادس

(١) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢٤ — ٢٢٥ .
(٢) النجوم ، ٤ ص ١٨٥ فما بعدها ؛ ابن الصيد ، ١ ص ٢٥٨ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl (art Sitt al-Mulk), t4, p. 481—82 ؛
Wust : Gesch der Fat. p. 214 Suiv.
؛ عنان ، الحاكم ، ص ١٢٥ فما بعدها .
(٣) ذيل ، ص ٤٤ .
(٤) يسمى الخنجر يافورت . النجوم ، ٤ ص ١٨٧ س ٩ .
(٥) الخطط ، ٤ ص ٧٤ .
(٦) ابن اياس ، ١ ص ٥٨ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٣٣ .
(٧) الخطط ، ٣ ص ٢٠ — ٢١ .
(٨) يحيى ، ص ٢٤٤ س ١ . كان مولدها بالمغرب عام ٣٥٩ / ٩٧٠ ، ونرفض قول المقريزى — نقلا عن المسبحى — بأن مولدها فى ٣٠٥/٩١٧ ، وأنها توفيت عام ٤٢٥/١٠٣٤ انظر . الخطط ، ٢ ص ٣٣٢ـ٣٣٣ ؛ انظر . قبله .
(٩) انظر مثلا الخطط ، ٢ ص ٣٣٢ . فهى أهدته فى مرة هدايا كثيرة من جملتها ثلاثون فرسا عراكبها من الذهب ، وعشرون بغلة بسروجها ولجمها ، وخمسون خادما ، ومائة تخت من أنواع الثياب ، وتاج مرصع بنفيس الجوهر وغير ذلك .
(١٠) يحيى ، ص ٢٣٨ س ١ — ٧ ؛ العينى ، تاريخ ، ورقة ١٨٠ فما بعدها .
(١١) النجوم ، ٤ ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(١٢) ابن حماد ، ص ٥١ — ٥٢ .
(١٣) يحيى ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ؛ وفيات ، ٣ ص ٧ ؛ ابن العبرى ، ص ٢١٢ — ٢١٣ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٨٥ — ١٨٨ ؛ ١٩٠ — ١٩١ .

(١٤) زهر المعانى (المنتخب) ، ص ٤٧ — ٤٩ ؛ ٥٤ ؛ محمد كامل حسين ، الإسماعيلية ، ص ١٤ .

(١٥) انظر . قبله .

(١٦) انظر مثلا . زهر المعانى ، المنتخب ، ص ٤٧ — ٤٩ ؛ كاشف الغطاء ، ص ٩٩ فما بعدها .

(١٧) رسائل الدروز برقم ٦٧٥١ (م. ه. ب) ؛ عقائد نحل (د. ك) ، برقم ٣٧ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ٢٥٩ فما بعدها ؛ انظر الملحق .

(١٨) ابن اياس ١ ص ٥٨ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٩١ س ١٠ — ١١ .

(١٩) ابن حماد ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٢٠) أوردها De Sacy عن مخطوطة ابن العبرى بباريس ، انظر . Druzes, I, p. ccccxVII ؛ عنان ، الحاكم ، ص ١٤٠ وهامشها .

(٢١) يحيى ، ص ٢٣٣ .

(٢٢) الخطط ، ٢ ص ٢٩٤ — ٢٢٥ .

(٢٣) سير الآباء ، ٣ ورقات ٥٩ — ٦٠ ؛ أبو صالح ، ص ٦٦ (٥٢ ب) .

(٢٤) يحيى ، ص ٢١٨ .

(٢٥) عيون ، ٦/٧ ورقة ٢٢٤ .

(٢٦) سير الآباء ، ٣ ورقة ٦٠ .

(٢٧) الكامل ، ٨ ص ٣٦ .

(٢٨) يحيى ، ص ٢١٩ .

(٢٩) ابن حماد ، ص ٥٨ .

(٣٠) نهاية الأرب ، ٢٦ ورقة ٦٠ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ١٣٤ .

(٣١) النجوم ، ٤ ص ١٩٢ س ١٥ .

(٣٢) انظر Répertoire 6, p. 119 ; 120 ؛ النجوم ، ٤ ص ١٩٣ ؛ يحيى ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ . ؛ اتعاظ ، ورقات ٦٦ أ — ٦٩ أ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ١ ص ٥٧ — ٦٠ هامش .

(٣٣) الكامل ، ٧ ص ٣٤ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٧ .

(٣٤) عن ذلك بالتفصيل : نظم الفاطميين ، ١ ص ٥٦ (فصل الامامة) .

(٣٥) الهداية الآمرية ، ص ٢٢٠ فما بعدها (فى مجموعة الوثائق) . عن ذلك بالتفصيل ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٧٤ (فصل الامامة) .

(٣٦) يحيى ، ص ٢٠٨ س ٤ . عن المظلة بالتفصيل ، نظم ، ٢ ص ٧٠ — ٧١ .

(٣٧) انظر قبله .

(٣٨) الهداية الآمرية ، ص ٢١٥ (في مجموعة الوثائق).
(٣٩) مثلا : الخطط ، ٤ ص ٧٣ س ١٥ — ١٦.
(٤٠) انظر . Lavoix . Catalogue p. 76 (186)
(٤١) انظر . Répertoire, t 6, p. 119 - 120.
(٤٢) الخطط ، ٤ ص ٧٣ س ١٧ — ١٨ ؛ اتعاظ ، ورقات ٦٦أ — ٦٩أ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، هامش (١) ص ٥٧ — ٩٠.
(٤٣) رقم ٦٧٢٥ ورقات ٦٨ — ٧١.
(٤٤) يحيى ، ص ٢٠٨ س ٤ — ٦.
(٤٥) نفسه ، ص ٢٢٧ ؛ الخطط ، ٤ ص ٧٤.
(٤٦) انظر . Druzes, p. cccci
(٤٧) يحيى ، ص ٢٢٠ س ٢ — ٣.
(٤٨) نفسه ، ص ٢٣٥ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٨٩ — ١٩٠ ؛ الكامل ، ٧ ص ٣٠٦ — ٣٠٧.
(٤٩) نهاية الأرب ، ٢٦ ورقة ٦١.
(٥٠) يحيى ، ص ٢٣٤ ؛ النجوم ، ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤.
(٥١) يحيى ، ص ٢٣٦ س ١١ — ١٣ . يقول أبو الفدا وعمره ست وثلاثون وتسعة أشهر . أبو الفدا ، ٢ ص ١٥١.

الخاتمة

(١) يحيى ، ص ٢٢٢ س ٣ فما بعدها.
(٢) وفيات ، ٢ ص ٣٤٢.

ب — المصادر والمراجع

١ — عربية

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تصحيح عبد الوهاب النجار وغيره (الجزء السابع على الخصوص) ، مصر ١٣٥٣ هـ.
أحمد توفيق ، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، الجزائر ١٣٦٥ هـ.

أحمد بن عبد الله ، كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا ، زنزبار ١٣٠٦ هـ .
إدريس عماد الدين ، عيون الأخبار ، (الجزء السادس على الخصوص) مخطوطة مصورة بمكتبتي الخاصة . عن مخطوطة الهمداني .
أربع رسائل إسماعيلية ، تحقيق عارف تامر ، سلمية — سورية ، ١٩٥٢ .
أسد رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، في جزءين ، بيرت ١٩٥٥ — ١٩٥٦ .
أماري ، المكتبة الصقلية ، بعنوان : Biblioteca Arabo — Sicula ، في جزءين ، طبعة Lipsia ، ١٨٥٧ — ١٨٨٧ .
ابن إياس ، تاريخ مصر ، المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الأول ، بولاق ١٣١١ هـ .
الباشا (حسن) ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ .
البراوي ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ .
البغدادي ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٩١٠ .
جاك تاجر ، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢ ، القاهرة .
ابن جبير ، رحلة ، تحقيق حسين نصار ، مصر ١٩٥٥ .
جعفر منصور اليمن ، كتاب الكشف ، تحقيق Strottmann، القاهرة ١٩٥٢ .
جمال الدين بن علي ، أخبار الدول المنقطعة ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٨٩٠ / تاريخ .
الجوذري (أبو علي منصور) ، سيرة الأستاذ جوذر ، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، حققه وقدم له محمد كامل حسين وشعيرة،القاهرة ١٩٥٤.
ابن الجوزي (أبو الفرج) ، المنتظم ، رسالة القرامطة ، نشرت في :
Revista degli Studi Orientali, Vol XIII.
ابن الجوزي (أبو المظفر) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٥١ تاريخ . المجلد الثاني والثالث (الجزء الحادي عشر) .
ابن حجر،رفع الإصر عن قضاة مصر،مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ١٠٥ تاريخ .
ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٣ أجزاء، الطبعة الأولى،١٣٢١ هـ .
حسن إبراهيم ، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ، بولاق ١٩٣٢.
، النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع علي إبراهيم ، القاهرة ١٩٣٩ .
، عبيد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ، بالاشتراك مع طه شرف ،القاهرة ١٩٤٧ .

، المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ، بالاشتراك مع طه شرف ، القاهرة ١٩٤٨ .
، اليمن ، فى مجموعة اخترنا لك ، رقم ٥٢ ، القاهرة ١٩٥٨ ، دار المعارف .
، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ، ومصر ، وسورية ، وبلاد العرب ، الطبعة الثانية من كتاب الفاطميون فى مصر ، القاهرة ١٩٥٨ .
حسن محمود ، علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية ، رسالة ماجستير ، بجامعة القاهرة ١٩٤٦ .
، محنة الشيعة بإفريقية فى القرن الخامس الهجرى ، فصله من مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٠ ، ص ٩٣ فما بعدها .
، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .
ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، حققه Vonderheyden ، طبعة Paris—Alger ، ١٩٢٧ .
الحماد اليمانى ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، القاهرة ١٣٥٧ / ١٩٣٩ .
بن حوشب (منصور اليمن) ، رسالة الرشد والهداية ، تحقيق محمد كامل حسين ، فى مجلة Collectanea ، المجلد الأول ، ١٩٤٨ .
، الفرائض وحدود الدين (فى نسب الخلفاء الفاطميين) ، تحقيق حسين الهمدانى ، القاهرة ١٩٥٨ (مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة) .
ابن خلدون ، مقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٧٤ هـ .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، تعريب ع . م ، القاهرة ١٩٤٦ .
الذهبى ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٢ تاريخ ، مجلدات ٢٢ — ٢٤ .
الرازى (أحمد بن حمدان) ، الزينة فى المصطلحات الإسلامية ، تحقيق حسين الهمدانى الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .
الرازى (محمد بن زكريا) ، رسائل فلسفية ، نشرها Kraus ، القاهرة ١٩٣٩ .
ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ، وتاريخ فاس ١٨٤٣ .
رسائل الحاكم بأمر الله ، كتبها دعاة الفاطميين ، لا سيما حمزة بن على ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم : ٢٠ و ٣٥ و ٣٧ و ٤٣٩ و ٥٤٣٣ و ١٣٨ ؛ عقائد نحل ؛ وبالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم : ٦١٢١ و ٦٧٤٦ و ٦٧٤٧ و ٦٧٥١ و ٦٧٥٢ .
الروذراورى (أبو شجاع) ، ذيل كتاب تجارب الأمم ، تحقيق Amedroz ، مصر ١٣٣٤ / ١٩١٦ .

الزاوى (طاهر) ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، طبعة دار المعارف ، بالقاهرة .
زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ .
ابن زولاق ، كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها (مختصر) ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٤٧٢٢ .
السجلات المستنصرية ، تحقيق وتقديم عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ .
سرور ، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٠ .
، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، القاهرة ١٩٥٧ .
السيوطى (عبد الرحمن) ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر ، فى جزءين ، القاهرة ١٣٢٧ هـ .
أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، فى جزءين ، القاهرة ١٢٨٧ — ١٢٨٨ هـ .
ابن الشحنة ، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، حققه سركيس ، بيروت ١٩٠٩ .
الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعة London ، ١٨٤٦ .
الشيال ، مصر والشام بين دولتين ، القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧ .
، نظام الوزارة فى العصر الفاطمى ، مقالة بمجلة الثقافة ، العدد ٦٣٨ ، ١٩ مارس ١٩٥١ .
، مجموعة الوثائق الفاطمية ، وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة ، جمعها وحققها وأعدها للنشر مع دراسات تحليلية مقارنة ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٥٨ .
أبو صالح ، كنائس وأديرة مصر ، تحقيق وترجمة Evetts ، طبعة Oxford ، ١٨٩٥ م .
ابن الصيرفى ، الاشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤ .
طه شرف ، تاريخ الإسماعيلية السياسى ، الجزء الاول ، ١٩٤٧ .
عبد الحميد يونس ، الأزهر ، بالاشتراك مع عثمان توفيق ، القاهرة ١٩٤٦ .
عبد المنعم ، المهدى المنتظر ، الهادى النبوى ، مجلد ١٩ ، صفر ١٣٧٤ ، ص ١٠ فما بعدها .
ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ .
ابن العديم ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، نشر سامى الدهان ، فى جزءين ، دمشق ١٩٥١ — ١٩٥٤ .
العدوى ، الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، مصر ١٩٥٨ .
ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق : Colin, Lévi - Provençal ، طبعة Leyden ، ١٩٤٨ .
عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبرى ، القاهرة ١٣٢١ هـ .

علم الإسلام ، المجالس المستنصرية ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٧ .
على إبراهيم ، تاريخ جوهر الصقلى ، القاهرة ١٣٥١/١٩٣٣ .
، تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٣ .
على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٦هـ .
على بن الوليد ، تاريخ العقائد ومعدن الفوائد ، ترجمة Ivanow ؛ بعنوان :
"A Creed of the Fatimids. Cambridge 1936."
ابن العماد (عبد الحى) ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ — ١٣٥٣ ، (الجزء الثالث) .
عمارة اليمنى ، النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق Derenbourg ، طبعة Paris ، ١٨٩٧ .
(وغيره) ، تاريخ اليمن ، تحقيق وترجمة Kay ، طبعة London ، ١٨٩٢ .
ابن العميد ، تاريخ المسلمين ، تحقيق وترجمة Erpenii ، طبعة — Lugduni Batavorum ، ١٦٢٥ .
عنان ، مصر الإسلامية ، وتاريخ الآثار الإسلامية ، القاهرة ١٩٣١ .
، الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٣٢ .
، تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٤٢ .
العينى (بدر الدين) ، تاريخ دولة بنى العباس والطولونيين والفاطميين ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٥٧٦١ .
، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ .
الغزالى ، فضائح الباطنية ، تحقيق Goldziher ، طبعة Leyden ، ١٩١٦ .
أبو الفدا (اسماعيل) ، المختصر فى أخبار البشر ، الطبعة الحسينية الأولى .
القضاعى ، مختصر التاريخ ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ١٤٩٠ .
ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق Amedroz ، بيروت ١٩٠٨ .
القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ .
آل كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، الطبعة العاشرة ، القاهرة ١٩٥٨ .
كامل حسين ، نظرية المثل والممثول ، القاهرة ١٩٤٨ .
، فى أدب مصر الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٠ .
، طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، (المكتبة التاريخية باشراف أحمد عزت عبد الكريم) ، القاهرة ١٩٥٩ .
الكرمانى ، راحة العقل ، تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٥٢ .
، الرسالة الواعظة فى نفى ألوهية الحاكم بأمر الله ، فصلة فى مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٤ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ .

الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، وبه ذيل مأخوذ من كتاب رفع الإصر ، تحقيق Guest ، بيروت ١٩٠٨ .
ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥ .
، العلاقة بين بغداد والقاهرة فى عهد الفواطم ، مجلة الرسالة العدد ٧٠٣ , و ٧٠٤ ، ديسمبر ١٩٤٦ .
الماوردى ، الأحكام السلطانية ، صححه بدر الدين ، مصر ١٩٠٩ .
متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، نقله الى العربية أبو ريدة ، فى جزءين ، الطبعة الثانية ١٩٤٧ .
أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، (الجزء الرابع على الخصوص) ، طبعة دار الكتب ، بالقاهرة ١٣٥٢/١٩٣٣ .
محمد بن غلبون ، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها منه الأخبار ، تحقيق طاهر الزاوى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .
معرفة ، القضاء فى مصر من الفتح العربى الى الفتح الفاطمى ، القاهرة ١٩٤٥ .
، نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ .
المقدسى ، أحسن التقاسيم ، تحقيق de Goeje ، طبعة Leyde ، ١٨٧٧ .
المقريزى ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .
، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ؛ ونسخة مصورة من مخطوطة طوب قبوسراى .
، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الطبعة الثانية ، الجزء الأول/القسم الأول ، تحقيق زيادة ، القاهرة ١٩٥٦ .
، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق زيادة والشيال (الطبعة الثانية) ، القاهرة ١٩٥٧ .
مؤلف مجهول ، تاريخ جبل لبنان (جبل الدروز) مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ١٦ م .
شموس الغيوب من حنادس القلوب ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٢٦٦٩ .
المؤيد فى الدين ، السيرة المؤيدية ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩ .
، ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩ .
ميخائيل (الأنبا) ، ذيل سير الآباء البطاركة ، الجزء الثالث ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٦٤٣٤ ح .

ابن ميسر ، تاريخ مصر ، تحقيق Massé ، القاهرة ١٩١٩ .
ناصر خسرو ، سفر نامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .
ابن النديم ، كتاب الفهرست ، تحقيق Flügel ، في جزءين ، طبعة Leipzig ، ١٨٧١ — ١٨٧٢ .
النعمان ، المجالس والمسايرات ، ٣ أجزاء ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٦٠٦٠ .
، افتتاح الدعوة الزاهرة ، مخطوطة بمكتبة حسين الهمداني الخاصة .
، شرح الأخبار ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٧٠٦٢ .
، دعائم الإسلام ، الجزء الأول ، تحقيق آصف بن علي فيضي ، القاهرة ١٩٥١ .
نقولا زيادة ، برقة ، بيروت ١٩٥٠ .
النوبختي ، فرق الشيعة ، صححه وعلق عليه محمد صادق ، النجف ١٩٣٦ .
النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٤٩ معارف عامة ، مجلدات ٢٠ إلى ٢٦ .
النيسابوري ، استتار الإمام ، تحقيق Ivanow ، مجلة كلية الآداب ، ٤ ، صفحات ٩٣ — ١٠٧ ، القاهرة ١٩٣٩ .
الهداية الآمرية ، تحقيق Fyzee ، طبعة Calcutta ، ١٩٣٨ .
الهمداني (حسين) ، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، بالاشتراك مع حسن سليمان ، القاهرة ١٩٥٥ .
، بحث تاريخي في رسائل اخوان الصفا ، وعقائد الإسماعيلية ، طبعة بومباي ١٩٣٥ .
الهمداني (عباس بن حسين) ، نبذة تاريخية عن الدعوة الاسماعيلية في شمال الهند في مراحلها الأولى ، مصر ١٩٥٦ .
ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٤/١٩٠٦ .
يحيى بن سعيد الأنطاكي ، صلة تاريخ أوتيخا ، تحقيق شيخو ، في جزءين ، بيروت ١٩٠٩ .
اليماني (محمد بن محمد) ، سيرة جعفر الحاجب ، تحقيق Ivanow ، في مجلة كلية الآداب ، مجلد ٤ ، ديسمبر ١٩٣٦ ، صفحات ٩٣ — ١٣٣ ؛ ترجمة Canard بعنوان : L'Autobiographie d'un chambellan du Mahdi 'Obeid le Fâtimide. Hespéris 3e; 4e trim. 1952, pp. 279-330.

٢ — أوربية

Abbas (al-Hamdani): The beginnings of Ismâ'îlî Da'wa in Northern India. Cairo, 1956.

Abel : Un Hadit. sur la prise de Rome dans la tradition eschatologique de l'Islam. Arabica tv. Jan 1958. Fasc I, p. I sqq.

Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia Vol 2 Firenze, 1858.

Aubin : Le Chiisme et la Nationalité persane. R. M. M. Vol IV. Mars 1908, No 3, p. 457—491.

Becker : Regierung und Politik unter dem Chalifen Zâhir. Beiträge zur Geshichte Aegyptens unter dem Islam. Strassbourg, 1902—1903.

Bel : Coup d'œil sur l'Islam en Berbérie. Paris, 1917.

: La religion musulmane en Barbérie. Paris, 1938.

Bell : Jews and Christians in Egypt. London, 1924.

Betty : Le Calife Hakim. Dieu de l'An Mille. Paris, S. d.

Beylié : La Kalaa des Beni Hammâd. Une Capitale berbère de l'Afrique du Nord au XIe Siècle. Paris, 1909.

Blochet : Le Messianisme dans L'hétérodoxie Musulmane. Paris, 1903.

: Etudes sur l'ésotérisme musulman Paris, 1910.

Bowen : The last Buwayhids. J. R. A. S, April 1929, pp. 225—246.

Brémond : Berbères et Arabes. Paris, 1942.

Cahen : Une Correspondance bûyide inédite. Studi Orientalistici in onore di G. Levi Della Vida, 1956, pp 83 - 97.

Canard : Sayf al-daula le Hamdanide. Alger, 1934.

: Deux documents arabes sur Bardas Skleros, Studi Bizantini e Neoellenice Vol V/1; Rome, 1939.

: L'impérialisme des Fatimides et leur Propagande. A. I. E. O. VI, 1942 - 7. p. 156 - 193.

: Deux épisodes des relations diplomatiques arabo-byzantines au Xe Siècle. Alger, 1950.

: Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazira et de Syrie, tI, Paris, 1953.

Casanova : La Doctrine Secrète des Fatimides d'Egypte. Ext. du Bull. de l'Inst. F. A. O, t, XVIII, Le Caire, 1920.

Cedrenus : Synopsis Historiae. Corpus Scriptiorum historiae byzanti. ae (C. S. H. B.) 1838 - 9.

Défrémery : Recherches et nouvelles recherches sur les Bathiniens ou Ismaêliens de Syrie. J. A. 1849.

De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimidse. Leide, 1886.

: La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahrain. J. A. 1895.

De Sacy : Recherches sur l'Initiation à la Secte Ismaelienne. J. A. 1824.

: Exposé de la Religion des Druzes et Précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem Biamar - Allah. 2 Vol. Paris, 1838.

De Tassy : Mémoire sur les noms propres et sur les titres Musulmans. J. A. 1854, t III, p. 422—518.

Diehl (Ch) : Histoire de l'Empire byzantin. Paris, 1924.

Dölger : Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches I. Berlin - Munich, 1924.

Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes. 2 ed. Leyden, 1881.

Dussaud : Histoire et réligion des Nosairis. Paris, 1900.

Encyclopédie de l'Islam 1éd; 2ed.

Freytag : Geschichte der dynastien der Hamdaniden in Mosul und Aleppo Z. D. M, G. X, XI, 1856 - 1857.

Gaudefroy - Demombynes et Platonov : Le Monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades. Paris, 1931.

Gottheil : A distinguished family of Fatimide Cadis. J. A. O. S., XXVII, 1906, p. 217—296.

Guyard : Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis. Paris, 1874.

Hassan Ibrahim : Relations between the Fâtimids in North Africa and Egypt.
(مجلة كلية الآداب ، العدد ١٠ ، الجزء ٢ ، ديسمبر ١٩٤٨)

Hamdani : A compendium of Ismaïli Esoteric (Zahru'l-Ma'ânî) Isl. Cult. XI, 1937. p. 216 - 220.

Hitti : The Origins of the Druze People and Religion. Columbia, 1929.
: History of Syria. London, 1951.

Hogarth : Arabia. Oxford, 1922.

Ivanow : A Guide to Ismaili Literature. London, 1933.
: The Organization of the Fatimid Propaganda. J. B. B. R. A. S., Vol 15., 1939, P.1—35.
: Ismailis and Qarmatians. J. B. B. R. A. S., 1940, p. 43—85.
: Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids. Oxford, 1942.
: The alleged Founder of Ismailism. Bombay, 1946.
: Studies in the Early Persian Ismailism. Leiden, 1947. The Ismaili Society Series. No. 3.

Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen 2 Bande. Vienna, 1875—1877.

Lane — Poole : History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

Lavoix : Catalogue des monnaies musimanes de la Bibliothèque Nationale. t3 : Egypte et Syrie [illegible] 1896.

Léon Diacre ed. [illegible] CSHB. 1828.

Lewis [illegible] origins of Isma'ilism ; a study of the historical background of the Fatimid Caliphate. Cambridge, 1920.

Ma[illegible] : Polemics on the origin of the Fatimi[illegible] Caliphs. London, 1934.

Man[illegible] : The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 Vol. Oxford, 1920.

Margoliouth : On Mahdis and Mahdism, Proceedings of the British Academy Vol. VII, pp 1—21.

Minorsky : La domination des Dailamites. [illegible]

Ni ‹bolson (J) : An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa. Tubingen, 1840.

O'Leary : A short history of the Fatimid khalifate. London, 1953.

Quatre : Vie du Calife fatimide Moeizz lidin Allah. J. A. 1836.

Recueil des Historiens des Croisades : Hist. Occ. tI - VI. Paris 1844—86 ; Hist. Arm. 1—2. 1869 : Hist. Gr 1—2. Paris.

Runciman : A History of the Firist Bulgarian Empire. Londor, 1930.

: La Civilisation byzantine 330—1453. trad. Lévy. Paris, 1952.

Schlumberger : L'Epopée Byzantine à la Fin du Dixième siècle, 3 Vol. Paris, 1896—1905.

: Un Empreur byzantin au X Siècle. Nicephore Phocas Paris, 1890.

Snouck Hurgronje : Der Mahdi. Revue Coloniale Internationale. 1886.

Stern : Herterdox Ismâ'ilism at the time of al-Mu'izz. B. S. O. A. S, 17, 1955, pp. 10—33

Vatikiotis : A Reconstruction of the Fatimid Theory of the State. Isl - Cult. 28 ; 1954, pp. 399—409.

: The Syncretic Origins of the Fatimid Da'wa. Isl. Cult. 28, 1954, pp. 475 - 491.

Weuleresse : Les pays des Alaouites. Tours, 1940.

Wiet : L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la Conquête ottomane t IV. Le Caire, 1938.

et Combe et Sauvaget : Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire, 1931.

Wolff : Die Drusen und ihre Vorlaufr. Leipzig. 1845.

Wüstenfeld : Geschichte der Fatimiden Chalifen. Gottingen, 1881.

Zananiri : L'Egypte et l'équilibre du Levant au Moyon Age. Marseille, 1936.

جـ — الكشاف

الأعـلام

الأماكن

الملاحق

الملحق رقم ١

سجل الخليفة الحاكم بأمر الله ، إلى هارون بن محمد القائم بالدعوة باليمن

(عيون الأخبار ٦/٢٧١ — ٢٧٣)

حسين الهمداني ، الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، ص ٣٠١ ملحق رقم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

من عبد الله ووليه الإمام المنصور بالله أبي على ، الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى هارون ابن محمد .

سلام الله عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد الذى نعمه لا تحصى على من أطاع وعصى ، فذو الطاعة لما به من نعمة علا ، وذو المعصية إلى حد ما له علا . يستفيد هذا بشكره رحمة ورضوانا ، كما يستزيد ذلك بكفره إثما وعدوانا ، وكل سوف يؤتى كتابه ، ثم لا شك يوفى حسابه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا .

وإن الذى كتبت به ياهارون بن محمد عنك وعن المؤمنين بأرض اليمن ، على يد المعروف بأبي الخير بن محمد بن يوسف ، بتاريخ يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر شوال سنة تسعين وثلثمائة ، قد وصل . فأما ما شرحت من خبر من طلبت ما لم يكتب له ويقسم ، فأمره لابد أن ينقم ، وذكره بعار له سوف يوسم .

وأما ما ذكرت إنفاذه على يد وسولك من قرابين المؤمنين ، فهو من الذهب وزن سبعين درهما ومن الورق ألفا درهم . فالله يتقبل لمن عمل ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون . وعليك أن تسلك بالمستجيبين الواجب ، وتتجنب بهم كل طريق مجانب ، لكتاب الله وسنة نبيه جدنا محمد ، والمأخوذ عن آبائنا الأئمة المهديين صلوات الله على النبي ووصيه وعليهم أجمعين ، والمسموع من أفواه المحققين ، لا المأخوذ عن ألسن المتخرصين ، وليكن فتواك للمستفيدين فى الحلال والحرام ، من كتاب الدعائم ، دون ما سواه من الكتب المفتعلة .

وأما ما سألت إنفاذه إليك من الدواء المبارك ، فسيأتيك منه ما يجب فى وقته على يد من يوثق بتأديته وأمانته . وقد كتب إلى الحضرة مظفر بن زياد كتاباً ذكر حامله أنه ضاع منه فى طريقه ، وسئل عما تضمنه؟ فحكى أن الذى يحفظه منه استدعاء من يأخذ عليه من الحضرة ، فأجيب إلى الرجوع إليك فى هذا إذ كنت منه قريباً ، ولما هذه سبيله منصوباً . فاعرف ذلك ، واطلع ماعند مظفر وفقه الله ، وطالع الحضرة إن شاء الله . .

والسلام عليك ورحمة الله .

وكتب لعشر خلون من ذى القعدة من إحدى وتسعين وثلثمائة.

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد ، وآله الطاهرين ، وسلم عليه وعليهم أجمعين .

ملحق رقم ٢

صيغة الأمان ، الذى أخرج لحسين بن جوهر

عيون الأخبار ، ٦/٧ ورقا ٢٤٨ — ٢٥١

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ، فإنك بأمير المؤمنين ظهرت ، وبسقيا نعمه نبت ، وأغصانها أقلتك ، ودوحاتها أظلتك ، وعهدها تميمتك ، وعقدها ذخرك وغنيمتك ، وكم لآباء أمير المؤمنين على أبائك نعم أمثالها ، وفيهم عوائدها وبواديها وأشكالها ، فاشتروهم من التجار ، وملكوهم أزمة الأحرار ، وأعطوهم أعنة الكبار ، وجعلوا أعقابهم ملوك الأقطار ، وأعلام الأمصار ؟ فصاروا رؤساء بعد أن كانوا أذناباً ، وصدروا بعد أن كانوا أعقاباً ، فقادوا العساكر ، ورقوا رءوس المنابر ، وركبوا رقاب الدهر ، وحكموا فى الأموال والدماء بنافذ الأمر ، وأبقى ذلك أمير المؤمنين ووفره ، وأفاض بسجاله وادره ، ولم يقتصر بك على ذلك حتى جذب بضبعيك من مطارح العبيد ، إلى مطالع الأحرار الصيد ، فعقد لك الوزارة والقيادة وجللك رداء العز والسيادة ، وألقى إليك مقاليد الأمر ، وبسط يديك فى البدو والحضر ، وأعطاك ما لم تسم بك إليه همة ، وخولك مالم يبلغ بك إليه أمنية ، وفضلك على كثير من مواليه ، وعصبه وأدانيه وأقاربه ، وعظم خطرك وقدرك ، وأنفذ صيتك وذكرك ، تنهى وتأمر وتورد وتصدر ، وتنفع وتضر ، وتسوء وتسر ، وصرت بشدة أمرك ورفعة قدرك جباراً عظيماً ، وسلطاناً قوياً ، تمضى ما شئته ولا تناقض ، وتملك ما أردت ولا تعارض ، ولم يدر أن مثل إحسانه إليك يكفر ، ومثل متجره فيك يخسر ، فبطرت عيشك ، ونسيت أمسك ، وجهلت نفسك ، وخنت ولى نعمتك ، وعصيت مالك ناصيتك ، فاستبدلت بشعار الطاعة جلباب المعصية ، وركبت بمركب العبودية مركب الحرية ، وأوضعت وأوجفت قائد الضلالة والجهالة ، ونقضت العهد وحللت العقد ، ونقل إليك بسوء نيتك وسقم طويتك ، الغدر الذى وليت عليه ، فظننت

أن أمير المؤمنين — وبعض الظن إثم — قال مما عاهدك ، وبدا له فيما عاقدك — وحاشاه عن ذلك — وما عسى — غفر الله لك — أن تقول إذا تناقلت زلتك الألسن العادلة ، وبثت حديثك الأندية الحافلة ، وما عذرك إذا قيل لك لم خرجت عن الأوطان ، وتطرحت في البلدان ، وخليت دارك التي فيها درجت ، ومنها خرجت ، وقلدت نفسك بما لا يدحضه الاعتذار ، ولا يمحيه الليل والنهار ، ولم يثلم لك مال ، ولا يغير لك حال ، ولم تبتز ثوب الكرامة ، ولم تسلب ظل السلامة ، نعوذ بالله العظيم من نعمة تتعرى عن جلبابها ، ومرهبة لساخ من إهابها ؛ ومع ذلك فتدعى أننا نبتغي لك الغوائل ، وننصب لك الحبائل ، ونقصد منك المقاتل ، ونشره إلى حيازة مالك ، ونسارع إلى استضامة حالك ، لا عن دلالة تقيمها وتظهرها ، ولا عن حجة تتدلى بها وتذكرها ، إلا الإرادة أن يتداول الناس دعواك ، ويتفاوضوا شكواك ، فيخيل في نفوسهم ، ويقرر في قلوبهم ، أن لك رخصة فيما ارتكبته ، وفسحة فيما اجتنيته ، وبالله لو كانت التهمة منك بنا واقعة ، لكانت طاعتك لنا أزين من مخالفتنا ، كيف وعلام الخفايا والغيوب ، والمطلع على الضمائر في القلوب ، يشهد عليك باستحالة ما تذكره ، ويناقض ما تضمره ، ولو كان أمير المؤمنين يريد بك سوءا ، ويبغى لك مكروها ، لكان مرامه أيسر ، وطريقه أحضر ، ولأخذك جهرا ، وآسرك قهرا ، ولم يراقب فيك أمرا ؛ فإن الله تعالى قدره ، ولله تعالى القدرة التي لو رام بها البر لأغرقه ، أو البحر لأحرقه ، أو الجبل الراسي لدكدكه ، والفلك الدوار لأمسكه ؛ فإن نزلت عن مطية العصيان ، وخلعت خلعة الطغيان ، واستقلت عثرتك ، واستغفرت ذنبك ، وأتيت إلى باب مولاك ، ورجعت إلى آخرتك وأولاك ، وجدته عليك عطوفا ، وبك رءوفا ، ولعذرك ممهدا ، ولجريرتك متغمداً ، فيسحب ذيله على ذنوبك ، ويسبل ستره على عيوبك ، ويشملك أمانه الذي لابسه يوقى النار ، وتصرف عنه آفات الليل والنهار ، ويردك إلى سبيل وقائك ، ويعيد إلى أرضك صوب سمائك ، ويعطف عليك بالحفظ والاستقامة إليك ، والشح عليك ، ورفع الظنة عنك ، وإلقاء كلام الموحشين منك ، فيرد اقطاعك ورسومك ، ويراعي أمورك وحقوقك ، فتشتد أواخيك ، وتحمي نواحيك ، وتزداد على ما كنت تحويه ، وتعطى أكثر مما ترومه وتبتغيه ، وتكون في أيامه مرفهاً مبجلا ، وفي دولته معززاً ومفضلا ، مرفوعاً عن بذلة الخدمه ، محمولا على جلالة الحرمة ، مساعفاً فيما تطلبه وتهواه ، مسوفاً ما تقترحه وتتمناه ، ومشفعاً فيما تلتمسه ، مجاباً إلى ما ترومه وتفعله ؛ فإن أبيت إلا الإباء والعلو والجماح والعتو ، فما أهون انتسافك ، وما أيسر اختطافك ، وما أقرب ما تلتف عليك الحبائل ، وتحيط بك الغوائل ، وتساورك المنية ، وتحيط بك الأمنية ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام على من أبصر وفكر .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد نبيه ، وآله الطاهرين .

نسخة السجل الذى وجد معلقا على المشاهد فى غيبة مولانا الإمام الحاكم

مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٧ عقائد النحل ، ومخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٦٧٥٩ ، وعنان ، الحاكم بأمر الله ، ص ٢٥٩ — ٢٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم .

والعاقبة لمن تيقظ من وسن الغافلين ، وانتقل عن جهل الجاهلين ، وأخلص منه اليقين ، فبادر بالتوبة إلى الله تعالى ، وإلى وليه وحجته على العالمين ، وخليفته فى أرضه ، وأمينه على خلقه أمير المؤمنين ، واغتنم الفوز مع المطهرين والمتقين ، ولم يكذب بيوم الدين ، وكان بالغيب من المصدقين به والموقنين ، وأعتقد أن الساعة آتية بغتة لا ريب فيها ، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، المردة الشياطين ، الفسقة المارقين ، وكل حلاف مهين ، الناكثين الباغين ، المفسدين الطاغين ، أهل الخلاف والنافقين ، المكذبين بيوم الدين ، المغضوب عليهم والضالين ، والحمد لله حمد الشاكرين ، حمداً لا نفاذ لآخره أبد الآبدين ، وصلى الله على سيد المرسلين ، محمد المبعوث بالقرآن إلى الخلق أجمعين ، ومبشرا ونذيرا بأئمة من ذريته هادين مهديين ، كراما كاتبين ، شهداء على العالمين ؛ ليبينوا للناس ما هم فيه مختلفون ، وعنه يتساءلون ، ويرشدونهم إلى النبأ العظيم ، والصراط المستقيم ، سلام الله السنى السامى عليهم إلى يوم الدين .

أما بعد ، أيها الناس فقد سبق إليكم من الوعد والوعظ والوعيد ، من ولى أمركم وإمام عصركم ، وخلف أنبيائكم وحجة بارئكم ، وخليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم ، وجميع ما اقترفتم فيه ، من الأعذار والأنذار ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع ، واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا ، وأنتم مع ذلك فى وادى الجهالة تسبحون ، وفى تيه الضلالة تخوضون وتلعبون ، حتى تلاقون يومكم الذى كنتم به توعدون ؛ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين . وقد علمتم معشر الكافة ، أن جميع ما ورثه الله تعالى لوليه وخليفته فى أرضه ، أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، من النعم الظاهرة والباطنة ، قد خول إمام عصركم لشريفكم ومشروفكم من خاصتكم وعامتكم ، من ظاهر ذلك وباطنه ، على الإكثار والإمكان بفضله وكرمه ، حسب ما رأى سلام الله عليه ، ولم يبخل بجزيل عطائه ، ولا منا كم منة منه ، مع ذلك ما أوجبه الله تعالى له عليكم ، فى كتابه من الحق ، فيما ملكته إيمانكم ، ولم يشارككم فى شىء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ورفضا منه لها ، على مقداره ومكنته ، لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه أعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ، ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم ، ولا أدرك قوة أنبأ منه أحد من الأمم الذين خلوا من قبلكم من المهاجرين والأنصار ، فى متقدم الأزمان والأعصار ، ولم تنالوا ذلك من

ولى الله باستحقاق ، ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ، بل منة منه عليكم ، ولطفا بكم ورأفة ورحمة ، واختبارا ليبلوكم أيكم أحسن عملا ؛ ولتعرفوا قدر ما خصكم به فى عصره من نعمته ، وحسن منته ، وجميل لطفه ، وعظيم فضله وإحسانه ، دون من قد سلف من قبلكم ؛ فاشكروا الله ووليه كثيرا على ما خولكم من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وتعملون عملا يرضى ويضاهى أعمال الأمم السالفين أضعافا ، حسب ما ضاعفه لكم ولى الله فى عصره من نعمه الظاهرة الجليلة ، من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام ، إلى غير ذلك من الأرزاق ، والأقطاع والضياع وغيره من أغراض الدنيا ، على اختلاف أصناف إحسانه ، ورقى خاصتكم وعامتكم إلى الدرجات العالية ، والرتب السامية ؛ لتقفوا مسالك أولى الألباب ، وأمركم وشرفكم بأحسن الألقاب ، وجولكم فى الأرض مشرقا ومغربا ، وسهلا وجبلا ، وبرا وبحرا ، فأنتم ملوكها وسلاطينها ، وجباة أموالها ، تفك لكم عادة ولى الله الرقاب ، وتنقاد إليكم الوفود والأحزاب ، وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ؛ فعشتم فى فضل أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، رغدا بغير عمل ، وترجون بعد ذلك حسن مآب .
ومن نعمه الباطنة عليكم ، تمسككم فى ظاهر مرامكم بموالاته ، تحوزون بها معانى دنياكم ، وترجون بها نجاتكم ، والفوز فى آخرتكم ، فقد عتوتم على الله وعلى وليه بإيمانكم ، بل الله يمن عليكم إذ هداكم إلى الإيمان ، فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية ، ولو استقمتم على الطريقة الوسطى ؛ لأسقيتم ماء غدقا . ثم من نعمه الباطنة عليكم احياؤه لدين الإسلام والإيمان ، التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وظهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، وميزتم من عبدة الأوثان ، وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان ، وهدم كنائسهم ، ومعالم أديانهم ، وقد كانت قديمة من قدم الزمان ، وانقادت الذمة إليكم طوعا وكرها ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ؛ وبنى الجوامع وشيدها ، وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد ، وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وغفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة الصدقات ، وستر العورات ، وترك الظلامات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، التى جعلها الله تعالى عليكم من المفترضات ، وقسم الأرض على الكافة شبرا شبرا ، وداولها بين الناس حينا ودهرا ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ؛ ليهديكم بها إلى رحمته ، ويحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ؛ لتبلغوا مبالغ الصالحين ؛ فشئتم العلم والحكمة ، وكفرتم بالفضل والنعمة ، ونبذتم ذلك وراء ظهوركم ، وآثرتم عليه الدنيا كما آثرها قبلكم بنو إسرائيل فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام . وغلق باب دعوته ، وأظهر لكم الحكمة ، وفتح لكم خارج قصره دار علم ، حوت من جميع علوم الدين وآدابه ، وفقه الكتاب ، فى الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، مما هو فى صحف الأولين ، وصحف إبراهيم وموسى صلى الله عليهم أجمعين ، وأمدكم بالأوراق والأرزاق والحبر والأقلام ؛ لتدركوا

بذلك ما تحظون به وتستبصرون ، وبه من الجهل تفوزون ، وقد كنتم قبل ذلك في طلب بعضه تجهدون ، فرفضتموه وقصرتم ، وعن جميعه أعرضتم ، إعراض الضلين ، ولم يزدكم ذلك إلا فرارا ، وماله بكم الهوى الى الموبقات ، ومكنتم من اكتساب السيئات ، ونقضتم العلم ، وأظهرتم الجهل ، وكثر بغيكم ومرحكم على الأرض ؛ حتى كاد لها أن تضج الى الله تعالى فيكم من كثرة جوركم ومرحكم عليها ، وولى الله سلام الله عليه ، ، مكافح فيكم رجاء أن تتيقظ خاصتكم ، وتستفيق من السكر والجهل عامتكم ، فما ازددتم إلا طغيانا وعصيانا واختلافا ، تتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وعدو الله وعدو أمير المؤمنين ، قد قصر عن الفساد يده مخافة من سطوات ولى الله ، ورضى منه بالمسالمة والمهادنة ، حتى ليس لأمير المؤمنين سلام الله عليه عدو يجاهده ، ولا ضد يعانده ، والكل من هيبته خايف وجل ، وأنتم معشر الخاص والعام بحضرته ، تضمكم دولته ، وتشملكم ولايته ، وتلزمكم طاعته ، وأنتم مع ما تقدم ذكره من مساوئكم متحاقدين متماندين متزاحفين ، يجاهد بعضكم بعضا كالروم والخزر جرأة على الله بغير مخافة منه ولا ترقب ، ولا ينهيكم عن سفك الدماء وهتك الحريم دين من الله ، ولا وقارا من امامكم ولا يقينا ، قد غاب عليكم الجهل فلن ترجو لله وقارا ، ولن تقولوا إن امام عصركم واحد ، وأن الإسلام والايمان قد شملكم وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله ، ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فأى نازلة هي أكبر منها ، وأى شماتة للعدو ، وبكم أعظم من مثلها . لقد أصبتم أيها الناس في أنفسكم وأديانكم ، وأصيب فيكم أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أفأمنتم أيها الغافلون أن يصيبكم ما أصاب من كان قبلكم من أصحاب الأيكة وقوم تبع ، ألم تسمعوا قول الله تعالى : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد .... الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد. سورة الفجر (٨٩) » ؟ وقوله تعالى : «ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين . سورة المرسلات ٧٧ : ١٦ — ١٨» ومثل هذا أكثر في كتاب الله عز وجل . مما أصاب أهل الفساد والخلاف والمنافقين والمفسدين في الأرض ؛ فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، من عظم إسراف السكانة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم ، قال الله ذو الجلال والإكرام : «وما كان الله ليعذبهم ، وأنت فيهم ٨ : ٣٣ » . وعلامة سخط ولى الله تعالى ، تدل على سخط الرب تبارك وتعالى ؟ فمن دلائل غضب الإمام ، غلق باب دعوته ، ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع هواوين أوليائه وعبيده من قصره ، ومنعه عن السكانة سلامه ، وقد كان يخرج اليهم من حضرته ، ومنعه لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد وفي شهر رمضان ؛ ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان ، ولا يذكرونه ، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ، ولا يقبلوا له التراب ، وذلك مفترض له على جميع أهل طاعته ، وانهاؤه جميعهم عن الترجل له من ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة في موكبه ،



وامتناعه إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك في غمرة ساهون ؛ استحوذ عليهم الشيطان ، فأنساهم ذكر الله ؛ أولئك حزب الشيطان ، ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون . فقد ترك ولي الله أمير المؤمنين — سلام الله عليه — الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون في التيه والعمى ، الذي آثروه على الهدى ، كما ترك موسى قومه حتى آن الهلاك أن يهجم عليهم وهم لا يعلمون ، وخرج عنهم وهم في شك منه مختلفون ، مذبذبون بين ذلك ، لا إلى الحق يطيعون ، ولا إلى ولي الله يرجعون ، قال الله تعالى : « ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ٤ : ٨٣ » . أيها الناس كلام الله أوعظ واعظ ، ويين منه وعظكم بهذه الموعظة ، من الفقر والحاجة إلى عفو الله تعالى ، وعفو وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، أعظم منكم . فبالنسيان تكون الغفلة ، وبالغفلة تكون الفتنة ، وبالفتنة تكون الهلكة ؛ وقد قال الله تبارك وتعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما ٤ : ٦٤ » . وقال عز من قائل إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ٢ : ٢٢٢ » ؛ وقال تبارك وتعالى : « وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني ٢ : ١٨٦ » . فالبدار البدار معشر الناس أن وقفتم على براح من الأرض يكون أول طريق سلكها أمير المؤمنين سلام الله عليه وقت أن استترنضر أعينكم ، وتجتمعوا فيها بأنفسكم وأولادكم ، وطهروا قلوبكم ، وأخلصوا نياتكم لله رب العالمين ، وتوبوا إليه توبة نصوحاً ، وتوسلوا إليه بأوجه الوسائل بالصفح منكم والمغفرة لكم ، وأن يرحمكم بمودة وليه إليكم ؛ وينعطف بقلبه عليكم ، فهو رحمة عليكم وعلى جميع خلقه ، كما قال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ٢١ : ١٠٧ » .

فالحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين سلام الله عليه أثراً ، ولا تكشفوا له خبراً ، ولا تبرحوا في أول طريق يتوسل جميعكم ، كذلك أمرناكم ؛ فإذا أظلت عليكم الرحمة ، خرج ولي الله إمامكم باختياره راضياً عنكم ، ظاهراً في أوساطكم ، فواظبوا على ذلك ليلا ونهاراً ، قبل أن تحق الحاقة ، وتقرع القارعة ، ويغلق باب الرحمة ، وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر ، ونصح من قبلكم نفسه وحذر ، والخطاب لأولى الألباب منكم ، والتعيين عليهم ، والمشيئة لله تبارك وتعالى ، والتوفيق به ، والسلام على من اتبع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وصدق بكلمات ربه الحسنى .

وكتب مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه في شهر ذي القعدة سنة إحدى عشرة وأربعمائة .

وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسلم على آله الطاهرين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تحتفظ أصحاب العمل بهذه الموعظة من المتقين ، ولا يمنع أحد من نسخها وقراءتها ، نفع الله من وفق للعمل بما فيها من طاعة الله وطاعة وليه أمير المؤمنين ، سلام الله عليه . حرام حرام على من لا ينسخها ويقرأها على التوابين في جامع أسفل ، وحرام حرام على من قدر على نسخها ، وقصر ، والحمد لله وحده .



AL - HAKEM BIAMAR ALLAH

Le Calife Blasphémé

par

Dr. A. M. MAGUED

Professeur de l'Histoire Islamique

A

La Faculté des Lettres

Et

Directeur du Centre des Etudes de Papyrologie

Université de Ain Shams

Deuxième Edition

Le Caire

1983



Editeur

Librairie Anglo-Egyptienne